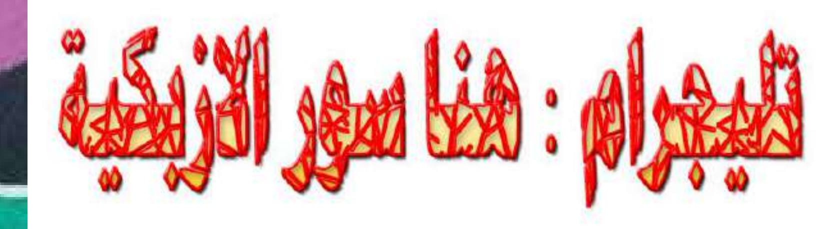


ويلهلم رايش
وآخرون



الانسان والحضارة والتحليل النفسي

ترجمة
أنطون شاهين

الإنسان والحضارة
والتحليل النفسي



مقدمة

انها مجموعة مقالات علمية وشيقة، عميقة وموجزة في آن واحد تتناول الجوانب الحضارية للانسان في ضوء علم نفس الأعماق . وهي تدور حول محاور عدة تتركز في موضوع التحليل النفسي ليخض القارىء العربي غمار علم نجابه في حياتنا في سبيل صقل الثقافة وتعميق الوعي . ان الكشف عن الأسباب غاية كل علم ، وخاصة علم النفس بفرعه التحليل النفسي .

ويحتل التحليل النفسي مكانة مرموقة بين باقي العلوم ويشكل عاملاً حاسماً بين العوامل التي تحدد الاتجاه الفكري في عصرنا .

وكاتبو هـــذه المقالات أعلام من علماء الفكر الأوروبي المعاصر ، يتسمون بالنزاهة في البحث. وتعد هذه الدراسات على حد تعبير فرويد الذي طالع معظمها أفضل مدخل في التحليل النفسي . ونذكر من اركان هـــذه المدرسة المنبثقة عن فرويد ، الدكتور في الطب والمدرس في جامعة لوس انجلوس فرانتز الكساندر، والدكتور في القانون هانس ساكس (بوسطن)، والدكتور في القانون هوغو شناوب (باريس) ، والدكتور في الطب كونراد فان بواس (أمستردام) .

والعلاقة في التحليل النفسي في ضوء المنهج المادي الجدلي والذي ترجم مؤخراً كتابه « الثورة الجنسية » فيلهلم رايخ ، واهم يونغ الذى أرى أنه لابد من أن اكرس له هذه السطور، ويعد من الرواد العظام في هذا المضمار .



أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
علي
@alisirosch
" أما نحن ، فنمثل الاستثناء والخطر ." #نيتشه
انضمّ في مايو ٢٠١٦
٥١ المتابَعون ٢،٣٦٨ المتابِعون

ولد في كسفيل (سويسرا) عمل استاذاً في جامعة « بازل » وفي المعهد العالي التقني في « زوريخ » . تعاون من عام ١٩٠٠ حتى العام ١٩٠٩ مع الطبيب النفساني بويلر من ١٩٠٧ حتى ١٩١٣ مع سيغمولد فرويد أشهر مؤلفاته هي :

- تبدلات الليبدو ورموزه ١٩١٢
- النماذج النفسانية ١٩٢٠
- اللاوعي في الحياة النفسية السوية والشاذة ١٩٢٩
- بسيكولوجية اللاوعي ١٩٣٣
- العلاقات الماثلة بين الأنا واللاوعي ١٩٤٠
- المشكلات النفسية في الحياة الحاضرة ١٩٣١
- علم النفس والدين ١٩٣٩
- علم النفس والتربية ١٩٤٦
- رمزية العقل ١٩٤٨
- جوهر الاحلام ١٩٤٨
- حول جذور الشعور ١٩٥٤
- مدخل في جوهر الميثولوجيا (بالاشتراك مع كيريني) ١٩٤١

في المقال المنشور في كتابه (عالم النفس) ١٩٦٥ تحت عنوان « علم النفس والشعر » يحاول أن يبرهن معتمداً على نماذج من الأدب العالمي « أن النفس هي أم كل علم فني والوعاء الذي يحتويه » متبعاً منهجه في التحليل النفسي .

لقد ترعرع هذا العلم على يدي فرويد ، ولاقى علم نفس الاعماق هذا أهمية كبرى ، خاصة فيا يتعلق بالوعي العــام بعصرنا و كيف ينهج ليعبر عن مكنوناته أدباً وفناً ، وكذلك فيا يتعلق بصورة الانسان الــتي تحاول الانتروبولوجيا الفلسفية الجديدة رسم خطوطها وتبيان معالمها على ضوء تفسيراته ، فما كان يسبر غوره الشعراء في كل الأزمنة وما تلمسه الفلاسفة أمثال شوبنهور ونيتشه بصورة مجملة وعن طريق الحدس حاول فرويد التثبت من صحته ناهجاً السبل التجريبية . لقد اكتشف فرويد مملكة اللاوعي وجبروتها الهائل في الحياة النفسية ، ويعد يونغ من تلاميذه النجباء لانه أبدع وبنى وشق طريقاً خاصاً به مقتبساً من استاذه ، ناقداً له .

لا يرى يونغ أن الليبدو يقوم بالدور الرئيسي في الحياة النفسية فهو ليس سوى مظهر من مظاهرها . فليست الطاقة الجنسية كل شيء . وهذا مكمن القوة في اتجاهه . كما يرفض وجود لا شعور شخصي فقط كما تقول النظرية الفرويدية . نظرية يونغ تقف قبالة النظرية الآولرية التي تذهب إلى أن « ارادة القوة » هي المحرك الأساسي لحياة الانسان النفسية وأن ما يحفز الانسان الى القيام بالتعويض هو عقدة والشعور بالنقص » . الا أن ارادة القوة ليست أيضاً سوى مظهر من مظاهر الحياة النفسية .

وما يهمنا في هذه المقدمة هو عرض رأي يونغ حول اللاشعور الجمعي وعلاقته بالابداع الحق :

ان اللاوعي، الذي يمثل الارض الأم المبدعة للوعي يتألف من محتويات تعود الى جانب شخصي ، الى التكون الوجودي (الانطوجيني) ويمكن أن نطلق عليه اسم « اللاشعور الشخصي » ؛ وأخرى تعود الى عنصر جمعي ، الى التكون السلالي والنوعي (فيلوجيني) ويمكن ان نطلق عليه اسم « اللاشعور

الجمعي » . وهذا الاخير هو الذي يحدد نمط أفعال وردود أفعال النفس ، أي النماذج الأولى السحيقة التي تشاهد كرموز في الاحلام واحلام اليقظة وعالم الرؤى والخيال . وقد لاقت في الاساطير والتصورات الدينيـــة والخرافات والقصص الشعبية والاعمال الفنية في جميع الحضارات والازمنة تعبيراً لها .

بعض النماذج الاولى المنبثقة من قرائح الشعراء ، التابعـة من مخيلة بعض فلاسفة الحياة تقتضي وجود لا وعي جمعي ، فهي والحالة هذه مثال سحيق لشيء ما ، لرمز ما، يعبر عن تراث تشترك فيه الامة البكر وبالاحرى الانسانية البكر ، وعلم الادب الحديث يبحث - حسب رأي يونغ - في هذه النماذج الاولى كحصيلة لخبرات ظاهرية وباطنية عانتها الانسانية عبر الزمن ، ونصادفها في الاساطير وغيرها وتؤثر فيهم بشكل لاشعوري الى حد ما .

فالانسان المبدع مصهور في تأليف ثنائي ، الجانب « الانساني - الشخصي » والجانب « اللاشخصي - الانساني » ؛ فهو كشخص يتميز بطباع معينة وغايات متنوعة ، ولكنه كفنان مبدع عليه أن يكون انساناً جمعياً ، لأن الفن الأصيل ينبع من الانسان الجمعي لا من الانسان كشخص . والعمل الفني الأصيل هو الذي يضع يده على جذور مشكلات الشعب ، هو التعبير الحق عن آمال أمـــة تكمن بالقوة . وعلى الرغم من أنه قد لا يتسم بطابع شخصي ، فهو يلامس أعمق أعماق الأماني الثاوية في قرارة النفوس ويضرب على الأوتار الحساسة في القلوب ، لأن الانسان المبدع الذي خطه قد انطلق من ساحة الشعور ، نفذ إلى ساحـــة اللاشعور الجمعي ، حوّم فوق هذا اللاشعور واحتضنه في لحظات إلهام صوفية .

والآن ، هل الانسان المبدع الذي نفذ الى خير اللاشعور هو انسان مريض نفسياً ؟

على الرغم من أن ٩٠٪ من العباقرة (كما حدد ذلك لانجه - ايشباوم)

كانوا يعانون من اضطراب عقـــلي أو نفسي ، إلا أن ارتباط العبقرية بأمراض عصابية ليس ضرورة حتميـة . فعنصر المرض لا يعني بالضرورة أن المرض سبب والعبقرية نتيجة ، بل قـد تعني وبنفس القوة أن العبقرية في احتكاكها مع بيئة اجتماعية قاسية جامدة هي السبب . وقديماً قيل : «العبقرية ترتمي عندعتبات الفقراء، وانما من الألم ينبع الامل ؟ فالفنان المبدع يتعارض وجوده مع الوجود الاجتماعي، فيحاول تثويره بالكلمة، بالريشة ، وبقدر ما يغوص في قرارة نفسه ، بقدر ما يلامس آمال ذلك المجتمع في خضم لاشعوره الجمعي !

لا يمكن للتحليل النفسي أن يحل محل ايديولوجية ، رغم أنـه يحمل في طياته انقلاباً للقيم . أما التحرر من العقلية الجنسية البرجوازية فيتطابق مع مهام الايديولوجية الاشتراكية التي تقلب القيم القديمة معتمدة على الثورة الاقتصادية ـ الاجتماعيـة ، ذلك أن العوامل التي تسبب التهيجات العصبية والامراض النفسية المتنوعـة تعود الى أخلاق المجتمع الصناعي وإلى ركضه اللاهث نحو الربح . ومعظم هذه العوامل زائل في مجتمع انساني اشتراكي .

والخطر الذي يجب أن يحذر منه هو الاتبـاع الأعمى للتحاليل النفسية الجزئية التي أتى بها كل من فرويد وآدلر ويونغ لانها تؤدي إلى مزالق خطرة، ان الظاهرة النفسية في التحليل النفسي تحمل طابعاً نشوئياً تاريخياً جدلياً . أما الزعم أن التحليل النفسي هو تحليل مثـالي ميتافيزيقي فحسب ، فهـذا زعم مبني على استيعاب سطحي عامي لمفهوم الظاهرة النفسية والطريقة الجديدة التحليلية المتبعة في هذا العلم .

أنطون شاهين

علم النفس والنظرة الكلية الى الكون

كارل غوستاف يونغ

انطلق فن المعالجة النفسية من طرائق عملية ومعيّنة عديدة ، بحيث أنه جاهد طويلاً ليدرك أسسه الفكرية الخاصة به . وكما أن علم النفس التجريبي استند في البدء إلى مفاهيم فيزيائية ومن ثم إلى مفاهيم فيزيولوجية وبعدها ساورته الجرأة بالتقرب متردداً من الظاهرات المفعمة بالعقد ، أي خوض ميدان عمله الخاص به ، كذلك اتخذ فن المعالجة النفسية في البدء صفة طريقة من الطرائق المعيّنة وانعتق بعدها شيئاً فشيئاً من أفق التفكير العلاجي القائم على الطب ، واجمع الرأي على أن هذا الفن لايتعامل مع افتراضات فيزيولوجية فحسب ، بل يتعامل في المقام الاول مع افتراضات نفسية . بتعبير آخر : انه وجد نفسه مضطراً لتحديد مواقفه على صعيد علم النفس ، هذه المواقف والتساؤلات التي فجّرت أطر علم النفس التجريبي السابق بتحديداته الاولى ، وبسبب متطلبات المعالجة النفسانية ظهرت حالات في غاية التعقيد في ميدان هذا العلم الذي لم يزل فتياً . في حين افتقر القائمون عليه ، في أغلب الأحيان ، إلى التسلح بالمواد الضرورية التي تعاضدهم على كسر شوكة المشكلات البارزة . على هذا لاعجب ان تراءى لنا ، أن ضروباً من الآراء والنظريات والمواقف الملتبسة لمُست في النقاشات التي دارت رحاها في رحاب علم النفس المرغم على اجراء تجارب علاجية نفسية . ولم يحُقد في هذه الحلبة على أي مشاهد ، ان نال انطباعاً مجبولاً بتيه لغوي بابلوني . إلا أن مثل هذا الالتباس

لايمكن تجنبه ، لانه كان لابد حقاً من استجلاء الأمو والوصول إلى أنه ليس من الممكن معالجة النفس بدون ملامسة ماهو كلي ، وعلى هذا الأساس الدنو من آخر الاشياء واعمقها ، إذ ليس من الممكن معالجة جسم مريض بدون الاهتمام بوظائف هذا الجسم إن لم نقل بالانسان المريض ككل ، كما يؤكد هذا الطب الحديث أحياناً على لسان بعض الأطباء .

كلما كانت الحالة أشد من الوجهة النفسية ، كلما صعب أمر معالجتها وكلما انتسبت الحالة إلى ماهو كلي عند الإنسان. ومن المؤكد أن ثمة بنيات نفسية أولية تتلازم بشكل وثيق مع حوادث فيزيولوجية تنال من جسم الانسان . وليس هنالك من شك مطلقاً ، بأن العامل الفيزيولوجي (الوظائفي) بشكل أقل مايشكل قطباً من العالم النفسي . وعندما نجد أن الحوادث الغريزية والعاطفية تنهض بشكل واضح على أساس فيزيولوجي ، كما نجد أن مبحث الاعراض العصابية ينهض أيضاً على هذا الاساس ، نستدل من جهة ثانية أن عامل الاضطراب يملك القدرة على قلب الاتزان الفيزيولوجي إلى خلل وفوضى . فان مثل الاضطراب خلال عملية الكبت، نعيد عامل الاضطراب والازعاج هذا إلى صعيد نفسي « اعلى » . ولا يعود الأمر عندها إلي سبب أولي فيزيولوجي ، انما ، وكما توضح التجربة، إلى سبب معقد تعقيداً كبيراً عادة ، وقد يعود على سبيل المثال إلى تصورات عقلية خلقية جمالية دينية أو إلى تصورات مرتبطة بالتقاليد والعادات وماشابه ذلك. ولا يمكن على هذا الصعيد الادلاء ببرهان علمي ناهض على اساس فيزيولوجي .

ان هذا المجال المتسم بعامل سائد معقد يؤلف القطب الآخر في النفس .

ان هذا المجال، كما تبين التجربة مزود عند اللزوم بطاقة تفوق الطاقة المسبوعة على القطب الآخر المرتبط فيزيولوجياً بعدة مرات .

ان القفزات الأولى التي حققها فن المعالجة النفسية في مضمار علم النفس الحق

كانت قد أدت إلى اصطدام باغوار معضلة الأضداد السحيقة الماثلة في النفس . ان بنية النفس هي في الواقع متناقضة أو متقابلة ، بهذه الشدة ، بحيث أنه لا يوجد تحديد نفساني ، أو ليس من جملة شاملة عامة ، لا تحمل المرء على الزعم حالاً بنقيضها .

أن اشكالية الاضداد الكامنة في النفس توضح أنها أفضل حلبة نموذجية لنظريات متشعبة متضاربة كل التضارب وأدت لا سيا إلى آراء مسبقة في النظرة الى الكون ، غير واقعية تماماً أو نصف واقعية . وفي مضمار هذا التطور أثار فن المعالجة النفسية ضجة صاخبة حوله لابأس بها .

لنأخذ على سبيل المثال حالة بسيطة من حالات كبت دافع من الدوافع . ويدور في خلدنا عندما نتأمله : ان الدافع لا ريب سينعتق ويتحرر ، اذا رفع الحصار عن الكبت . لكن ان غدا الدافع منعتقاً ، ففي وده عندها المشاركة في الحياة والعمل كما يحلو له ويشاء . الا أن الحالة بهذا ستسوء ، وغالباً ما تكون في غاية السوء . على هذا يجب تعديل الدافع ـ هذا يعني ـ تصعيد الدافع ، كما اعتاد بعضهم القول . لكن لا أحد يعلم حقاً كيف سيتم الامر بدون كبت مجدد . ان المناداة بالعقلانية في آخر المطاف لشيء رائع ان اتسم الانسان الطبيعي بسمة انسان عقلاني . الا أنه ليس كذلك. وخلاف هذا فهو على الاقل وبنفس المستوى لاعقلاني . على هذا لا يكتفي بقوى العقل كي يعدل الدافع تعديلاً يتناسب مع التناسق المعقول . ولا يخفى في هذا الجانب من المشكلة ما يطفو من أزمات أدبية وخلقية وفلسفية ودينية ؛ ان الممارسة تغني المخيلة .

ان أي خبير نفساني يتحلى بضمير قويم وعشق للحقيقة يدرك هذه الامور جيداً ولا يبوح بها . ان الاشكالية الراهنة برمتها واشارات الاستفهام التي تدفع أيامنا الحالية فيا يتعلق بالمسائل الدينية والفلسفية كلها يحتدم أوارها في أثناء ذلك.

وان لم يسدد الطبيب المعالج أو المعالج الضربة الى الهدف في الاوان الصحيح ، سيذهب هذا أو ذاك ضحية ذلك .

وسيدور ، بلاريب ، في خلد بعضهم ، مشادات مذهبية حول النظرة الشاملة الى الكون ؛ نزاعات مع ذاته أو مع أصدقائه ؛ وثمة اجابات وحلول عنيفة لا يوصى بها مبدئياً لانها لا تشفي غليل المتسائل على التمادي . وليس من عقدة غوردية صعبة ذللت مع مر الزمن ، لان من صفاتها انها تعاود تعقيد ذاتها من جديد بُعيد انحلالها .

ان المشادات المتعلقة بالنظرة الشاملة الى الكون لمهمة تفرض نفسها بلا تردد على الطب النفساني ، حتى وان لم نجتاح نفسية المعالج أغوار ماهو أسامي. ولابدّ من الاجابة بشكل من الاشكال عن التساؤل حول المقاييس ، التي يجب بموجبها أن تقاس الامور ، وعن المحك الخلقي ، الذي يجب ان يحدد تصرفنا واعمالنا . ذلك أن الانسان المعالَج ينتظر عند اللزوم تفسيراً عن احكامنا وقراراتنـــا .

ان كل المعالجين لن يتقبلوا الحكم عليهم بعقدة النقص الطفلية حينما نرفض تأدية تفسيرات لهم عما يعانوه . وبغض النظر عن أننا من خلال هذه الهفوة في فن المعالجة نجدنا و كأننا نعمد الى قطع الغصن الذي نجلس عليه . بتعبير آخر : ان فن الطب العلاجي النفسي يتطلب من الخبير النفساني الحيازة على قناعة نهائية تتسم بالمعقولية ويجدر الدفاع عنها والافصاح بها. وتبرهن هذه القناعة عن مقدار فعاليتها، بأنها اما قد ازاحت عن دائرة الخبير نفسه الانفصامات العصابية كلها أو أنهـــا ساعدته في الحيلولة دون ظهورها . ان الخبير النفساني ينكر وجود مرض عصابي . خلاف ذلك ان العقد النفسية هي عادة عبارة عن محاور اساسية في الحادثة النفسية، والالم الناجم عنها لا يعني ابداً وجود اضطراب مرضي . ان الالم لا يعني المرض

انما الالم يعد القطب العادي المقابل للسعادة. وتتخذالعقدة النفسية صورةمرضية، عندما يذهب الانسان الى انه غير مصاب بهذه العقدة اوتيك .

ان النظرة الكلية إلى الكون ، اذا اعتبرناها بنية معقدة ، تمثل القطب المقابل للنفس المرتبطة ارتباطاً فيزيولوجياً . وبما انها عامل مسيطر سام في النفس تحدد هي في نهاية المطاف مصير هذا الجزء من النفس . انها تشرف على حياة الخبير النفساني ذاته وتكون عقلية معالجته النفسانية . وبما أنها تتسم بكونها بنية ذاتية، فمن الممكن ، حتى على الرغم من موضوعيتها الحازمة أن تتحطم ، وربما ستتحطم، على صخرة الحقيقة الكامنة عند الانسان المعالج ، لتنتصب مجدداً فتية في أعماق نفسه . لا غرو أن القناعة تستحيل الى ثقة بالذات بسهولة، وعلى هذا ستقود الخبير النفساني الى التحجر والتصلب في الرأي وهذا يتعارض مع مضمون الحياة . ان القناعة تبرهن عـــن متانتها في لينها ومرونتها عند الضرورة و كأي حقيقة سامية ستحوز على أفضل ازدهار بالاعتراف بهفواتها .

لا يخفى أن من المفضل للخبيرين في مجال المعالجة النفسية ان يكونوا فلاسفة أو اطباء فلاسفة ، أو انهم بالأحرى يمتلكون هذه الميزة دون أن يدركوا ذلك أن ليس ثمة من فرق شاسع بين ما يقومون به من ممارسة مهنية وما يدرس في المعاهد العليا الفلسفية. ويمكن أن نطلق على ذلك أيضاً اسم دين في حالة متنامية[١] ذلك أن في أثناء المرحلة التي تلي مرحلة الالتباس العجيب في رأس الكائن القديم لا نلمس عنده أي تفريق بعد بين فلسفة ودين. وإن هذا الضيق الدائم الذي يحيط ظروف المعالجة النفسانية ، بانطباعاتها التي تنوء بازعاج عالم العواطف لا يدع لنا مجالاً ولا راحة لفرز الحوادث بصورة منتظمة وتجريدها يتناسق. على هذا لايسعنا

---

(١) ان كلمة « دين » مأخوذة في هذه النصوص بمعناها الثقافي لا بمعناها الروحي الآلهي ، اذ ان موضوع الدراسات هذه كلها هو الظواهر الاجتماعية وحسب .

تقديم عرض ناصع إلى كلية الفلسفة أو الشريعة عن ارشادات ومبادىء قومية لا نلقاها في الحياة .

يعاني ، الذين يعالجون ، من الوقوع في ربقة العصاب . فهم يشعرون أنهم مكبلين بسلاسل اللاشعور ، وعندما نبذل الجهد ونلج عن وعي وفهم مجالات تلك القوى اللاشعورية ، يقع علينا أمر الحؤول دون التأثر بتلك الأعراض التي يعاني منها من نعالجهم من المرضى . وكما يعالج الأطباء الأوبئة الاجتماعية، نعرض ذواتنا لتلك القوى التي تهدد الوعي ، ولا بد من ان ندرك تماماً انه علينا الا نطرح طرق النجاة لشخصنا للتخلص من قبضة اللاشعور فحسب ،بل خلاص نفسية المريض أيضاً. إن الوقوف وقفة الجاد الحكيمة لا تتخذ سمة كتاب تعليمي فلسفي بعد، ودفقة ابتهال وصلاة لا تعني بحثاً في الشريعة الدينية بعد . إلا أن كلا الأمرين ينبثان عن فيض متأت من موقف ديني - فلسفي ، يتناغم مع دينامية الحياة بصورتها الاكثر مباشرة .

ان العامل السائد الاسمى يتخذ دوماً سمة طبيعة فلسفية - دينية . انه في حد ذاته ينبىء عن واقعة أولية اصيلة لذلك تستطيع أن نراقبها في تفتحها الأشد ثراء في صدور أناس اصيلين . إن أي صعوبة أو خطر مداهم في مرحلة حرجة من مراحل الحياة تدعنا نزيح الستار بلا مواربة عن ظهور مثل هذا العامل المسيطر . إنه يعد رد الفعل الاشد طبيعية ازاء جميع الظروف المصطبغة بصبغة عاطفية . وغالباً يظل هذا العامل مبهماً كالشعور شعوراً غامضاً بالحالة العاطفية التي أثارت العامل . لهذا فمن البدهي ، ان الاضطرابات العاطفية ، التي تساور المريض توقظ العوامل الدينية والفكرية التي تقابلها في نفسية الطبيب الخبير المعالج . ان ادراك مثل هذه المضامين الاولية يكون غالباً شاقاً وغير مستحب ، لذلك من المفضل ان يبحث الطبيب في ذاته عن المعارف الفلسفية او الدينية التي استقاها سابقاً ليستند

إليها وتكون عماداً له في حالته هذه. ويبدو ان هذا الملاذ ليس بشرعي ، بقدر ما يقدم فرصة لانتساب المريض المعالج إلى رابطة لهـا بنيتها تكرس حمايته ، إلى منظمة ماثلة في الوجود . إن هذا الحل هو حل طبيعي ، وطالما وجد في كل مكان ومنذ القدم اديان وطوائف وعشائر طوطمية مرتبطة دوماً بغاية اغداق شكل منظم على عالم الدوافع الفوضوي .

إلا أن الحالة ستزداد صعوبة ان كانت نفسية المريض ترفض الحل الاجتماعي هذا . في هذا المقام يطالعنا السؤال التالي : هل في ود الطبيب المختص ترك قناعته تتحطم على صخرة الحقيقة الماثلة عند الشخص المعالج ؟ فان اراد متابعة علاجه عليه بدون شروط مسبقة ، ومهما يكن ، البحث معه لرفع الستار عن الافكار الفلسفية الدينية المتلائمة مع حالته الانفعالية النفسية . هـذه الافكار تتمثل في هيئة صور ونماذج أولى نابعة غضة من التربة الأم الاصيلة ، التي أنبتت اصلاً الانظمة الفلسفية الدينية برمتها . وان رفض الطبيب المختص سلوك هذا السبيل وفضل قناعته الذاتيه وفرضها على المريض المعالج ، تساورنا الشكوك المحقة حول ثبات موقفه هـذا وصحته . وقد لايرضخ الواقـع لاسباب تعود إلى التأكد الذاتي ، الذي يهدده بالجمود والتحجر في الرأي . على أي حال ، إن حدوداً متنوعة على الصعيد الفردي والجماعي تنسحب على الانجاز النفسي المعتمد على المرونة واللين ، حدوداً قد تضيق جداً (بحيث أن تحجراً ما يعني في الواقع نهاية المقدرة على الانجاز . وكل كأس حسب سعتها .[1]

ليس الدافع أمراً منعزلاً ، ولايمكن أن يكون منعزلاً عملياً . انه يحمل دوماً بين طياته مضامين تتسم بنماذج أولى من وجهات نظر فكرية . من جهة يرمي الدافع اسـه من خلال وجهة النظر هذه ، ومن جهة ثانية يجد من اتساعها . بعبارة

«1» Ultra Posse Nemo Obligatur

أخرى : إن الدافع يحاصر دوماً وابداً نوعاً من النظرة الشاملة إلى الكون ، مهما تكن هذه النظرة قديمة غامضة ومظلمة . ان الدافع يفسح المجال للتفكير . وان لم يفكر المرء اختيارياً فانه بلا ريب سيفكر تفكيراً ارغامياً بذلك . ذلك أن كلا قطبي النفس : الفيزيولوجي والفكري الروحي مرتبطين ببعضها ارتباطاً وثيقاً .

لذلك ليس هنالك من تحرير للدوافع تحريراً جزئياً والأمر يصح أيضاً على الروح المتعتقة من دائرة مجال الدوافع ، اذ يقضي عليها بالعيش في سراب الفراغ. بيد أنه على المرء أن يتصور أن ارتباط الروح بدائرة مجال الدوافع منسجماً بالضرورة. ان هذا الارتباط ، خلاف ذلك ، معقد وينضح بالعذاب .

لذا فالهدف الاسمى لفن المعالجة النفسانية ، لايقوم باغداق حالة مستعصية من السعادة والهناء على الانسان المعالج ، انما الاخذ بيده ليحتمل عذابه بيأس وصلابة وصبر حكيم . إن امتلاء الحياة وصفاءها يقتضي ايجاد اتزان بين كفتي الترح والفرح . وبما أن الاتراح غير مرغوب بها في الواقع ، لذا طبعاً لا يفضل المرء أبداً التفكير بمخاوف وألوان القلق التي تجتاحه ، لذا يتحدث دوماً وبقلب طيب عن سلامته وتحسن صحته وحيازته على أكبر قسط ممكن من السعادة ، غير مبال بأن السعادة أيضاً لها جانبها الضار إن لم يمتلىء كأس الالم ويشبع العذاب . وفي معظم الاحيان تخفي ظاهرة العصاب كل هذه الالوان من العذابات الطبيعية الضرورية ، التي يرفض المرء احتمالها ، ونرى آثار هذا بشكل أوضح في الآلام الناجمة عن الهستيريا ، هذه الآلام التي تزول في عملية الشفاء بألم نفسي مماثل لتلك الآلام ، التي يود المرء أن يتجنبها .

إن العقيدة الدينية حول الخطيئة الاصلية من جهة ، وقيمة الالم ومعناه من جهة ثانية يتسمان لذلك بمغزى علاجي نفسي فائق . وهذه تتناسب وإنسان الغرب

أكثر من غيرها . كذلك يغدق الايمان بخلود الروح على الحيـاة تلك النفحة الصافية من الانطلاق نحو المستقبل ، الانسان في حاجة اليـه لتجنب ضروب المعوقات وألوان النكوص . على الرغم من أننا نستخدم التعبير « عقيدة » لمثل هذه التصورات الهامة جداً على الصعيد النفساني ، فانه لخطأ جسيم الذهاب إلى أن الامر يدور حول نظريات فكرية اصطلاحيـة . اننا إذا نظرنا إليها من وجهة نفسانية ، فانها عبارة عن معاناة شعورية لاجدال فيها . ليسمح لي بأدلاء مقارنة ساذجة : ان شعرت بتحسن وغمرني السرور ، ليس بوسع أحد أن يبرهن عكس ذلك . إن البراهين المنطقية تكفهر ، بلاريب ، ازاء الواقع الشعوري المعاش . وثمة واقع شعوري بالخطيئة الاصلية ومعنى الالم في الحياة وخلود الروح ... بيد أن معاناة هذه الامور يعد نعمة لدنيـة لا يمكن التوصل إليها بقوة الفن البشري وليس من الممكن معانقة هذه الغاية إلا بروح متفانية لا حدود لتفانيها .

لكن ليس كل انسان قادراً على مثل هذا التفاني وتكريس الذات . هنا لا مجال لقولنا « كان لا بد » « ومن المفضل » لأن في غمار الصعوبات التي تعرقل الارادة بالذات يطالعنا التأكيد على عبارة « أريد » بلا مواربة ، التي تودي بنا إلى نقيض التفاني والعطاء . مارغبت شعوب البرابرة في تدمير اولمب الآلهة ولا أراد مؤمن سحق السماء . هكذا يتجلى لنا أن الخبرات الضرورية من الوجهـة النفسية ، والتي بها يمثل الشفاء الافضل «درة ثمينة يصعب الوصول إليها» وللحصول عليها يقتضي بذل أمور خارقة من الانسان العادي .

وكما هو معلوم ، ان هذه الامور الخارقة ، باعتبارها انبثاق مضامين النماذج الاولى ، تمثل في خضم معالجة المريض معالجة عملية . ونجد انه لا يكتفي لتمثلها واستيعابها الاعتماد على اتجاهات دينية وفلسفية معاصرة ماثلة بين ايدينا ، ذلك انها قد لا تنسجم مع الرمزية السحيقة في القدم والكامنة في تلك المحتويات . لذا نضطر

الى العودة مقتفين اثر مضامين مذاهب تعود الى ما قبل العهد المسيحي او لا تمت بصلة الى المسيحية، واضعين نصب اعيننا ان كون الانسان انساناً لا يعد امتيازاً من الامتيازات التي تخص الانسان الغربي وان العرق الابيض لا يعد نوعاً مختاراً من الله نوعاً حكيماً حصيناً وحده . على اي حال ليس في وسعنا ايضاً تعليل بعض ظاهرات جماعية معاصرة ما لم ننظر الى الشروط الملائمة الكامنة في عهد ما قبل المسيحية .

ويبدو ان اطباء العصر الوسيط قد ادركوا شيئاً من هذه الامور ووجهوا انتباههم نحو فلسفة ضاربة جذورها في صعيد زمن ما قبل المسيحية ؛ ومن سماتها انها تنجم ايما انسجام مع تلك الخبرات التي نلمسها اليوم عند المعالجين . هؤلاء الاطباء ادركوا ان ثمة بالاضافة الى اشراقات الوحي الالهي ما يسمى بالنور الطبيعي Lumen naturae كمصدر ثانٍ للالهامات مستقل ، وبامكان الطبيب الرجوع اليه في حال عدم تأثره او تأثر المريض المعالج بالحقيقة الدينية المكتسبة لسبب من الاسباب .

انها أسباب عملية حقاً تلك التي حرضتني على الاتيان ببحوث تاريخية وليست نزوة من نزوات هواية ما. وسواء الطب المدرسي الحديث او علم النفس الاكاديمي والفلسفة : انها كلها لا تزودنا بالتأهيل الضروري ولا تضع الوسائل اللازمة بين ايدينا لمجابهة متطلبات ممارسة فن الشفاء النفساني ، التي غالباً ما تكون ماسة جداً، مجابهة فعالة وحكيمة . لهذا يتوقف علينا التتلمذ على ايدي الفلاسفة الاطباء القدامى ، في ذلك الزمن حيث نجد عدم تشتيت وتوزيع معارف الروح والجسد بعد على مختلف الكليات الجامعية ، دون وجل او خجل من نقص ولعنا بالامور التاريخية . وعلى الرغم من اننـا اخصائيون ، ومن امهر الاخصائيين ، يلزمنا تبني نظرة شمولية والتغلب على النزعة التخصصية ،والا فان تكامل الروح والجسد يبقى قولاً اجوف.

ليس في وسعنا ، ان نصبنا الغاية ووطدنا العزم على معالجة الروح التغاضي عن الحقيقة الا وهي ان العصاب ليس امراً منعزلاً في حد ذاته ، وانما هي النفس المجسمة المضطربة الواقعة في حوزة المرضى على الاطلاق ، لقد كان من اكتشاف فرويد الرائع انه بيّن ، ان العصاب لا يمثل مجرد مجموعة من العوارض ، انما يمثل هفوة طارئة وظيفية تجتاح الروح كلها وتجذبها في شبكة من الآلام. لا يعد الامر الهام بعد ذلك العصاب بحد ذاته ، وانما المصاب بالعصاب . علينا ان ننطلق من الانسان ، وان نتمكن من ان نكون منصفين لهذا الانسان .

إن اجتماعنا الحالي يبرهن ان فن المعالجة النفسانية قد ادرك غايته التي تكمن في الاهتمام بالعامل الفيزيولوجي والعامل الروحي بالتساوي . وناشئاً من العلوم الطبيعية سيعمد هذا الفن إلى نقل الطرائق التجريبية الموضوعية لهذه العلوم إلى مجال فينومينولوجية الروح . وسيسبغ على هذه الخطوة قيمة لا تقدر ، حتى وان استدعت الامر ابقاءها في حيز المحاولة .

★ ★ ★



علي
@alisirosch
" أما نحن ، فنمثل الاستثناء والخطر ." #نيتشه
انضمّ في مايو ٢٠١٦
٥١ المتابَعون ٢،٣٦٨ المتابِعون



علي

@alisirosch

" أما نحن ، فنمثل الاستثناء والخطر ." #نيتشه

انضمّ في مايو ٢٠١٦

٥١ المتابَعون ٢،٣٦٨ المتابِعون

علم النفس وفن الشعر

كارل غوستاف يونغ

١ - مقدمة :

من الواضح كل الوضوح ، ان ثمة علاقة قائمة بين علم النفس - كعلم يبحث في الحوادث النفسية - وبين العلوم الادبية . اليست النفس هي حقاً ام كل علم وكل عمل فني على حد سواء ؟ اليست هي الوعاء الذي يضم كل علم وفن ؟ على هذا ينبغي على العلم الذي يبحث في النفس ان يكون في وسعه الكشف عن بنية العمل الفني النفسانية وتفسيرها من جهة ، كما تفسير الظروف النفسانية التي تحيط بالفنان الخلاق من جهة ثانية . وتتسم هاتان المهمتان بطبيعة مختلفة في الجوهر : في الحالة الأولى يدور الأمر حول دراسة النتاج الذي يُشكل « عمداً » بفضل فعاليات نفسية معقدة . اما في الحالة الثانية فمحور الأمر الجهاز النفسي ذاته . في الحالة الأولى يعد العمل الفني المشخص موضوع التفسير والتحليل النفساني ، اما في الحالة الثانية فالانسان الخلاق في الصورة التي تعبر عن شخصيته الفريدة ، وعلى الرغم من ان بين موضوعي البحث ، اي بين العمل الفني ومبدعه ، تكمن اوثق علاقة صميمية ويقوم تأثير متبادل لا تفصم عراه ، إلا ان الواحد لا يمكنه تفسير الآخر .

من الممكن حقاً الوصول الى استنتاجات مستمدة من احد الموضوعين تنطبق على الآخر ، الا ان هذه الاستنتاجات ليست ملزمة قطعاً . انها تعد في

احسن الحالات استنتاجات احتمالية او وجهات نظر صائبة لا اكثر . ان الوقائع المميزة التي نلمسها عند غوته [1] (geethe) تجاه امه تتيح لنا ان نلاحظ شيئاً ما، اذ يطرق مسامعنا النداء الفاوستي : « الامهات الامهات ـ يا لها من نغمة رائعة! » بيد انه يفوتنا ان نستوعب ، لماذا وجبت ولادة الرائعة «فاوست» بالذات من اثر الارتباط بالام ، على الرغم من ان حدساً عميقاً ينبئنا ، ان علاقة غوته بامه قد قامت بدور هام في حياته كانسان وخلفت في «فاوست» بالذات آثاراً تعبر عن تلك الاحاسيس بما فيه الكفاية . بالمقابل نعلن ايضا ، انه من المستحيل ان ندرك ، او ما هو ابعد من هذا ان نستنتج بالضرورة انطلاقاً من « النيبلونغن ربنغ » الواقعة التي تذهب الى ان فاغنر[2] (Wogner) مولع بميل نحو المخنثين من الغلمان ،على الرغم من ان:دروباًخفيةتعبرعن السمات البطولية في «النيبلونغن »تقودنا إلى الكشف عن أنوثة مرضية في حياة فاغنر كانسان . إن البسيكولوجية الشخصية للمبدع تفسر بعض سمات عالقة بأعماله ، إلا أنها لا تفسر العمل الفني ذاته . أما إذا طمحت إلى تفسيره ككل وبنجاح ، عندها نجد أن ما يزعم أنه إبداع ، قد يمسخ إلى مجرد عرض مرضي ، وهذا لا يجدي العمل الفني نفعاً ولا شهرة .

إن الوضع الراهن لعلم النفس ، الذي ـ ولنقل عرضاً ـ بعد أحدث فروع معارفنا ، لا يسمح مطلقاً باقامة علاقات سببية جازمة في ميدان تفسير العمل الفني ، مع أنه كعلم لابد له من أن يضطلع بهذه المهمة . فعلم النفس لا يتلقى

---

(١) يوهان فولفغنغ غوته من عظماء الشعراء الألمان ولد في فرانكفورت (١٧٤٩) وتوفي في فايمر (١٨٣٢) . من مؤلفاته « فاوست » « وآلام فارتر » . (المترجم)

(٢) ـ فيلهلم ريشارد فاغنر موسيقي وشاعر ألماني ولد في لايبزيغ (١٨١٣) وتوفي في البندقية (١٨٨٣) ، لقد كان عبقري عصره في ترجمة الأساطير الألمانية شعراً وبوضعه لها لحناً .
(المترجم)

علاقات سببية أكيدة إلا في مجالات الغرائز والانعكاسات شبه البيكولوجية ؛ لكن حيث تبدأ حياة النفس الحق، أي حيث تبرز العقد النفسية ، فمن واجبه أن يكتفي بعرض وصف مفصل للحوادث ، مقتصراً على رسم لوحات حية زاهية عن المشاهد الغريبة التي تكاد تفوق البشر فنياً ، ملتزماً في غمار عمله هذا بالابتعاد عن صبغ أية حادثة كانت بصبغة « الضرورة » . فان سار الأمر خلاف ذلك ، وتمكن علم النفس من الكشف عن علاقات سببية اكيدة في العمل الفني وفي الخلق الفني ، ويعني هذا استلاب الأرضية الخاصة بعلم الفنون ، الذي يغدو بهذا فرعاً من فروع علم النفس ؛ على الرغم من أنه لا يجوز التنازل أبداً ، عن مطلب علم النفس الماثل في بحث واثبات السببية الماثلة في الحوادث المعقـــدة ، تحت طائلة القضاء على ذاته كعلم . وأرى أن هذا المطلب لن يشبع مطلقاً ؛ ذلك أن العناصر المبدعة اللاعقلانية ، التي تتجلى بشكلها الأوضح في حقل الفن ، سترهق في نهاية المطاف جميع المحاولات العقلانية ، ولنفرض أن جميع الحوادث النفسية الواقعة في اطار الشعور يمكن تفسيرها وفق مبدأ السببية ، غير أن ظاهرة الابداع التي تتأصل في غموض رؤية اللاوعي ، ستدع أبوابها موصدة إلى الأبد أمام اقتحامات المعرفة البشرية . إن هذه الظاهرة ستتيح المجال دوماً لوصفها وتسجيل تخمينات عنها عبر تجلياتها ، بيد أن جوهرها يبقى بعيد المتناول .

علم الفنون وعلم الفن علمان متعاضدان . والمبدأ الذي ينهض عليه أحدهما لا يلغي مبدأ الآخر . مبدأ علم النفس يقوم على كشف المواد النفسية المعطاة في منظور استنتاجها من مقدماتها السببية . ومبدأ علم الفنون يقوم على اعتبار الواقعة النفسية واقعة وجودية على الاطلاق سواء تعلق الأمر بالعمل الفني أو بالفنان . ن هذين المبدأين صالحان على الرغم من نسبتيهما .

٢ ـ العمل الفني :

إن النظرة البسيكولوجية للعمل الفني الادبي تتميز من خلال موقفها الخاص عن الطريقة العلمية التي تنهجها النظرة الأدبية . فالقيم والوقائع التي لها وزنها الهام في منظور علم الادب قد تكون عديمة الجدوى – ان صح القول – في المنظور البسيكولوجي . إلا أن اعمالاً بشك كل الشك في قيمتها الادبية تبدو غالباً في نظر عالم النفس هامة جداً . والرؤية المسماة بالرؤية البسيكولوجية مثلاً لا تعرض عليه بناناً ما يتوقعه المنظور الأدبي منها . ان هذا النوع من الروايات يفسر نفسه بنفسه ، بصفته يكون كلاً واحداً قائماً بحد ذاته . إنه يجسد ، ان صح التعبير ، علم نفس خاص ، علماً يقع على عاتق عالم النفس بعد أن يكمله أو ينقده على أكثر تقدير . وعلى أي حال فالسؤال الهام الذي يبرز في هذه الحالة ، ما الحافز الذي دعا المؤلف يختار هذا الموضوع أو ذاك ، يبقى بحاجة إلى الاجابة . وهذا سنعود اليه في الجزء الثاني من هذه الدراسة .

أما الرؤية غير البسيكولوجية ، فانها على النقيض من هذا، تضمن للايضاح البسيكولوجي امكانات أفضل بصورة عامة ، لأن قصد المؤلف البعيد عن الصبغة النفسانية لايجد مقدماً أي بسيكولوجية ما لشخوصه . وهذا لا يفسح مجالاً أمام التفسير والتحليل وحسب ، بل انه يقترب منها من خلال وصف الشخوص وصفاً نزيهاً . وكامثلة مناسبة في هذا المقام نذكر روايات بيير بنوا [1] (Benoit) والروايات الخيالية الانكليزية التي كتبها ريدر هاجارد (Haggard)

---

١ – بيير بنوا روائي فرنسي ولد في البي ١٨٨٦ . من رواياته «اطلنطيق» و«بئر يعقوب» و«الملك مارك» ، وتتضمن عقداً مثيرة إلى جانب تلفعها بالسر والغموض .

المترجم

٢ – ريدر هنري هاجارد روائي انكليزي توفي في لندن (١٨٥٦ – ١٩٢٥). قصصه متنوعة الألوان منها «الملك سليمان» و«هي» .

المترجم

وهي تقودنا إلى أحب لون من الوان الكتابة الادبية الجماهيرية ، أي إلى الرواية البوليسية ، عبر الكاتب كونان دويل[1] (Doyle) ، وينتسب إلى هـذه الأمثـلة أيضاً الرواية الاميركية الضخمة « موبي ديك » للكاتبة ملفيل[2] (Melville) .

ان وصف الحوادث المثير ، الذي يبدو أنه يتخلى كل التخلي عن المقاصد البسيكولوجية ، يلقى أهمية كبرى في نظر عالم النفس ؛ ذلك أن القصة بكاملها قائمة أمام خلفية نفسية غامضة ، تتجلى للعين الناقدة أصفى وأوضح ، كلما كان المؤلف غير واع بافتراضاته . بالمقابل نجد في الرواية البسيكولوجية أن المؤلف ذاته يحاول رفع المادة النفسية الأولية لعمله الفني من أرضية الحوادث المجردة إلى مجـال النقاش والايضاح البسيكولوجي ، بحيث أن الخلفيـة النفسية في روايته تسربل بالكلمة في أغلب الأحيان حتى الابهام وانعدام الرؤية . ويستقي العلماني من مثل هذا النوع من الروايات معلومات عن « علم النفس » ، بينما في الروايات حيث ينعدم القصد البسيكولوجي ، فعلم النفس وحده هو الذي يسبغ على مثل هذه الروايات معناه العميق .

ما أنا في صدده فيما يتعلق بالرواية ، انما هو مبدأ بسيكولوجي يتخطى بشكل ملحوظ حدود هذا الشكل الخاص للعمل الفني في الادب . كذلك نلمسه في فن الشعر ، ونراه يفصل الجزء الأول عن الجزء الثاني في مسرحية « فاوست » لغوته . فمأساة الحب في الجزء الأول تفسر نفسها بنفسها ، بينما يتطلب الجزء

---

١ ـ ارثور كونان دويل : روائي انكليزي (١٨٥٩ـ١٩٣٠) اشتهر برواياته البوليسية التي بطلها شارلوك هولمز . (المترجم)

٢ ـ هرمان ملفيل ، روائي اميركي ولد وتوفي في نيويورك (١٨١٩ـ١٨٩١) خدم في البحرية وكتب روايات رائعة مليئة بالمغامرات منهـا « اومو » و « توبي » و « موبي ديك » . (المترجم)

الثاني جهداً تفسيرياً . وليس ما يضيفه عالم النفس الى الجزء الأول ، لم يعبر عن الشاعر أفضل تعبير ؛ أما القسم الثاني، المسربل بفينو مينولوجية هائلة، عملت على استهلاك القوة المبدعة أو حتى تخطتها ، بحيث أنه لم يعد من شيء يكشف عن لغزه بذاته ، انما يتطلب التفسير والشرح كلما غـاص القارىء منتقلاً من بيت إلى بيت . إن مسرحية « فاوست » تمثـل أفضل تمثيل قطبي العمل الفني الأدبي من الوجهة البسيكولوجية .

سعياً الى الايضاح أود أن أطلق على النمط الأول من الخلق الفني الطريقة البسيكولوجية وعلى النمط الثاني الطريقة الرؤوية . ان مادة النمط البسيكولوجية تستقي مضمونها مما يدور في مجالات الشعور الانساني من تجارب حياتية أو صدمة من الصدمات أو معاناة آلام ، أي من مصير البشر بعامـة ، مما يدركه الشعور العادي أو يمكن يتحسه على الأقل . هـذه المادة تكون قد انطبعت في نفس الشاعر ورُفعت من مستوى الحياة اليومية إلى صعيد المعـاناة لتكسب في قالب تعبيري يزخر بقوة الاقناع ، دافعة إلى ذهن القارىء الواعي بما هو مألوف بجدذانه ، وبما لا يشعر به إلا بشق النفس أو بشكل غامض ولذا نخشى منه أو نتغاضى عنه؛ وبهذا يغدق الشاعر على مادته هالة أوسع من الوضوح ودرجة أسمى من الانسانية.

ان مادة الخلق الفـني الاولى تنبع من أعمـاق البشر ، من دائرة أتراحهم وأفراحهم ، الـتي لا تنفك عن الدوران، إنها تؤلف مضمون الشعور الانساني ، غامضاً أو واضحاً في قوالب صياغة فنية شعرية . ونجد الشاعر لا يبقي لعالم النفس أي عمل ، أينبغي على هـذا الأخير سبرغور « فاوست » لمعرفة سبب غرامه « بغريتشن » ؟ أو لماذا أودت « غريتشن » بحياة وليدها ؟ ليس في مثل هـذه الأعمال إلا القدر الانساني الذي يتكرر ملايين المرات حتى يبلـغ رتابته المملة

في قاعات المحكمة وفي كتب القوانين الجنائية . لاشيء يلبث طي الكتمان في الظلمة ، ذلك أن كل شيء هنا يفسر نفسه بنفسه بشكل مقنع .

يندرج في هذا الخط عدد لا يحصى من النتاج الأدبي ، من روايات تتناول موضوع الحب والبيئة والعائلة وروايات بوليسية واجتماعية إلى الشعر التعليمي ومعظم الاشعار الغنائية والمأساة والملهاة . ومهما يكن شكلها الفني ، فمضامين الخلق الفني البسيكولوجي تنبع دوماً من مجالات التجربة الانسانية ، من الجانب النفسي الذي يعاني أقصى الحالات . ولئن أطلقت على هذا النمط من الخلق الفني « النمط البسيكولوجي » فلأنــــه يتحرك دومــاً ضمن حدود ما يمكن استيعابه وسبرغوره على الصعيد النفساني ، فبدءاًمن المعاناة حتى الصياغة والتعبير، كلهاتجري في إطار بسيكولوجية قابلة للفهم . حتى المادة الاولى النفسية للمعاناة لا يعلق بها أمور غريبة بحد ذاتها ، على النقيض من ذلك فهي معروفة منذ القدم . وتمثل الاهواء وتقلباتها والاقدار ومقاساتها الطبيعة الخالدة : جمالها وأهوالها .

إن الهوة التي تفصل بين القسم الاول والقسم الثاني من مسرحية «فاوست» تفصل أيضاً النمط البسيكولوجي للخلق الفني عن النمط الرؤوي . في هـذا المقام يقلب كل شيء رأساً على عقب : فالمادة أو المعاناة التي تعيد إلى مضمون الصياغة الفنية تعد أمراً مجهولاً وأما جوهرها فغريب من نوعـــه ويتسم بطبيعة غامضة أسرارها ، متحدر من أعماق مراحل زمنية سحيقة في القدم أو هابط من عوالم النور والظلمة من طبيعة علوية ؛ وقد تؤلف مادة الموضوع هذا معاناة أولى أصيلة تقف الطبيعة البشرية أمامها عاجزة جاهلة . إن قيمة العمل الفني وقوته تكمنانفي هول المعاناة ، التي تنبثق غريبـــة تقشعر لها الابدان أو قيّمة رائعة من مجاهل أعماق غير مرتبطة بالزمن . فمن جهة تتجلى مادة المعاناة ، كأسطورة معقدة تثير الرعب عن السديم الخالد ، ويعبر عنها بشكل وصفي غريب شيطاني ، يفجر أطر

القيم الانسانية والاشكال الجمالية . أو تمثل ولنقل مع نيتشه[1] في « جرائم سفاح الجنس البشري » ومن جهة ثانية تغدو مادة المعاناة كشفاً يعجز الحدس البشري عن سبر أغواره وتفسير ذؤاباته أو الروعة الجمالية الكامنة فيه ، وعبثاً تحاول الكلمات التعبير عنه . إن الرؤية الحائرة التي تغوص في حادثة جبارة هائلة تفوق أبعاد الاحساس والفهم البشري على جميع المستويات ، تقتضي من الخلق الفني شيئاً آخر غير المعاناة السطحية المألوفة. إن المعاناة السطحية المألوفة لا تمزق حجب الكون أبداً ولا تفجر أطر الامكان الانساني ، لهذا وعلى الرغم من أنها تهز الفرد البشري هزاً عميقاً ، فهي تدخل صاغرة حرم أشكال الخلق ، التي يتعرض لهـا الفن الانساني . اما تلك المعاناة التي تفرق أبعاد الاحساس والفهم البشري . فهي تمزق الحجب التي رسم عليها صور الكون بأبعادها ، وتفتح أمام البصيرة أغواراً مغلقة على الفهم لما لم يحدث بعد ؛ فهل هي أغوار عوالم ثانية ؟ أو أغوار مائلة في أظلام الفكر ؟ أو ينابيع للنفس الانسانية تعود الى ما قبل الوجود ؟ أو أغوار تكمن في مستقبل أجناس لم تولد بعـــد ؟ لا يمكننا الاجابة عن هذه التساؤلات بالنفي أو بالايجاب .

الخلق ، واعادة الخلق

يا لها من مسرة دائمة للمعنى الخالد

رؤى أصيلة تطالعنا عند بواماندر (Poimandre) وفي « الراعي »

---

(١) فريدريك نيتشه : مفكر ألماني (١٨٤٤ – ١٩٠٠) صاحب نظرية الانسان المتفوق وارادة القوة . من كتبه « هكذا تكلم زرادشت » و « ماوراء الخير والشر » و « انساني مفرط فيما هو انساني » .

(المترجم)

هرماس [1] (Hermas) وعند دانته [2] وفي الجزء الثاني من « فاوست » ، وعند نيتشه (Nietzsche) في المعاناة الديونيسية [3] وفي أعمال فاغنر (النيبلونغن رنغ – تريستان – بارسيفال (وعند شبيتلر [4] (Spitteler) في « الربيع الأولمبي » وفي لوحات وليم بليك [5] (Blake) وأشعاره وفي رواية « ابنراتوماخيا » (Hypnerotomachia) للراهب فرنسيسكو كولونا [6] وفي التمتمات الشعرية الفلسفية عند يعقوب بوهمه [7] (Boehme) وفي « القدر الذهبية » لهوفمان [8] (Hoffmaun) بصورها الفظة تارة والرائعة طوراً . وبصورة أشد تحديداً

---

(١) هرماس ، من أوائل الآباء المرسل من القرن الاول الميلادي ، حواره شهير في كتابه « الراعي » ويعد من الاعمال الملهمة . (المترجم)

(٢) دانته : شاعر ايطالي شهير ولد في فلورنسا (١٢٦٥ – ١٣٢١) انه مؤلف الثلاثية ذائعة الصيت « الكوميديا الالهية » حيث يتحدث عن الجحيم والمطهر والفردوس وعمل في الميدان السياسي ثم نفي وكتب « الملكانية » . (المترجم)

(٣) نسبة إلى ديونيسوس أو باخوس وهو ابن جوبتر إله الخمرة .

(٤) كارل شبيتلر : كاتب سويسري (١٨٤٥ – ١٩٢٤) وشاعر رمزي قدير من مؤلفاته « بروميثوس » و « الربيع الاولمبي » و « غوستاف » .

(٥) وليم بليك : رسام انكليزي ولد وتوفي في لندن (١٧٥٧ – ١٨٢٧) في رسوماته رؤى وغرابة مستحبة .

(٦) فرنسيسكو كولونا ، أديب وراهب دومينيكي ولد في البندقية (١٤٣٣ – ١٥٢٧) وروايته عبارة عن صراع حب خيالي تمثل رؤيا رمزية كتبت باللاتينية .

(٧) يعقوب بوهمه : ألماني من المتصوفة (١٥٧٥ – ١٦٢٤) من مؤلفاته المتسمة بنظرات عميقة « الفجر » و « الحياة المثلثة » .

(٨) ارنست تيودور اماديوس هوفمان : رأى النور في كونيكسبرغ وتوفي في برلين (١٧٧٦ – ١٨٢٢) روائي عظيم يتسم بخيال جموح وملكة المراقبة . وهو إلى جانب ذلك موسيقي ورسام . لمع نجمه في أواخر العهد الرومانسي . من مؤلفاته : « اكسير الشيطان » « آراء القط مور » . (المترجم)

واحكم إيجازاً نجد هذا النوع من المعاناة يؤلف المضمون الأساسي عند رايدر هاجارد ، لاسيا في قصته « هي » ، وكذلك عند بيير بنوا ، وبصورة رئيسية في روايته « الاطلنطيد » . وعند كوبان (Kubin) في « الجانب الآخر » وعند مايرنيك[1] (Meyrink) وخاصة في « الوجه الاخضر » التي لا يجب الحط من قيمتها . وعند غوتس (Goetz) في « مملكة بلا مكان » وعند بارلاخ[2] (Barlach) في « النهار المائت » وغيرهم ...

على صعيد العمل الفني البسيكولوجي لسنا بحاجة الى التساؤل عن محتوى هذا العمل ولا عن دلالته ، بيد أننا هنا على صعيد المعاناة الاستبصارية ، نجد أن هذا التساؤل يطرح ذاته مباشرة . فلا بد من تعليقات وتفسيرات . اننا نغرق في الدهشة والعجب ، وقد تلبث حيارى تداخلنا الريبة أو ما هو أسوأ من ذلك ،قد ينتابنا شعور بالقرف والاشمئزاز[3] . في غمار هذه التجربة لا نلامس أي أثر من مجال الحياة اليومية للبشر ، انما تغدو الاحلام والمخاوف الليلية والمشاعر المريعة الثاوية في زوايا الظلمات النفسية نابضة بالحياة . إن الجمهور بسواده الاعظم يرفض

---

(١) غوستاف مايرينك : روائي نمساوي ولد في فينا (١٨٦٨ – ١٩٣٢) يتميز باختياره مادة رومانسية غيبية في أعماله إلى جانب خيال مروع وغريب يتحرك بين الرزانة الكئيبة والمزاح التهكمي . من مؤلفاته « الغولم » و « الوجه الاخضر » و « الجندي الحامي » و « الملاك القادم من النافذة الغربية » و « على عتبة العالم الآخر » .

(المترجم)

(٢) ارنست بارلاخ : روائي ماساوي ألماني (١٨٧٠ – ١٩٣٨) درس فن الرسم وتأثر بالمدرسة التعبيرية ، إلا أنه اتخذ أسلوباً خاصاً به رفضت مؤلفاته ابان الحكم الاشتراكي القومي النازي ، من الحـالة « النهار المائت » . و « ابن العم المسكين » و « الطوفان » و « الزمان الطيب » و « القمر المخطوف » .

(المترجم)

(٣) لنفكر في هذا المقام بنتاج جيمس جويس « اوليس » . هذا الكتاب يحوز على أبعاد قيمة على الرغم أو خاصة بسبب تفككه العدمي .

مثل هذه المادة إن لم تتضمن أشد المشاهد اثارة وفظاظة ، وحتى المختص في الادب يساوره الارتباك الشديدازاءها . ويبدو أن دانته و فاغنر قد خففامن عبء المهمة الملقاة على عاتقـــه ، فالاول يسربل المعاناة الاصيلة بحادثة تاريخية والثاني يجلبها بوشاح أسطوري ، وعلى هذا قد يساء فهمها « من حيث المضمون » ، ذلك أن الديناميكية . والدلالة العميقة لاتكمنان في المادة التاريخية أو الاسطوريةفحسب نما تتجلى في الرؤيا الاصيلة التي يعبران عنها . حتى عنـد ريدر هاجارد ، والذي يعد بعامة مؤلف « قصص خيالية » ، نجد أن خيط « أريان »[1] في قصصه ليس سوى وسيلة – على الرغم من أنها قـد تتضخم بصورة تبعث على القلق والتأمل – لاقتناص مضمون رائع وجدير بالاهتمام .

ومن الغريب أن نجد ، على النقيض الحاد لمادة الابداع البسيكولوجية ، أن ثمة ضباباً كثيفاً يجر سحائبه المظلمة على منبع المادة الاستبصارية ، ضباباً ، في ودنا أن يذهب الظن بنا غالباً الى أنه ليس غير مقصود . من الطبيعي أننا نميل الى الاعتقاد – خاصة تحت تأثير علم النفس الفرويدي – أنه لابد وراء كل هذا الركام من الظلمات الغريبـــة المتغضنة طوراً والمفعمة بالحدوس تارة من وجود معاناة شخصية،ومن الممكن انطلاقاً منها القاء ضوء على الرؤيا النادرة لعالم السديم . ومن الممكن أيضاً أن نستوعب ، لماذا يبدو لنا أحياناً ، وكأن الشاعر يحاول بعد ، اسدال اللثام على ينابيع معاناته الاصيلة عمداً . ولا يفصل بين هذه النزعةالتفسيرية وبين الظن ، بأن الامر يدور حول نتاج مرضي عصابي ، إلا خطوة واحدة ، ويبدو أننا سنخطوها بحق ، وذلك على قدر ما يلصق بالمادة الاستبصارية خصائص فريدة نلقاها أيضاً في تخيلات المصابين بأمراض عقلية . على النقيض من ذلك ، يكمن غالباً في النتاج الذهاني عمق في الدلالات ، لا نلقاه إلا عند العباقرة . على

(١) هو الخيط الذي يقودنا إلى مبتغانا ويرشدنا إلى غايتنا وسط غمار الصعوبات.
(المترجم)

هذا وبطبيعة الحال نشعر أنه علينا محاولة النظر الى مجموع هذه الظاهرة في زاوية علم الامراض (الباثولوجيا) ، والعمل على تفسير الاشكال النادرة الماثلة في المعاناة الأصيلة كأشكال بديلة ، كمحاولات تنزع الى التمويه والتغطية . ويحدونا الظن، أن ثمة معاناة شخصية باطنية قد سبقت ما أسميه « الرؤيا الأصيلة » ، معاناة تتسم بطابع « اللا انسجام » ، هذا يعني التعارض مع أوامر اخلاقية معينة . ونفترض أن الحادثة التي نحن بصددها عبارة عن مغامرة غرامية لها طبيعة اخلاقية او جمالية، إما انها تتعارض مع الشخصية ككل ،أو انها على الأقل لا تنسجم وأوهام الشعور ، لهذا يحاول أنا الشاعر كبت هذه المغامرة (لاشعورياً) واسدال حجب النسيان عليها ككل أو على الاقل على اجزائها الرئيسية . ولهـــذا الغرض ستجند المخيلة المريضة جميع وسائل الهجوم والدفاع ، وبما أن هذه المحاولة لا تعد عملاً بديلاً مشبعاً ، يقتضي الحـــال تكرارها في سلسلة تكاد لا تنتهي من الصياغات والتشكيلات . على هـذا النحو يطفو هـذا الركام من الاشكال الهائلة الشيطانية الغريبة والمنحرفة جزء منه كتعويض عن المعاناة الغرامية « التي رفضته » ، وجزء آخر في سبيل تغطيتها .

ان هذه الخطوات الاولى التي تبحث في نفسانية الانسان الشاعر أثارت موجة من الاهتمام الشديد ، وتعد حتى الآن المحاولة النظرية الوحيدة التي قدمت تفسيراً « علمياً » عن المواد الاستبصارية وبالتالي عن بسيكولوجية الاعمال الفنية الفريدة في نوعها ، وأضرب صفحاً عن موقفي مفترضاً ، انه غير معروف ومفهوم بعامة ، بمقدار فهمنا الآن لهذا الاتجاه الذي نحن في صدده .

ان ارجاع المعاناة الاستبصارية إلى تجربة شخصية يحولها إلى شيء غير أصيل لتغدو مجرد « تعويض ما » ، وبالتالي يفقد المضمون الاستبصاري « طابعه الاصيل » . فالرؤيا الأصيلة تصير إلى « عرض » من الاعراض، والسديم المنتفض

يهبط إلى مستوى اضطراب نفسي . ان هذا التفسير يعود القهقرى بهدوء إلى رحاب الكون المنتظم ، الذي لم يفترض العقل العملي له كمالاً مطلقاً . إن الوان النقص التي لا محيد عنها تمثل في الشذوذ والأمراض ، التي يفترض أنها جزء من الطبيعة البشرية . إن النظرة البعيدة المؤثرة في انحدار ما وراء الانساني تتجلى كوهم من الاوهام ويبدو الشاعر خادعاً مخدوعاً . إن معاناته الاصلية كانت « انسانية مغرقة في انسانيتها » ، حتى انه لم يتمكن مرة من اتخاذ موقف صريح منها لا بل اضطر إلى ابقائها طي الكتمان .

ويحسن أن نضع نصب اعيننا هذه النتائج التي لامفر منها والتي لزمت من الارجاع الى اعادة التذكر الشخصي ، وإلا لانرى أين يكمن هدف مثل هذا النوع من التفسير : انه يقودنا من دراسة بسيكولوجية العمل الفني إلى دراسة البسيكولوجية الشخصية للشاعر . وهذه الاخيرة لا يمكن انكارها ، بيد أن للأولى وجودها أيضاً ، ولا يمكن القضاء عليها ببساطة « بجولة شعوذة » وذلك بتحويلها إلى تعبير ما عن « عقدة » شخصية . إن التساؤل عن جدوى العمل الفني للشاعر : أهو في نظره تسلية أو تغطية ، ألم أو فعل ، علينا ألا نعيره اهتماماً في هذا الفصل . إن مهمتنا في هذا المقام تنحصر في شرح العمل الفني شرحاً نفسانياً . وهذا يتطلب أخذ اساس العمل الفني اي المعاناة الاستبصارية بعين الاعتبار والنظر إليها جدياً كشأن الخلق الفني البسيكولوجي ، حيث لايدور في خلد أحد وضع واقعية ورصانة مادة هـذا العمل موضع الشك . من المؤكد أن ايجاد اليقين اللازم في هذا المقام هو اكثر صعوبة لأن الأمر يبدو وكأن المعاناة الأصلية الاستبصارية لايمكن مصادفتها مطلقاً في غمار التجارب العامة السائدة . وتبعث في ذاكرتنا الميتافيزيقا الغامضة بصورة حتمية مسؤولة ، بحيث أن العقل الخير يشعر ازاءها ، بأنه مضطر إلى اقتحامها ، ويستنتج بالضرورة ، بأن مثل هـذه الأمور

لايمكن حملها محمل الجد ، لئلا يغرق العالم مجدداً في أغوار خرافات قاتمة . فكل من هو ليس بمفطور على فهم الأمور « الغيبية » ، سيرى في المعاناة الاستبصارية « خيالات خصبة » و « اهواء شاعرية » أو « جوازات شعرية » . بعض الشعراء يعاضدون هذا الموقف في ضمائهم منطقة أمان من مؤلفاتهم ، موضحين على سبيل المثال ، كما يقول شبيتلر عن مؤلفه ، بأنه كان من الجائز أن ينشد « أيار قادم » بدلاً من « الربيع الأولمبي » . إن الشعراء هم أيضاً بشر ، وما يقوله الشاعر عن مؤلفه لا يعد دوماً أفضل ما يمكن أن يقال . ومدار الامر أن المهم هو وجوب الدفاع عن جدية المعاناة الأصيلة حتى وان جابهنا المقاومة الشخصية للشاعر .

إن « راعي » هرماس كما « الملهاة الالهية » و « فاوست » كل هذه الاعمال مغمورة بإشعاعات مغامرات غرامية وما يسبغ عليها التتويج والكمال يشع في المعاناة الاستبصارية . ليس من سبب يدعونا إلى الافتراض ، أن الخبرة الحياتية العادية التي نلمسها في الجزء الأول من « فاوست » قد رفضت أو قنعت في الجزء الثاني منه . ولا الافتراض ، أن غوته كان سوي المزاج إبان تأليف الجزء الأول ، بينما كان عصبي المزاج إبان تأليف الجزء الثاني . في المرحلة الزمنية الطويلة الممتدة ما ينوف عن ألفي عام بين لمعان نجم هرماس ـ دانته ـ غوته نجد روح الانسجام والتوافق ذاته في التجربة الغرامية الشخصية ، فهي ليست مضافة إلى الرؤيا العظمى وحسب ، بل هي ملحقة بصورة جلية . تنم هذه الشهادة بمغزى عميق ، أو تبرهن ـ بغض النظر عن البسيكولوجية الشخصية للشاعر ـ أن الرؤيا تعبر في صميم العمل الفني عن معاناة اعمق من الاهواء البشرية وأقوى منها .

اما فيما يتعلق بالعمل الفني ، ومع عدم الاكتراث بأقوال بعض المفكرين ـ ويجب الا نخلط بين العمل الفني وبين الشاعر كشخص ـ فلا مجال للشك ، بأن

الرؤيا هي معاناة بدائية اصيلة . انها ليست امراً مشتقا ولا ثانوياً ولا عرضاًمرضياً من الاعراض ، انما هي رمز حقيقي ، **أي تعبير عن ماهيات مجهولة** . وكما ان المغامرة الغرامية تمثل معايشة واقعة حقيقية ، كذلك هي حال الرؤيا . وليس لنا الحق ان نعلم أمضمونها من طبيعة مادية او روحية او ميتافيزيائية . انها **لواقعة** نفسية وتلقى جدارة مماثلة على الاقل للواقعة المادية . ان معاناة الاهواء البشرية تجري في اطار الشعور ، اما موضوع الرؤيا فيعانى ما وراء هذا الاطار . في خضم المشاعر ، فتحس اشياء مألوفة ، بينما يقودنا الحدس الى المجاهل والخفايا ، الى اشياء سرية غامضة بحكم طبيعتها . وان صدف مرة وولجت ساحة الوعي . عمد الى كتمانها وتغطيتها ، وعلى هذا فهي منذ العهود الغابرة موسومة بطابع من السرية والخوف والتضليل . انها امور محجوبة عن الانسان وهو يحجب ذاته امامها كما تحتمي « ديدمونا » بترس العلم والعقل . ان الكون المنظم يمثل ايمانه بالنور ، الذي يجب ان يحمي هذا الانسان من مخاوف سديم الليل ، يمثل يقظة وتنويراً ازاء الرعب من الايمان بعالم الليل ! هل ثمة كائنات حية موجودة ما وراء عالم النهار الانساني ؟ هل هنالك حتميات وأمور خطرة لامحيد عنها ؟ هل هنالك دقائق لها مرام أبعد بكثير من الالكترونيات ؟ هل من قبيل الوهم المحض ، أننا نملك زمام الامور ونسيطر على أنفسنا ، في حين ما يدعوه العلم « النفس » كعلامة استفهام مغلقة في الجمجمة ، تغدو في نهاية المطاف بابا مشرعاً يلجه من حين لآخر ما هو مجهول ومؤثر مروع قادماً من آفاق عالم آخر لا انساني ، منتزعاً الانسان في غمار موجات الليل من الانسانية وسائراً به نحو مصير وتبعية تعلو على الشخص ؟ حتى انه ليخيل ان المغامرة الغرامية ليست سوى محرك محرر ، ويخيل انها قد «رتبت» على نحو لا شعوري في سبيل غايات معينة ، كما لو ان ما هو شخصي ـ انساني يعد افتتاحية لما هو جوهري وحده ؛ لما هو « ملهاة الهية » اساسية .

ان العمل الفني ، الذي هو من هـذا النمط ، ليس هو الابداع الوحيد النابع من دائرة عالم الليل ؛ إن ذوي البصائر والانبياء يقتربون منه وكما قال القديس اوغسطين[1] بشكل صائب : « ... ونستمر في الصعود عالياً في اعماق تفكيرنا واحاديثنا ويتملكنا الاعجاب امام الاعمال الـتي هي اعمالك ، ونحط الرحال في ساحة ادراكنا وفهمنا ونتخطاها كي نصـل الى موطن الخصب الذي لا ينضب ، حيث تتناول يا يعقوب ابد الدهر غذاء الحقيقة ، هنالك حيث الحياة حكمة[2] ، يتساقط ايضاً في هذه الدائرة نفسها كبار الاشرار و كبار الهدامين ، الذين يلطخون وجه الأزمنة ، وفاقدو العقل ، الذين اقتربوا من النار اكثر مما يجب » .. من ذا الذي في وسعه منكم ان يقطن بين السنة النيران الملتهبة ؟ من منكم يحبذ العيش في كنف لهيب خالد ؟ » وقد قيل والقول صائب : « من يود الرب ان يهلكه يفقده عقله » . ومهما تكن هذه الدائرة محاطة بالغموض والظلمة ، فهي ليست مجهولة بحد ذاتها بل تؤلف شيئاً معروفاً منذ القدم ، فهي في نظر البدائي جزء لا يتجزأ وغني عن البيان من صدر عالمه ، ونحن وحدنا نغلق ذواتنا دونها خشية من التطير وخوفاً من الميتافيزيقا ، وكما يبدو ، في سبيل بناء عالم واع آمن وعملي تسوده القوانين الطبيعية كما تسوده الشرائع الانسانية في دولة منتظمة . بيد أن الشاعر يرمق احياناً صور عالم الظلام الارواح والشياطين والآلهـة ، والتشابك الخفي بين المصير الانساني والمقصد الذي يعلو على الانسان ، ويسبر أغوار الامور المستعصية التي تنبثق من الفيض الالهي ، كاشفاً احياناً يسيراً من العالم الروحي الذي هو في آن واحد مصدر رعب ومنبع امل للانسان البدائي . وليس يخلو من فائدة ان نبحث فيما اذا كان

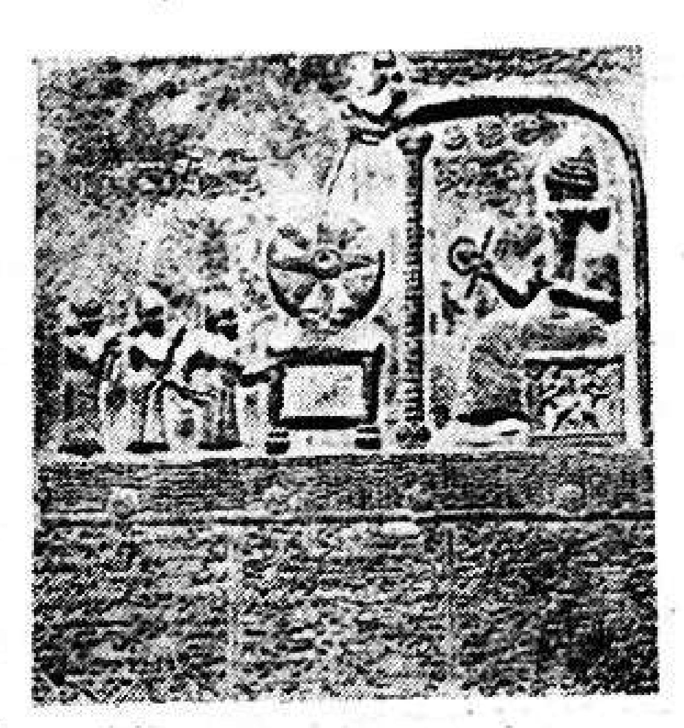
---

(١) اوغسطين : اسقف من اساقفة الكنيسة ارتد الى الدين بعد شباب عاصف جامح ولد في شمال افريقيا (٣٥٤ — ٤٣٠) واشتهر بمؤلفاتـه « الاعترافات » و « مدينة الله » ودراسة مطولة حول « النعمة » (المترجم)

(٢) الاعترافات : كتاب ٩ فصل ١٠ (الطبعة اللاتينية)

هذا النفور من الخرافات والتطير الذي نجده في العصر الحديث ، و كذلك فيما اذا كان التنوير المادي الحديث ليسا سوى تفرع و استمرار للسحر البدائي والخوف من الارواح . على أي حال فان الاغراء الكامن في العلم المسمى علم نفس الاعماق والمقاومة العنيفة التي تتصدى له يدرجان في هذا الفصل .

اننا نلمس منذ فجر البدايات الأولى للمجتمع الانساني آثار الجهود النفسية التي بذلت لابتكار الشعائر التي ترضي الارواح وتستعطفها أو تخرجها وتبعدها ، ويشعر بها الانسان على نحو غامض ونعثر بين أقدم الرسوم المنحوتة على الصخر والعائدة الى العصر الحجري في جزيرة رودس ، إلى جانب صور حيوانات مطابقة للطبيعة ، على رسم مجرد يمثل صليباً مثمن الاضلاع محاطاً بدائرة ، ونجده على هذا الشكل بمخو جميع الثقافات[1] كما لا نزال نجده اليوم ليس في الكنائس المسيحية وحسب ، بل في أديرة التيبت أيضاً . إن هذا الرسم المدعو « عجلة الشمس »



(١) ونجد هذا على سبيل المثال في بابلون ، وتظهر هذه الصورة عبادة إله الشمس في تعبير رمزي وتعود الى الملك نابو آبال الدين من القرن التاسع قبل الميلاد المترجم

والذي يعود إلى عصور وحضارات لم تكن العجلة قد اخترعت فيها بعد ، ينبثق جزئياً فقط من تجربة خارجية ، أما من جانب آخر فهو يعبر عن رمز ، عن تجربة تمت معاناتها في الداخل ، وأعيد بناؤها على الأرجح بأمانة مثل صورة وحيد القرن الموسومة مع نوع من الحشرات تدعى قرارة . ليس ثمة أية حضارة بدائية لاتملك نطاقاً متطوراً يبعث على الدهشة من العقائد السرية الحكيمة ؛ التي تمثل في تعاليم تتناول الامور الغامضة التي تقع ما وراء الحيـــاة البشرية وذكرياتها من جهة ، وتتناول من جهة ثانية الحكمة التي ينبغي أن تتحكم في أفعـــال البشر [1] . إن هدف جمعيات الرجال والعشائر الطوطمية المحافظة على هذه المعرفة ، التي تلقن لرجال مكرسين لذلك . وقد سلكت العهود الاغريقية والرومانية القديمة السبيل ذاته بأسرارها . وليست ميتولوجيتها الخصبة سوى ذخائر من أقدم المراحل التي تمت فيها مثل هذه التجارب .

لهذا السبب فمن الطبيعي على الاطلاق، أن يغرف الشاعر من معين الصور الميتولوجية كي يبتكر تعبيراً ينسجم ومعاناته ، ومن أضل الأمور أن تفترض ، أنه يبتكر من مادة تقليدية في مثل هـــذه الحالات ، بل انه يغرف بالأحرى من معين المعاناة الاصيلة ، التي هي بطبيعتها الغامضـة ظمأى إلى استشفاف الصور الميتولوجية ، وعلى هذا تواقة الى اجتذاب قرائنها اليها كي يتمكن من سكبها في قالب تعبـــيري . إن المعاناة الاصيلة عارية من الكلام والصور ذلك انها عبارة عن رؤيا في « مرآة قاتمـة » انها محض حدس مستقبلي جبار ، يود أن ينبض تعبيراً . إنها شبيهة بزوبعة تلف في طياتها ما يعرض عليها ، وفي تعاليها تكتسب المعاناة حللاً مرئية . ولما كان التعبير لا يبلغ ابداً

---

(١) ان تعاليم قبيلة « دشاق » التي نشرها برونو غوتمان (١٩٣٢ - ١٩٣٨) لا تقل عن ثلاث مجلدات تتألف من ١٩٧٥ صفحة .

ما في الرؤيا مزغنى ولا يطوي أبداً حدود اللامتناهية ، يفتقر الشاعر غالباً إلى مداد لا حصر لها ، كي يعيد بناء الحدس المستقبلي وان بصورة تقريبية ، فضلاً عن أنه لن يتمكن من التنازل عن أسلوب تعبيري صعب المراس شائك مفعم بالتناقض، إن أراد أن يخرج إلى حيز الوجود المفارقة المريعة الماثلة في الرؤيا . وينشر دانته أجنحة معاناته واسعة تشمل كل صور الجحيم والمطهر والسماء ، أما غوته فيستعين بلوكبرغ وعالم الاغريق السفلي ، وفاغنر يستند إلى ميتولوجيا الشمال كلها وثراء اسطورة بارسيفال ، ونيتشه يستل الأسلوب المقدس لأصحاب الرؤى الاسطوريين قبل التاريخ ، وللأناشيد الحماسية الغنائية التي تشيد بديونيسيوس ، وبليك يستخدم فن الاشباح الهندي وعالم الصور الماثل في التوراة ورؤيا يوحنا ، وشبيتلر استعار أسماء قديمة للتعبير عن صور جديدة، تتدفق بعدد يكاد لا يحصى من اعماق شاعريته الخصبة . ولاشيء يفتقر إليه في درجات القيم الجمالية بدءاً بما هو مهيب رائع مغلق على الفهم وانتهاء بالنابي الغريب .

لتوضيح جوهر هذه الظاهرة المتنوعة وتعزيزها بصورة رئيسية يجب على علم النفس أن يقدم المصطلحات والمواد المقارنة . إن مايظهر في الرؤيا انما هو تعبير عن اللاشعور الجمعي ، أي عن بنية النفس الأصيلة الفطرية التي تمثل رحم الشعور وشرطه المسبق . وتمشياً مع قوانين علم الوراثة يتحتم على البنية النفسية التي شأنها شأن البنية التشريحية ، أن تحمل في طياتها معالم المراحل التي مرت بها الأسلاف . كذلك هي الحال حقاً بالنسبة إلى اللاوعي : ففي حالات الخسوف الشعوري إبان الحلم مثلا أو في حالات الاضطرابات العقلية يطفو على سطح الشعور نتاجات أو مضامين نفسية ، تحمل في ذاتها معالم الحالة النفسية للانسان البدائي ، وليس من حيث الشكل فحسب ، بل أيضاً من حيث المحتوى ، لدرجة يتساءل عندها المرء غالباً ، أليست تؤلف مقاطع من عقيدة سرية قديمة . وعديدة هي الحوافز

المتولوجية البارزة التي تتجلب في لغة صور عصرية ، فلا يطالعنا مثلاً نسر زيوس أو طير روك ، انما طائرة ؛ وصراع التنانين يعبر عنه باصطدام قطارات ، والبطل الذي يقتل التنين هو البطل صاحب الشخصية المرموقة في المسرح البلدي في المدينة ، وعوضاً عن الأم الجنية تبرز صورة بائعة الخضار البدينة ، وبلوتون الذي يختطف بروسربينا يغدو سائقاً خطراً ... وهكذا ... بيد أن ما هو هام وقيم خاصة بالنسبة لعلم الأدب ، يكمن في أن تجليات اللاوعي الجمعي تتسم بالنسبة للموقف الشعوري بطابع تعويضي هذا يعني أن الموقف الشعوري - ان كان متحيزاً غير متلائم لابل خطر - يستعيد اتزانه وانسجامه . هذه المهمة نلقاها أيضاً في دراسة أعراض الأمراض العصابية وفي الأفكار الجنونية عند مرضى العقل ، حيث نجد غالباً الظاهرات التعويضية قريبة المتناول ، عند بعض الأشخاص مثـــلاً الذين يتقوقعون خوفاً من العالم الخارجي وينعزلون عنه مكتشفين فجأة ، ان كل شخص يلم بأسرارهم الباطنية ويبوح بها . من الطبيعي ، أن ليست جميع الوان التعويضات واضحة كل الوضوح ، فالتعويضات العصابية أدق منها بكثير ، ولاسيما تلك التي تتجلى في الأحلام ، فهي ليست مغلقة تماماً على العلماني فحسب ، بل غالباً على الرجـــل المختص اصلاً ، مهما تكن الدهشة التي ترتسم على الوجوه حينما يكشف النقاب عنها . ونحن نعلم بما فيه الكفاية ان ابسط الأمور هي في اعظم الاحيان اعسرها لهذا اجدني مضطراً إلى الادلاء بأمثلة من حقل الأدب .

اذا غضضنا الطرف بادىء الأمر في هذا المقام عن الامكانية التي ترى مثلاً في « فاوست » تعويضاً شخصياً عن موقف غوته الشعوري ، يطرح عندها ، علاوة على ذلك السؤال ذاته ، عن العلاقة التي تربط مثل هذا العمل الفني بشعور العصر أليس من الممكن اعتبار هذه العلاقة تعويضاً ما . أما إذا جرت المحاولة لارجاع ظاهرة الشعر العظيم الذي يستمد ابداعه من روح الانسانية الى ما هو شخصي ،

فالمحاولة هذه تخطيء هدفها بحسب رأيي. ذلك أنه والحق يقال اينما تجلى اللاشعور الجمعي عبر معاناة ما مقترناً بشعور العصر ووجدانه ، نجدنا إزاء فعل مبدع خلاق يشمل مرحلة زمنية بكاملها ، وعندها يجسد العمل الفني بأعمق ما فيه من معنى رسالة موجهة إلى المعاصرين لهذا السبب تلامس « فاوست » شغاف افئدة الالمان (كما اشار الى ذلك مرة يعقوب بور كهارد[(١)(٢)]) ، ولذا يشع مجد دانته مجداً خالداً ، ولذا يكاد يغدو « الراعي » لهرماس كتاباً كنسياً شرعياً .

إن لكل عصر تعصبه واحكامه المسبقة وآلامه الروحية . إن كل عصر من عصور التاريخ شبيه بروح فرد من الأفراد، فهو يصطبغ بموقف شعوري خاص به ومميز له ، ولهذا السبب فهو يحتاج إلى تعويض ما ، يمكن أن يؤديه اللاشعور الجمعي له ، ويتجلى ذلك في أن يسكب شاعر أو نبي الأمور الغوامض الكامنة في موقف العصر في قالب تعبيري ، ويكشف بالصورة أو بالفعل ماينتظره الجميع قبالة الحاجة المكتبسة خيراً كانت أم شراً ، من أجل سلامة عصر أو من أجل دماره .

لمن الخطر التحدث عن العصر الذي نعيش فيه ، ذلك أن نطاق الرهان الحالي هائل في اتساعه . لذلك نكتفي ببعض الدلائل . إن كتاب فرنسيسكو كولونا يمثل تأليهاً للحب مسروداً في صورة حلم أدبي . إنه ليس قصة هوى من الاهواء ، انما سرد يدور حول صلة من الصلات بالأنيما (نفس) (Anima) أي بالصورة الذاتية لما هو انثوي ، فجسده في الهيئة الوهمية لبوليا (Polia) .

---

(١) رسائل الى البرت برينر . بازلر ياربوخ ١٩٠١

(٢) يعقوب بور كهارد : كاتب ومؤرخ سويسري يكتب بالالمانيـة ولد في بال (١٨١٨ - ١٨٩٧) . اشتهر بمؤلفاته حول التاريخ والفن والحضارة وخاصة « تأملات حول التاريخ العام » .
المترجم

تدور حوادث هذه الصلة في اطار قديم وثني ، وهذا يستدعي الانتباه ، لأن مؤلف هذه القصة بحسب اطلاعنا عنه كان راهباً . ومؤلفه هذا يشيد قبالة الوجدان المسيحي في القرون الوسطى بنيات عالم اكثر قدماً وحداثة في آن واحد من أعماق العالم السفلي ، المادس ، الذي يعد في الوقت ذاته لحداً وأماً خلاقة . وعلى مستوى اعلى يحيك غوته دربا احمر وسط نسيجه الواهي في « فاوست » ، ويتجلى هذا الدرب في موضوعه الرئيسي الأنوثة الخالدة غريتشن – هيلينا – الأم الممجدة.

إن نيتشه يعلن موت الآلهة ، وعند شبنلر يصهر ازدهار الآلهة وذبولها إلى اسطورة تعاقب الفصول ، إن كل شاعر من هؤلاء الشعراء يتحدث بأصوات الوف وعشرات الألوف ، مبشراً قدوم تغيرات في وجدان العصر . وتقول لندا فيرز (Fierz) « إن رواية حبنر انوماخيا المدعاة حلم بوليفل تمثل رمز الصدورة النابضة بالحياة ، التي تسري غامضة مستعصية على انسان عصره ، والتي جعلت من عصر النهضة فجر العصور الجديدة »[1] ومنذ عهد كولونا تهيأ الجو لضعف الكنيسة بانشقاقها من جهة ، ولعصر الرحلات الكبرى والاكتشافات العلمية من جهة ثانية، لقد آذنت شمس عالم بالأفول ، ليشرق فجر عهد جديد مستلهماً قدومه في صورة بوليا المفعمة بالمفارقات والتناقضات الداخلية ، المتمثلة في الروح العصرية للراهب فرانسيسكو كولونا بعد مضي ثلاثة قرون على الانشقاق الديني والاكتشاف العلمي العالم ، برع غوته في وصف الانسان الفاوستي الذي رفعه إلى مصاف الالهة، وحاول ، عندما شعر بلا انسانية هذا المثال ، أن يوحده مع الانثى الخالدة ، مع حكمة الأمومة . وهذه الاخيرة تتجلى كأسمى مظهر من مظاهر الأنيما ، التي تجرد الحورية بوليا من قسوتها الوثنية . بيد أن هذه المحاولة التعويضية لم يدم أثرها،

---

(١) قارن دراسة لندا فيرز – دافيد في كتابها : حلم بوليفيل، ١٩٤٧ . ودراستها تنهض على مبادىء علم النفس المعتمد على العقد النفسية .

اذ سرعان ما عاود نيتشه تشبثه بالانسان المتفوق ، الذي قضي عليه أن يهوي نفسه بنفسه في الهاوية . وان عمدنا الى مقارنة « بروميتيوس » عند شبيتلو بهذه المأساة المعاصرة، ستستوعب عندها اشارتي إلى القيمة النبوية التي يتحلى بها العمل الفني العظيم .

٢ ـ الشاعر

إن سر الخلق الفني ، شأنه شأن حرية الارادة ، يعد مشكلة متعالية ، ليس في وسع علم النفس الاجابة عنها ، انما بامكانه وصفها ليس إلا . كذلك يعد الانسان المبدع لغزاً من الألغاز ، ومهما حاول المرء بشتى الطرق ايجاد حل له ، فمحاولاته تذهب أدراج الرياح . على أي حال فقد اهتم علم النفس الحديث من حين لآخر بمشكلة الفنان وفنه . وظن **فرويد** أنه قد وضع يده على مفتاح اللغز للنفاذ الى العمل الفني انطلاقاً من المعاناة الشخصية عند الفنان (قارن فرويد حول فيلهلم زنسن و كتاباته بعنوان « كراديفا و «ليونارد دافينشي») . وفي هذا المجال برزت بعض امكانات للعمل . أليس من الممكن أن نشتق عملا فنياً من « العقد » النفسية ، من عصاب ما مثلا ؟ الا أن اكتشاف **فرويد** الكبير يكمن في أن الامراض العصابية لها منشأ نفسي معين ، أي انها تعود الى أسباب نفسية أو الى الوان من المعاناة المبكرة في عهد الطفولة ، سواء أكانت تتسم بطبيعة حقيقية أم وهميـــة . بعض من تلامذته ، بصورة خاصـــة **رانك** (Rank) **وستيكل** (Stekel) خاضوا غمار التساؤل ذاته وتوصلوا الى نتائج مماثلة . ولا ينكر أن من الممكن عند الضرورة تتبع بسيكولوجية الشاعر الشخصية حتى جذور عمله الفني لا بل حتى أقصى فروعه . وليس بجديد القول إن ما هو شخصي في نفسية الشاعر يؤثر في نقاط عديدة في اختيار مادة عمله وصياغتها . ومن المؤكد ، أن

الفضل يعود الى المدرسة الفرويدية في أنها كشفت عن مدى هذا التأثير وعن نوعية الصلات الاصلية والتماثلية التي يتم بها .

يرى فرويد أن العصاب يعد اشباعاً بديلاً أي شيئاً هجيناً ، هفوة ، ذريعة ، عذراً ، عدم مواجهة ؛ بمختصر القول ، شيئاً سلبياً في جوهره ، من المفضل لو لم يكن .

ويكاد لايجرؤ أحد على مدح العصاب ، ذلك أنه يبدو انه ليس أكثر من اضطراب عقيم وبالتالي اضطراب نفسي مغيظ .

ان العمل الفني الذي يبدو أنه يخضع الى التحليل والى ارجاع ظاهرة الفن الى الوان الكبت الشخصي في نفسية الشاعر كما لو كان عصاباً ، يقع بهذا في قرابة حرجة خطرة للعصاب، إلا انه يجد نفسه في صحبة طيبة ، بما ان المنهج الفرويدي ينظر نظرة مماثلة الى الدين والفلسفة وغيرهما ...

وليست لدينا مايتعارض وهذا المنهج ، ان لبث عند حدود تأمله واقتصر على الاعتراف بصراحة ، بأن الامر لا يدور في هذا المضمار إلا حول اكتشاف وتحليل الشروط الشخصية ، التي غني عن البيان القول بأنها ماثلة في كل مكان . أما اذا طالب هذا المنهج زاعماً ، بأن في تحليلهذا انما يفسر جوهر العمل الفني أيضاً ، فزعمه هذا مرفوض بلا جدال . ذلك أن جوهر العمل الفني لا تقوم قائمته بما يتضمنه منخصائص مفردة شخصية - بل بسبب سموه فوق ماهو شخصي وبسبب تدفقه في العقل والقلب معاً ليخاطب عقل الانسانية وقلبها . ان العامل الشخصي هو عامل عائق ، لا بل هو عبء على الفن . « فالفن » الذي يتسم بطابع شخصي صرف أو يغلب عليه الطابع الشخصي ، يستحق أن يعامل كما لو كان عصاباً . وعندما تعتنق المدرسة الفرويدية الرأي القائل « بأن لكل فنان شخصية محدودة تحديداً مسبقاً ذاتياً - طفولياً، يصح أن ينطبق هذا الحكم على الفنان كشخص ،

لكنه لا ينطبق عليه كمبدع . لأنه كمبدع لا يتسم بطابع شيق ذاتي ولا شيق غيري ، حتى انـــه لا يتسم بطابع شبقي على الاطلاق ، بل هو بأسمى المعاني واقعي لا شخصي ، لا بل لا انساني أو يعلو على ما هو انساني ، ذلك انـه بصفته فناناً يمثل عمله الفني ولا يمثل كونه انساناً . ان كل انسان مبدع خلاق يمثل ثنائية او تآلفاً من صفات مفارقة . انـه انساني شخصي من جهة ، ويمثل من جهـة ثانية سياقاً لا شخصياً انسانياً . بصفتـه انساناً قد يكون سليما او مريضاً ؛ على هذا فمن الممكن تفسير بسيكولوجيته الشخصية . وينبغي ان تفسر من الوجهـة الشخصية . اما بصفته فناناً ، فلا مجال لسبر غوره إلا انطلاقـاً من عمـله الخلاق . وعلى سبيل المثال انها لهفوة فظة امر ارجاع تصرف جنتلمان انكليزي او ضابـط بروسي او كردينال من الكرادلة الى علل شخصية . فتصرف الجنتلمان والضابط والأب الروحي ذي المرتبة العالية تمثل تقاليد رسمية غير شخصية تتسم ببسيكولوجية موضوعية كامنة فيـه . وعلى الرغم من ان الفنان يقف قبالة ما هو رسمي ، فهنالك اوجه تماثـل خفية ، ، على قدر ما نجـد ان البسيكولوجية الخاصـة بالفنان ليست قضية شخصية مفردة ، بل قضية جمعية . ذلك ان الفن مغروس في أعماقه بالفطرة مثـل غريزة تجتاحـه وتستولي عليـه وتجعل منـه اداة لهـا . ان ما يحرك الطموح المتوثب في جوانحـه في نهاية الأمر ليس هو بصفته شخصاً ، انما المريد هو العمل الفني الطامح الى الوجود . انه كشخص قد تكون له امزجته ومطامحـه وغاياتـه الخاصة ، اما كفنان فيتسم بكونه « انساناً » بالمعنى الأسمى للكلمة ، انه انسان جمعي ، حامل لواء الروح الفاعلة اللاشعورية للانسانيـة ، والسا كب مضامينها في قوالب مبتكرة ، في هـذا يكمن واجبه ، الذي يزداد عباه غالباً لدرجة ان قدره يقضي ان يضحي بسعادته البشرية وبكل ما يجعل الحياة جديرة بالعيش عند الرجل العادي . يقول ك . ج كاروس : « ان ما نطلق عليه اسم العبقرية يتميز

بالطريقة التي يعبر فيها عن نفسه ، ذلك ان روحاً موهوبة سامية مثل تلك الروح تتسم على نحو يبعث فينا الاعجاب ، بأنها على الرغم من الوان الحوبة التي ترتع في رحابها ، ومن الوضوح الذي يواكب حياتها محددة ومحاطة اينما كانت باللاوعي ، هذا الاله السري الثاوي في اعماقها ، بحيث ان الافكار تنبجس منها – ولا يدري من اين ؟ والزخم يدفعها الى الفعل والخلق – ولا يدري الى اين ؟ وتوقاً إلى الصيرورة والتغيير يهيمن عليها – ولا يدري لأي ؟ » [1]

فليس من المدهش في غمار هذه الظروف ،بأن الفنان بالذات ـ ككل ـ هو الذي يقدم مواداً غنية على وجه الخصوص لعلم نفس قائم على اساس تحليلي نقدي . إن حياته مفعمة بالضرورة بالأزمات ، وطالما تتصارع في افقها قوتان : هناك الانسان العادي وماله من مطالب مشروعة في السعادة والهناء وتأمين حياته من جهة ، ومن جهة ثانية هناك الهوى الخلاق الجموح ، الذي يبدد عند الاقتضاء جميع الأمنيات الشخصية في مهب الريح . ولهذا السبب ، نجد ان المصير الحياتي الشخصي لعديد من الفنانين قاتم في جنباته لا بل مفجع ، وهذا يعود الى نقص نفسي في ذواتهم او عدم انسجام كاف في شخصيتهم الانسانية لا إلى قدر مشؤوم مظلم . ويندر ان يوجد كائن مبدع لا يتحتم عليه دفع ثمن الشعلة الالهية ، شعلة فنه العبقري غالياً .وكأنما قد ولد وولد معه رأس مال محدود من الطاقة الحيوية. فالفنان ، إن كان اصيلاً ، تنسكب معظم جداول طاقاته في معينه الأقوى ، معين ابداعه ، ولا يبقى منها سوى شيء يسير لا يجدي كبير نفع . قبالة هذا نجد ان الجانب الانساني يبذل نفسه في سبيل الجانب الابداعي، بحيث انه لايمكنه ان يبلغ إلا مستوى بدائياً ومنحطاً في الحياة في اغلب الاحيان. وهذا يجدتعبيره في القيام بأمور طفولية وفي الاستهتار او في انانية لا مبالية ساذجة (ما يسمى

---

(١) « النفس » « اشرف على صدوره كلاكس – ١٩٢٦ ص ١٥٨

بالشبقية الذاتية) وفي الغرور وغيرها من الهفوات ... إن هذه النقائص ذات جدوى وذلك على قدر ما تغدق على الانا زخماً حيوياً ، على هذا النحو فحسب وبما فيه الكفاية . إن الانا تفتقر إلى مثل هذه الاشكال الدنيا في الحياة ، وإلا يقضي عليها في غمرة استلابها .

فالشبقية الذاتية الشخصية الماثلة عند بعض الفنانين يمكن ان نقارنها بتلك التي نجدها بشكل من الاشكال عند الاطفال غير الشرعيين او المهملين ، الذين يضطرون في زمن مبكر الى حماية انفسهم بصفات سيئة من الاثر المدمر لبيئة فارغة من الحب . إذ سرعان ما يتسم مثـــل هؤلاء الاطفال لطبائـع لا مبالية متمركزة في ذاتيتهم . وهذه الطبائـع إما ان تغدو سالبة وذلك بأن تلبث طوال حياتهم طفولية وقاصرة ، او تغدو إيجابية ، وذلك بأن تتمرد على الاخـــلاق والقوانـين .

ومن البدهي ، انه يتوجب القاء ضوء على الفنان من زاوية فنه لا انطلاقاً من مثالب كامنة في طبيعته ومن ازماته الشخصية ، التي ليست سوى حصيلة مظاهر مؤسفة ناجمة من واقعة انه فنان ، اي انسان يقـع على عاتقه عبء اضخم من الانسان العادي الفاني . ان المزيد من الامكان يتطلب ايضاً صرف طاقة اكبر ، لهذا فالمزيد في جانب قد يرافقه نقص في جانب آخر . وسيان أدرك الشاعر ان عمله مولود في نفسه ويترعرع وينضج ، او يتخيل ، انه يقوم بصياغات خاصة مبتكرة بقصد خاص ، فهذا لا يغير شيئاً من ان عمله في الحقيقة ينمو في اعماقه ان بين الشاعر وعمله العلاقة نفسها التي هي بين الطفل وامه . ان بسيكولوجية الابداع الفني هي بسيكولوجية انثوية في جوهرها ، ذلك ان العمل الخلاق يترعرع من اعماق اللاوعي ، اي بحق ، من صعيد مملكة الامهات . ان رجحت كفة ميزان العامل الابداعي ، رجحت

معه كفة عامل اللاوعي ، بصفته القوة المكونة للحياة وسلطان مصيرها قبالة الارادة الواعية . وعلى هذا ينساق الشعور بعنف تيار سفلي، ويغدو كشاهد عيان لحوادث تجري امامه ولا معين له في اغلب الاحيان .

ان العمل النامي يؤلف قدر الشاعر ويحدد معالم بسيكولوجيته . فليس غوته هو الذي صنع « فاوست » ، انما العوامل النفسية « فاوست » صنعت غوته . والآن ماهو « فاوست » ؟ إن « فاوست » يعــد رمزاً ، فهو ليس مجرد اشارة دلالية أو صورة مستعارة عن شيء معروف منذ أمد بعيد ، بل هو أيضاً تعبير عن عنصر مؤثر نابض بالحياة سحيق في القدم مستمر في الروح الألمانية ، عزز غوته في إظهاره رائعة إلى الوجود . هل يدور في خلدنا ، أن كاتباً غير المــاني في وسعه تأليف « فاوست » أو « هكذا تكلم زرادشت » ؟ ان كلا الكتابين يدوران في فلك واحد اذ يعبران عن اختلاجة الروح الالمانية من « صورة أصيلة » كما قال ذات مرة يعقوب بور كهارد ، عن صورة طبيب ومعلم من جهة وساحر أسود من جهة . فهو المثال الاصيل للانسان الحكيم والمعين والمخلص ، وهو بالمقابل انموذج الساحر والخداع والغاوي والشيطان . إن هذه الصورة محفورة منذ أقدم العصور في صفحة اللاوعي ، غارقة في السبات إلى أن توقظها مسرة حقبة من الحقب أو بؤسها، وخاصة عندما تجتاح كارثة كبرى شعباً من الشعوب وتحيد به عن السبل القويمة ، وحيث تعترض المهاوي والمزالق المسيرة يستنجد الشعب بقائد أو حكيم ، بــل بطبيب . ودرب الضلال المغري . يعد السم ، الذي قد يكون له في الوقت ذاته مفعول الدواء الشافي . وشبح مخلص قد يعد هداماً شيطانياً . ان هــذا التناقض يترك أثره منذ القدم في طبيب الاسطورة العريقة، فالطبيب الذي يشفي الجراح،

يحمل هو ذاته جرحاً. وكمثال كلاسيكي على هذا نذكر خيرون[1] [2] (Chiron).

أما في مجال الديانة المسيحية فيمثل في الجرح في خاصرة المسيح، الذي يعد من أكبر الأطباء بيد أن ماييز «فاوست» هو أنه لايحمل جرحاً ولا أثر للمشكلة الاخلاقية فيه. فان عمد إلى فصم شخصيته استطاع أن يسلك مسلكين: مسلكاً واثق الخطا ومسلكاً شيطانياً. وفي غمار هذه الحالة فقط، في وسعه أن يشعر أنه بعيد مسافة «ستة آلاف قدم ماوراء الخير والشر». وعوضاً عن التعويضات، التي يبدو أن «مفيستو» قد حرم منها في ذلك الحين، قدم حساب دموي بعد انقضاء مئة عام.

لكن من الذي يعتقد جاداً بعد أن الشاعر عبر عن الحقيقة كلها التي تحيط به؟ وفي أي اطار يتوجب عندها ان نشهد عمله الفني؟

ان الانموذج الأولي (Archetypus)[3] هو في حد ذاته ليس بصالح أو بطالح. إنه فكرة جوهرية لا شأن لها بالصعيد الاخلاقي، إلا أن هذا الانموذج يغدو طيباً أو شريراً أو يشتمل على ثنائية متناقضة من خلال الاصطدام بالشعور. والفصل بين الخير والشر يقرره الموقف الانساني، عن علم أو عن جهل. ثمة عديد من النماذج الاولى، بيد انها لا تتجلى في احلام الافراد ولا في الاعمال الفنية، ما لم تثار بانحراف الشعور عن السبيل الوسط. فاذا اسقط الشعور واتخذ موقفاً

---

(١) في هذا الصدد قارن كيريني: الطبيب الالمي ١٩٤٩، ص ٨٤ ومابعدها

(٢) خيرون كائن اسطوري نصفه الاعلى انسان ونصفه الاسفل حصان. طبعه طيب وخير، عهد اليه بتربية البطل آخيل ويعده الاغارقة من مبدعي علم الطب (المترجم)

(٣) مكـونة من جزأين Typus المـوذج، و (Arche) (Lexy) البدء الاصل.

ذلك « الغرائز » وترسل صورها إلى أحلام الأفراد ورؤى الفنانين والبعيدين ، كي تعدل ما اختل من اتزانهم الروحي . لهذا فان حاجات الشعب الروحية نجدها تتحقق في عمل الشاعر ، وبالتالي فان عمل الشاعر يجد حقاً ، وسواء عن وعي أو غير وعي ، اكثر من قـدر شخصي . والشاعر يمثل أداة انتاجه بالمعنى العميق للكلمة . لهذا فهو دون هذا الانتاج ، ولا يجوز لنا أن نتوقع منه تفسيراً لانتاجه الخاص به أبداً . لقد بذل أقصى جهد في سبيل صياغته . أما التفسير فيقع على كاهل آخرين ، ويترك في عهدة المستقبل . والعمل العظيم شبيه بحلم لا يفسر نفسه بنفسه على الرغم من جهره ، فأبداً يلتبسه الغموض . ليس من حلم يستخدم صيغة « يجب أن » أو « هذه هي الحقيقة » . إنه يعرض علينا صورة من الصور وينبت كما ينمو نبات في الطبيعة ، ويقع على عاتقنا مهمة الاستقراء والاستنتاج . إنه اذا انتاب احدنا كابوس ما ، فاما انه يشعر بخوف كبير ، أو لا يشعر بالخوف بما فيه الكفاية ، واذا حلم أحد بمعلم حكيم ، فهو إما لانه واسع العلم او لأنه بحاجة إلى المعلم .

وكي نسبر معناه علينا ان ندع ذواتنا تصاغ في بوتقته ، كما يُصاغ الشاعر في بوتقة عمله الفني . عندها ندرك ماهية معاناته الاصلية : وهي انه لامس تلك الاعماق الروحية الشافية والمنقذة ، هنالك حيث لم يتقوقع الفرد بعد في عزلة الشعور ، ليشق درب التيه المليء بالعذاب ، هنالك حيث الكل يسبحون في نغم اختلاجة واحدة ، وحيث بالتالي لازال احساس الفرد وعمله يبلغان الانسانية برمتها .

ان معاودة الانغماس في الحالة الأصيلة « للمشاركة الصوفية » تعد سر الخلق الفني والفعالية الفنية . ذلك انه لم يعد الفرد هو الذي يشهد ما يشهد على هذا الصعيد من المعاناة ، إنما الذي يشهد هو الشعب . والامر لا يدور في غمار هذه

المشاركة حول مسرة فرد او تعاسته انما حول حياة الشعب . لهذا السبب فان العمل الفني العظيم ، على الرغم من كونه واقعياً لا شخصياً ، يلامس اعمق اعماقنا. ولهذا فان العامل الشخصي عند الشاعر ، وليكن مزية او عائقاً ، ليس ابداً جوهرياً بالنسبة الى فنه . ولتكن سيرته الشخصية سيرة رجل عامي او شجاع او عصابي او مجنون او مجرم ، وقد تكون شيقة ولا مفر منها ، بيد انها تبقى ثانوية غير جوهرية بالنسبة إلى كونه شاعراً .

* * *





" أما نحن ، فنمثل الاستثناء والخطر . " #نيتشه

انضمَ في مايو ٢٠١٦

٥١ المتابَعون **٢،٣٦٨** المتابِعون

التحليل النفسي وفن الشعر

د . هانس ساكس

يطرق مسامعنا غالباً الرأي القائل ، إن الفن ليس سوى درة في جبين الوجود الانساني ، وبالتالي هو شيء فائض وكمالي ، ينهض هناك ، حيث الحاجات الضرورية قائمة على قدم وساق ، ومضمونة كل الضمانة ، لبعث روح الجمال في الحياة واعلاء صرح غناها . يحتوي هذا الرأي على عدم تقدير قيمة الفن تقديراً صائباً ، لأن للفن في الواقع جذوراً عميقة في حياة الانسان ، منذ بزوغ اول شعاعات حضارية على وجه الأرض الى نشوء حاجات المجتمع الضرورية .

قبل عشرين الف سنة واكثر ، كان سكان الكهوف ، الذين لم يمتلكوا سوى ادوات حجرية غير مصقولة ، قد انجزوا رسوم حيوانات مختلفة ، تتمتع بقيمة فنية رفيعة ، يتقاعس دون بلوغ مستواها فنانون معاصرون ، هذا إذا لم نقل لا يمكن أن تضاهى .

امـــا عن الفن الشعري في ذلك الزمن السحيق ، فلم تتسرب الينا اية معلومات ، لأن الكلمة تندثر في مهب الريح ، مالم ، تثبت بواسطة الكتابة . لكننا نعلم ان شعوباً في بلاد الأسكيمو وبعض قبائل الزنوج الاستراليين مثلاً ، ما افتقروا قط إلى اناشيد واساطير ، مع انهم لبثوا على درجة خفيضة في مجال التطور الحضاري .

نستنتج مما تقدم ، ان النزعة نحو الخلق الفني مغروسة في اعماق الانسان ،

ويعمل هذا الميل المتأصل فيه على اشباع الدوافع ، التي تحتاج جميع الافراد ذوي الطبيعة العادية ،وبصورة خاصة ذوي الطبيعة الحساسة المرهفة. هكذا فقط نستطيع أن نعلل ، كيف أن الفن لايعتريه الهرم ، بل يتعالى فوق حـــدود الاجناس والعصور ، ناسجاً عرى الوحدة بين القلوب .

سنحدد هنا الموضوع ونقتصر في البحث في الفن الشعري ، منطلقين من أن الوقائع الاساسية التي تتحقق في فن من الفنون ، لابد وأن نجدها أيضاً تتحقق في الفنون الباقية .

ان نقطة انطلاقنا في هذا البحث هي المرحلة السابقة بفن الشعر . إن البحث في هذه المرحلة بالذات يمهد لنا سبيل الفهم لأنها لاتنبثق عن الفنانين وحسب ، أي عن أناس نادرين استثنائيين ، بل هي ظاهرة انسانية عامـــة ، يشترك فيها كل فرد بشري ، وان كان مقدار هذا الاشتراك يتباين من فرد لآخر . إن هذه الظاهرة ندعوها حلم اليقظة . إنها الصروح الخيالية التي نبنيها في ذهننا ، وأحلام الخيال التي تسكب حيوية في ساعاتنا الموحشة ، حاملة إيانا بعيداً عن العالم الواقعي المر ، وقد تسلمنا إلى ذراعي النوم الهادىء ، عندما يسدل الليل ستائره . إن عالم الاحلام هذا يشكل لدى بعضهم جزءاً لا يتجزأ من حقيقـــة وجودهم ، ولا يلعب لدى آخرين إلا دوراً متواضعاً . لكن من المتفق عليه عامة ، ان الحياة الخيالية في عهد الطفولة أشد بكثير منها في بقية العهود . ويستطيع الطفل الشغوف باللعب ، أن يبني حوله بوسائل معينة ، بسيطة كل البساطة ، عالماً خيالياً ، يرتع فيه ويمرح ، يسود ويتصرف ، حسبما يروق له . في نهاية عهد الطفولة تفتر همة الطفل وقدرته في هذا الميدان ، لكي يعاني بجدة ، ولفترة معينة ، انطلاقاً وازدهاراً زمن المراهقة . تختلف احلام اليقظة في عهد المراهقة عنها في عهد الطفولة اختلافاً شديداً . إنمـــا لا تتحول لدى المراهق إلى لعب ، بل تلبث خيالاً ليس إلا . والشكل البسيط

الواضح ، الذي تلامس به أهداب الواقع هو أنها قد تنتهي بسهولة إلى عملية استمناء . ذلك لأن الطابع المميز لهذا السن هو أن هناك طاقات من الهيجان الجنسي ، الهائل الشدة ، المجهول زمن الطفولة ، يتدفق في الاعضاء والحياة النفسية ، وعلى المراهق أن يتغلب عليه أو يفرغه بطريقة من الطرق . وتتنفس هذه الهيجانات العنيفة الصعداء من خلال الولوج إلى صرح احلام الخيال ، الذي يظهر نشوءه من الهيجان الجنسي بصورة واضحة أو مستترة . ومن المعلوم أن احلام اليقظة ، تصان في هذه المرحلة من النمو ، وكأنها اسرار لا يجوز البوح بها لاعز الاصدقاء ، وخاصة للأهل والمربين . وهي تبقى أبداً في حيز الكتمان ، مخبأة عن الآخرين حياء ، حتى ولو زالت الصبغة الشهوانية التي تكون قد ضمختها .

كيف تبدو أحلام اليقظة هذه ؟ ان الادلاء بحكم شامل قاطع لامر في غاية الصعوبة ، لأن كل حلم يتلاءم وسليقة الفرد ، فتكمن في هذا المقام فروق شاسعة بين احلام شخص وشخص . تمر احلام الخيال لدى فئة معينة مروراً عابراً ، فهي ليست بالنسبة إليهم سوى عبارة عن تصوير خيالي لحادثة ما يتمنى المرء تحقيقها بكل جوانحه ، وقد تنسج هذه الاحلام ، لدى فئة أخرى ، قصصاً مطولة وحتى روايات كاملة ، لا تختلف عن العمل الفني الحق إلا اختلافاً طفيفاً . إلا أن طابعاً عاماً يشمل هذه الاحلام برمتها هو الطابع الاركزازي (مركزية الذات) ، وهذا يعني ان شخص الحالم يقف أبداً في مركز الحوادث التي تدور حوله ، بينما نجد أن بقية الاشخاص يلعبون دوراً جانبياً ثانوياً ، وفي مقدرتنا ، أبعد من هذا ، وضع قاعدة عامة وهي أن حلم اليقظة يعمل بصورة اعتيادية على تحقيق أمنية الحالم ورغبته ، وخاصة تلك الرغبات ، التي تركها عالم الواقع دون اشباع . ان هذا ينطبق اصلاً على الرغبات الشهوانية ، التي لبثت بلا اشباع ، والتي تفتقت فجأة زمن المراهقة . كذلك في امكان كل منا أن يتأكد بسهولة ، أن احلام اليقظة

بتغير مجراها بنوع لا إرادي ، تحت تأثير ضروب من الحرمان . هكذا يحلم الجائع بوقعة دسمة شهية ، والظامىء بنهلة عذبة تروي منه العطش ... ان هذا لا ينطبق على الحاجات الجسدية وحسب ، بـل أيضاً على الامور التي نفتقر اليها نفسياً ، ولا نستطيع خلقها في عالم الواقع . وقد حدثنا فرويد مثلا عن حلم يقظة جرى مع أحد مرضاه . كان هذا المريض مغرماً في حب فتاة ، لم تشاطره الحب ولم تعره اهتماماً . وابتدع هو في أثناء ذلك هذا الحلم :

ـ إن هذه السيدة سترفضه وتتزوج من رجل يحتل منصبا رفيعاً . سيعمل هو في الدائرة نفسها التي يعمل فيها منافسه السعيد . ومن ثم سيسبقه في مضمار العمل بنشاطه ومثابرته ، ويغدو يوماً ما رئيساً عليه . وبصفته رئيساً سيكشف النقاب ذات مرة عن اخطاء لا تغتفر وقع فيها خصمه اللدود السابق ، ولا بد من أن هذا الاكتشاف سيقضي على مركزه في الدائرة ... والآن تأتي حبيبة الفؤاد القديمة ، وتتوسل إليه راكعة ان يرعى حرمة بعلها ، وان يعاود النظر في شأنه . فيعاهدها بأنه على استعداد ليبذل أقصى جهده لمحو آثار هذه القضية . ومن ثم يتنازل هو عن منصبه الرفيع ـ . إن الانتقام وعزة النفس المثلومة يلعبان دوراً جوهرياً في عالم احلام الخيال ، لكنهما لا يظهران ظهوراً مباشـراً ، انما ابتدعا لذاتيهما اشباعاً تحت ستار التخلي النبيل المترفع . هذا يلفت انتباهنا الى سمة هامة من سمات أحلام اليقظة ، فبعضها لايسهل فهمها ببساطة ، خاصة حين يدور الأمر حول اشباع امنيات ورغبات ، لايدري الحالم ذاته بها ، ولا يستجلي مكنوناتها ، فيكون الاشباع عند ئذ إشباعاً غامضاً مستتراً حتماً ويحتاج الى تفسير لايضاحه .

وفق ما قيل حتى الآن ، يحسب المرء ، أن ظلام اليقظة بأجمعها لاتتضمن سوى ما يرضى ، ويستساغ . ان هذا الرأي يتناسب ومعظم أحلام اليقظة ،لكنه لايشملها جميعاً . ونتساءل ، كيف يكون هذا ممكناً ، مع أن حلم اليقظة يعني

في الواقع ، طريقة مريحة لتحقيق الأمنيات ؟ هنا علينا أن نضع نصب أعيننا ، وجود ضروب من اشباع للدوافع ، لا يتم إلا على طريق ملتوية غير مباشرة عبر جسر من الألم . ان الشعور باللذة من خلال الألم يسمى في ميدان الحياة الجنسية « مازوخية » ؟ إلا ان هناك ظاهرات شبيهة بهذه أيضاً تظهر خارج نطاق الحياة الجنسية الفعلية ، أما لأن الدوافع الجنسية لها شأن وقيمة في مجالات أخرى ، غير المجالات الجنسية الصرفة ؛ وأما لأن الشعور بالذنب ، المغروس في أعماق النفس البشرية ، يطالب باشباعه عن طريق التألم .

ان أحلام اليقظة تتشابه واعمال الفن الشعري في نقاط عديدة ، ان الاعمال الشعرية تمثل ، كما هي الحال لدى أحلام اليقظة ، اشباعاً عن طريق عالم احلام الخيال ، اشباعاً يعتق من ربقة الواقع ويعوض من خيبات الأمل . فالمؤلفات الشعرية ، وخاصة تلك التي تتحلى بأرفع نمط فني ، كالمأساة مثلاً ، التي لا تتضمن أشياء سارة مبهجة ، بل تصطبغ بصبغة حزينة أليمة، والتي لا يستطيع المرء من الوهلة الأولى قراءة ما تخبئه من ميول محققة للاماني والرغبات المستترة ، بل تتحتم عليه تفسيرها تفسيراً عميقاً كي يدرك هذه الميول ، فلا يمكنها بعد الآن ، ووفق ماذكر آنفاً ، أن تعرضنا للوقوع مجدداً في الخطأ ، خطأ التأويل . وعكس هذا ؛ فهناك بعض نقاط أخرى تختلف فيها التحفة الشعرية عن احلام اليقظة اختلافاً شديداً . والآن سنبحث هذا الاختلاف :

بينما نجد بطل حلم اليقظة هو الحالم ذاته ، كما أكدنا سابقاً ، نجد أن الحالة في الواقع تختلف في خضم العمل الفني الشعري . ويسهل تبيان الفرق الحاصل من خلال حقيقة كون حلم اليقظة أمراً انانياً محضاً ، يتم عرضه من قبل انسان ولأجل هذا الانسان بالذات. أما التحفة الشعرية ، فعليها ، إذا أرادت أن تحمل مثل هذا اللقب ، أن تؤدي خدمة اجتماعية كبرى . وهذا يعني ، أن تكون جديرة باغداق

ما هو قيم ومهم في نفوس أناس عديدين ، ينتمون إلى مختلف الطبقات . ان حلم اليقظة يتطابق مع غايته تطابقاً تاماً ، اذا قدم اشباعاً لأمنيات مبدعة وحسب ، أما اذا تبع الفن الشعري مثل هذه المباديء ، فيكون قد حاد عن غايته المرجوة كلياً . فما يهم زيداً أو عمراً ، اذا نال قبس الجائزة الأولى في اليانصيب ، او غدا رجلاً سياسياً لامعاً ، أو مهندساً ذائع الصيت ! على العمل الفني الشعري ، ابعد من هذا ، ان يكون ناهضاً على شكل ، لا يكترث الى تحقيق امنيات لصيقة بشخص الشاعر ومحاكاة افرد واحد ، انما يحل مكانها امنيات اخرى تتاق الى تحقيقها . كيف يصح التفكير في مثل هذه الحادثة ، على الرغم من ان للاشخاص، الذين في وسعهم صب احلام خيالهم في قوالب شعرية ، اي للشعراء ، عالم امنياتهم الشخصية وشهواتهم الفردية كذلك ، وهم بالتأكيد يجرون خلف حاجتهم لاشباع رغباتهم الخاصة ؟

سنعاود البحث في هذه النقطة ، لكن علينا قبلاً ان نلفت انتباهنا شطر اختلاف كامن بين حلم اليقظةوالعمل الفني . ان حلم اليقظة يفتقر في كثير او قليل ، إلى الشكل ، فأحياناً يتكون من مشهد واحد او من لوحة وحسب ، لكنه كذلك هناك ينجلي حيث ينطوي على قصص كاملة متواصلة . لا تكمن النقطة الهامة في بنية وحبك اجزاء القصة مع بعضها ، انما في تلك الأجزاء التي تضم بين جنبها لذة مباشرة . فالسؤال عن حسن تلاحم احلام الخيال هذه فيما بينها ، او السؤال عن شرعية المواقف وصحتها ، وتعليلها التعليل الوافي ، لا يعار الاهتمام الكافي .

ان وصف شكل احلام اليقظة لمن الصعوبة بمكان ، انه مزيج من كلمات وصور ، من سرد وحوار ، قد لايستوعبه شخص آخر ، غير الذي يحلم ذاته . وهنا يبدو لنا الطابع الأناني لحلم اليقظة مجدداً . إنه لايحتاج لطرق فهم خاصة ،

لأنه يكشف عن ذاته لمؤلفه كشفاً مباشراً ، ولا يحتاج الى جمال الشكل كي يثبت وجوده ، لأن الأمرمقتصر على المضمون . يتوجب على العمل الفني نهج سبل ثانية ، وفق المسؤولية الاجتماعية الملقاة على عاتقه ، عليه أن يثير اعجاب الكثيرين، ولهذا السبب عليه أن يكون مفهوماً من هؤلاء الكثيرين . علاوة على هذا ، عليه أن يرتدي شكلاً يستحوذ على مشاعر السامع ، ومشاركته الوجدانية ، من خلال القافية والنغم ، وجلاء التركيب نصاعته ووضوحه، وانسجام الاجزاء مع بعضها، ان صح القول . ان احلام اليقظة تمثل صعيداً مسبقاً نوماً ما للخلق الفني الشعري ، فيجب أن يماثل جوهرهذا الخلق عمليةصهر واستخراج معدن ثمين من كتلةحجرية . على حلم اليقظة أن يجتاز مرحلة طويلة وشاقة، عملية تحويل وتصفية في نفس الشاعر، نموتها النهائية العمل الفني – التحفة ومن شروط هذه الحادثة ، هو كون المادة ، التي تنزع النفس إلى صهرها – أي الأماني والرغبات التي يجعل منها تحقيق حلم اليقظة - ذات خاصية تتميز بطابع التجرد وعدم المنفعة الذاتية ، وبعواطف وآلام مصطبغة بصبغة انسانية ، يبادر كل امرىء إلى معاناتها بملء اختياره .

وقد أظهر التحليل النفسي ، بأنه يوجد أيضاً ، إلى جانب عالم الاشواق والرغبات المختلفة ، المتنوعة وفق خبرات الفرد الانساني وحاجياته عالم آخر ينبع من أعمق أعماق الحياة النفسية ، مشكلاً في الوقت ذاته ترسبات من زمن سحيق ، كانت فيه تلك الفروق الشخصية غير ناضجة بعد . لا يهون مطلقاً تسرب معلومات من هذا الجزء من الحياة النفسية ، لأنه محجوز حجزاً تاماً عن شعور الفرد . ومدار الأمر هو تلك الدوافع والرغبات ، التي هي ليست واهية باهتة مطلقاً ، بل على النقيض من ذلك تفوق الدوافع الباقية قوة وعاطفة . بما أن هذه الدوافع اكثر اصالة من تلك التي تيسر النظم الاجتماعية والعادات السائدة السماح باشباعها ، وبما أنها تعود إلى صعيد حضاري سابق ، أو إلى مرحلة الطفولة بسنيها المبكرة جداً ،

فهي تهجع ، في اللاشعور ، مبتعدة عن مصافحة الأنا ، انها ماثلة فينا بقواها القديمة، دون أن يكون في وسعنا معرفتها والشعور بها . ان الحاجز الذي يفصلها عن الشعور يؤمن عدم سيطرتها علينا ، وعدم وضع الأشياء المحظورة التي تطالب بها ، موضع التنفيذ .

كيف استطعنا أن نعلم شيئاً ما من وجود مثل هـذه المنطقة اللاواعية الخفية ؟ ان فرصة التعرف عليها تقدمها لنا بعض حالات نفسية شاذة ، ينعتق فيها اللاوعي من عقاله ، ويغدو في مقدرته السيطرة على الشعور ، كما هي الحال ابان نشوء الامراض العقلية والنفسية كالهذيان وماشابهه . وهناك فرص أخرى سانحة ، لاتنحصر في الحالات المرضية فقط ، هي سيطرة تلك الدوافع أثناء النوم ، هذه السيطرة التي يدركها كل منا على شكل حلم . ان الحلم يعمل على اشباع رغبات لاواعية عن طريق العالم الخيالي ، كمابين فرويد . كذلك في حالة النوم ،لاتستطيع هذه الرغبات الوصول إلى نور الشعور ، عالم تتقنع وتكتسي قبلا جميع أنواع الاقنعة والازياء التمويهية الممكنة . هذا يجعل أحياناً الحلم يبدو تافهاً وعقيماً . ان طرق التفسير التي أوجدها فرويد ، مهدت السبيل كي نكشف خلف اللامعنى الظاهر المعنى المستتر ، غير المشعور به . كما هي الحال في الحلم كذلك شأن العديد من أحلام اليقظة ، فهي من أعمال الخيال ، الذي يوهمنا باشباع الرغبات الواعية واللاواعية . إلا أن الرغبات الواعية لاتحتاج إلى تفسير ، بينما نجد أن الرغبات اللاواعية تقبع في الخلفية ، كما يحدث في الحلم ولايسمح لها باداء دورها إلا في زي تنكري . إن العمل الفني اذن ، يعتمد في ابداعه ، على المحتوى اللاواعي الكامن في أحلام اليقظة ، متخذاً نقطة انطلاقه من أحاسيس قد لايعرفها الشاعر ذاته .

هذا يبدو للوهلة الأولى زعماً فريداً من نوعه ، وقد يدعو إلى التناقض ، إلا أن حقيقة ماقيل حتى الآن تثبته الخبرة. إن الفنانين أنفسهم ، وجميع الباحثين،

الذين اهتموا بدراسة طبيعة حادثة الخلق الفني ، اتفقوا بالاجماع مؤكدين ، ان النواة الحقة للعمل الفني لا تنطلق أبداً من القصد الواعي للشاعر ومن عمله الذي يحامره . ان كل عمل فني يستلزم التربة الأم الحقة التي فيها ينمو ويترعرع: الوحي والالهام . يكمن أثر الوحي في أن يطفو فجأة ، ودون انتظار من قبل الشاعر ، شيء جديد مبتكر على صفحة شعوره. ان لحظة الظهور الفجائي من أعماق الذات، هذه اللحظة التي كانت غريبة عن الفنان ، هي البرهة الخلاقة المبدعة حقاً . وكل شيء يأتي بعدها ، ليس سوى تكملة لما كانت قد أغدقته لحظات الوحي تلك ، سواء أكان ذلك الأغداق متمثلاً في الانسجام والوزن واللحن وتلاؤم الألوان ، أو متمثلاً في استيعاب صميمي لصيغة من الصيغ .ان هذه الحادثة ، التي تفتقر كل الافتقار إلى الايضاح من وجهة نظر الشعور ، والتي تبقى غارقة في الالغازبالنسبة للفنان ذاته ،تضمن لنا ، بأننا لا نسير على طرق مظللة ، إذا ارتأينا قبول الفكرة القائلة ، انالنبع ، الذي يتدفق الخلق الفني من أعماقه . ينبعث من الحياة النفسية اللاواعية للانسان . ومن مميزات الفنان القدرة على سماع لغة اللاشعور ، بعيداً عن حيز الشعور . ويتحلى بهذه الميزة ، كما يبدو ، قليل من الناس .

وهناك اختلاف آخر ماثل بين أحلام اليقظة والشعر ، سنوضحه فيما يلي : ان المطلق العنان لخياله في أحلام اليقظة ، يضع نفسه موضع البطل في مركزدائرة الحوادث بسماته الشخصية ذاتها . أما بطل العمل الشعري فلا يتماثل مع الشاعر ، على الرغم من أن تحدر الشعر من علم اليقظة ، يكشف غالباً أمره . من جراء بروز سمة أو أخرى لبطل القصيدة الشعرية . هذه السمة تذكر بالشاعر ذاته ، وبحياته النفسية الواعية أيضاً . على أي حـــال ، على الشاعر أن يدفع بالأمور التي تهمه شخصياً بعيـداً ، بحيث يكون في وسع الأشخاص والحوادث ايقاظ الاهتمام الانساني ،حتى في قلوب أولئك ، الذي يقفون وقفة اللامبالاة من شخص الشاعر .

هكذا نجد غوته مثلاً ، قد تعرض في مؤلفه « فاوست » وكذلك في « تاسو » إلى وصف أجزاء من شخصيته ذاتها ومعاناته وتجاربه ، ولكن بطريقة تبرز ماهو حقيقي انساني ، وما يخضع للشمولية .

يبقى سؤال يحتاج إلى الاجابة وهو في غاية الصعوبة . لقد أعرنا اهتمامنا حتى الآن وجهة البحث في مادة الاعمال الفنية ، بينما كنا قد لاحظنا سابقاً ، بأن الشكل يكشف عن الاختلاف الحقيقي الماثل بين العمل الفني وحلم اليقظة . من صفات العمل الفني الجمال . وهذا يعني ، يجب على العمل الفني أن يسكب ما يود وصفه في شكل يغري القارىء أو السامع . لا يجوز اختيار الشكل اختياراً اعتباطياً ، ولا يمكن أن يستهدف ببساطة عن طريق محاكاة تكوين ما رائع يثير الاعجاب ، مع غض النظر عن المعنى ، عن المادة . هــــذه الطريقة يتبعها عادة الطلاب والهواة ليس إلا . من دلائل الفنان الحق خلق الشكل للمحتوى ، خلق المبنى الجديد الكلي الاصالة للمعنى الجديد ، خلقاً مستمراً ان الشعور بالرضى والاعجاب ، الذي يبعثه الجمال الكامن في العمل الادبي ، يثبت وجوده من خلال مميزات خارجية وداخلية ، من خلال اثارات تداعب الاذن فقط ، كالوزن الغني بالتنوعات ، والقافية ذات الجرس المستساغ ، أو تلك الاثارات التي تمثل مباشرة أمام الروح ، كالاستعمال الملائم للمغالاة والتوتر والتشويق ، التي تأخذ بمجامع الفؤاد وتسحر لب السامع ، وتحمله حتى قمة التأثير . ان هذه الأمور مجهولة تماماً بالنسبة لحلم اليقظة . على الشاعر أن يمتلك قدرة معينة لخلق هذه الاشكال واستخدامها كي يميز بينه وبين حالم أحلام اليقظة . لاشك أن معظم هذه القدرات تعود إلى موهبة فطرية لا نعرف عن حقيقتها إلا النزر اليسير ، الذي يقدمه لنا الصعيد العلمي الحالي لعلم الوراثة . إلى جانب مشكلة المواهب الوراثية ، التي سوف لا نبحثها في هذا المقام ، نتعرض لمسألة أخرى يصح أن نهتم بها .

ما الذي يدفع بالشاعر ليتكبد عناء لا محدوداً . كي يضفي على مادة ما، على موضوع ما ، وشاحاً من الجمال الرائع باعثاً الحياة في تحفة فنية ؟ من السهل الاجابة عن هـــذا السؤال ، إذا اعتبرنا كتابة الفن مهنة من المهن ، يبذل المرء جهده كي ينال أجراً يستمتع به لقاء عمله . يوجد أيضاً مثل هذا الاجر للشاعر ، إما على شكل إيرادات يحصل عليها من نشر مؤلفاته ، واما على شكل ثناءواطراء وشهرة ، تغدق عليه من قبل المعجبين بفنه . إلا أننا نعلم العلم اليقين ، بأن الشعراء العظام ، والفنانين بصورة عامة ، لم يبدعوا انتاجهم من أجل الحصول على الدرهم الرنان ، لا ولا كي يلقوا ضروب التبجيل والشهرة وكلمات الاستحسان والاعجاب ، ذلك لان العظام بينهم قضوا حياتهم كلها في التأليف ، على الرغم من أنه كان في مقدورهم حصدتصفيق معاصريهم بطريقة أكثر سهولة وأضمن مسلكاً . وهكذا علينا أن نفترض وجود دافع ينبعث من ذات الشاعر ، ويحمله على اسباغ الجمال على مؤلفه . وأما . الالتفاتة إلى ألوان التمجيد والاستحسان والنجاحات البارزة . فتحتل مكانة ثانوية ليس إلا .

كي نسبرغور هذا الدافع ، هذا الشوق الملح للنظم ، علينا ألا ننسى أن كلمات الشاعر هي جزء لا يتجزأ من اناه ، وربما هي اثمن واعز واهم جزء لديه . غالباً ما تقارن هذه العلاقة بعلاقة الام بطفلها ، ففعل الخلق الفني شبيه بعملية الولادة . ان كل انسان مطبوع على حب الجمال ، ودافع حب الجمال ، لايعني في نهاية المطاف ، سوى الرغبة في ان يكون موضوعاً للحب ، لا لشيء سوى لذاته . ان هذه الرغبةالتي اطلق عليها علماء التحليل النفسي اسم «النرجسية » تعودجذورها إلى مرحلة مبكرة جداً من مراحل نمو نفس الطفل ، وتمثل هذه الرغبة النرجسية مكان الصدارة في هـــذه المرحلة ، وفي غضون النمو اللاحق تتنازل عن سيطرتها الشاملة على الشعور الانساني لتشترك مـــع رغبات اخرى في السيطرة ،

إلا أنها تحتفظ بدورها القديم في ميدان اللاشعور . وبالنسبة للشاعر ، الذي تقوم بينه وبين عالم اللاشعور صلة وثيقة ، صلة أعمق مما يدور في خلد الانسان العادي ، نجد أيضاً أن النرجسية تلعب دوراً بالغ الاهمية ، يفوق المستوى العام . لاشك أن النرجسية لايمكنها الآن التعبير عن ذاتها مباشرة ، عن طريق الاعجاب الذاتي الصادر عن الطفل ، لكن في وسعها أن تقتحم مجالاً وتتغلب عليه ، اذا راق لها ازاحة موضوعها : فتنتصب من مؤلفات الفنان ، التي تشكل جزءاً من شخصه ، موضوعاً ، بدلاً من شخص الفنان ذاته . هكذا يمكننا ألقاء ضوء على الدافع الذي يحرك مشاعر الشاعر ، ان كل ماجاش في صدره من رغبات غير مشبعة ، وكل خيبات أمله المتحطمة على صخرة الواقع ، نجده متحققا في ابياته . وعندما يصب الشاعر أمانيه ورغباته في قوالب شعرية ، انما يسكب حبه النرجسي في تلك الصيغ والاشكال ، إلا أنه يساهم بهذا الصنيع في اشباع أشواق سائدة وارواء نفوس متعطشة ، ويخدم اهدافاً حضارية تتمتع بقيم رفيعة . انه هو على اتم الاستعداد لان يعيش في ظلمة النسيان ، شرط أن تغدو مؤلفاته موضع اعجاب وتقدير ، ومركز حب ، لتلك الروح الجمالية التي تسربلها .



بنية الأنا

د . فرانتز الكساندر

بعد البحث العلمي في مجال الشخصية من العلوم الفتية ، فمنذ زمن ليس بالبعيد كان علم النفس المدرسي يصف حوادث نفسية مفردة ليس إلا ، بعد ان يعزلها عزلاً تاماً عن علاقتها بالانا ككل ، كالادراك الحسي والتذكر وبعض حوادث التفكير الاخرى . لا ينكر ان محاولة تطبيق طرائق علم الفيزياء ، كالقياس والتجربة (علم النفس التجريبي) ادى الى اكتشاف قوانين معينة في ميدان الادراك الحسي ، إلا انه لم يضمن اي اطلاع واسع المدى على علاقة الحوادث النفسية ببعضها البعض ، ولم تفلح الطريقة الثانية ، ألا وهي طريقة التأمل الذاتي (الاستبطان) ، اكثر من ان تكون وصفاً فظاً فجاً لمحتويات الشعور في لغة علمية ثقيلة الوطأة . ولم تفتح هذه الطريقة بأي شكل من الاشكال باب الامكان لاستيعاب الحادثة النفسية كتعبيرات ناجمة عن شخصية متماسكة ذات علاقات موحدة . وهكذا بقي تفهم الصلات الواقعية في حياة النفس الانسانية، مدة لابأس بها ، في حوزة الاستيعاب الشاعري ، الاستبصار .

لقد استحقت « البسيكولوجيا » لقبها كعلم نفس ، منذ ان طالعتنا اكتشافات فرويد الأساسية . انه ، دون ادنى شك ، قد حاز على قصب السبق في مضمار البحث عن محتوى الحوادث النفسية ، معتمداً في ذلك طريقة نفسية حقة . كان علم النفس المدرسي قبله يستخدم التجريد ، مميزاً بين المفاهيم والتصورات

والادراكات والعواطف ، اما هو فقد حاول سبرغور المحتويات النفسية الواقعية، فمثله مثل مراقب ، ساذج وغير متميز ، يفهم ويشـــير الى المحتويات النفسية ، بشكل يماثل الطريقة ، التي قد نتبعها جميعاً ، اذا اردنا ان ندرك كنه الرغبات وغبط الشام عن البواعث القابعة في نفوس الآخرين ، إلا ان فرويد سلك منهجاً علمياً دقيقاً ، ويمكن القول ، إنه اول عالم نفسي يمارس علم النفس دون منازع .

يكمن اكتشاف فرويد الأسامي في تبيانه أن الشخصية العقلية في الفرد البشري لاتتسم بطابع موحد . أو بتعبير آخر ، أنه في داخلنا إزاء الحوادث النفسية الواعية ، بواعث ورغبات ونزعات غريزية فعالة لانعلم بها مطلقاً ، او على الاقل لانعلم بها دائماً ، فغالباً لانشعربها،وخاصة إبان فعاليتها. بادىء الأمراظهرت الدراسات حول المحتويات النفسية اللاشعورية وفق الطريقة التحليلية النفسية صفة عامة : فالميول والرغبات والأفكار ، التي لاتوافق الشخصية الشعورية ، تغدو غير مشعور بها ، وبالتالي ترفض رفضاً كلياً ، لكونها لااخلاقية لااجتماعية لاجمالـــة (تناقض معنى الجمال) ؛ ان الشعور عادة لايعيها ، امااذا ولجت إلى حيزالشعور لفترة من الزمن ، فتنضغط مجدداً وتزاح إلى اللاشعور . لذلك فان التقسيم الثنائي الأولية الشخصية يكمن في التمييز بين الحوادث النفسية القدرية والحوادثالنفسية اللاشعورية . ان اللاوعي يفترض وجود تفاعل مضاد للطاقات النفسية ، هذا يعني وجود حادثة ديناميكية تدعى الكبت ، هكذا يقود البحث الدقيق في الكبت إلى افق معرفة جديدة اساسية .

يعود نجاح عملية الكبت إلى أن الرغبات والنزعات الماثلة في داخلنا ، ليس لايلبي نداؤها كي نشبع اذا ماقمنا باعمال موافقة فحسب ، بل ان نجاحهذه العملية يكمن في أن هذهالنزعات تهجع فيدائرة اللاوعي ، بحيث لايشعر بها . ومن ناحية ثانية ، يتراءى لنا غالباً ، أن بعض الرغبات والميول ، التي نشعر بها أيضاً ،

قد لاتخرج إلى نطاق التحقيق، وتحول دون اشباعها (مثلاً أود الذهاب الى المسرح هذا المساء، إلا انني لا استطيع لأنه علي ان اقوم بامور اكثر اهمية) ، ان مثل هذه الرغبة (الذهاب إلى المسرح) لاتحتاج لأن تزاح وتكبت ، حتى ولو رفضت من الوجهة الاخلاقية او الجمالية ، اي لاسباب عاطفية ، انها لاتتناقض والشخصية الخلقية . في هذه الحالة يحسن التحدث عن تخل شعوري او عن حكم واعٍ . اما عن الكبت فيحسن التحدث فقط ، عندما يستبعد وصول الرغبة إلى ساحة الشعور استبعاداً كليا .

ان التمييز القائم بين الكبت وبين التخلي الشعوري يرغم بأخذ فرضية تقول بوجود جزء من أجزاء النفس يعمل لا شعورياً ، وتنحصر مهمته في ابعاد الرغبات والميول من ساحة الشعور وفق وجهات النظر الاخلاقية والجمالية المذكورة آنفاً . وبما أن هذا الجزء يتمتع بفعالية تماثل محكمة ذات درجة عليا ، وعي درجة الكبت العليا. ان درجة الكبت العليا هذه ، الالحاح ، تشبه الضمير بعض الشيء ، كلاهما يكيل المدح والذم ، وكلاهما يردع ويأمر ؛ إلا اننا لا نعي الامر والردع في مجال الكبت ، بينما نعي ما يجول في ضميرنا تمام الوعي . وهناك صلة وثيقة بين الضمير الشعوري والضمير اللاشعوري ، الواقع في خدمة الرقابة ، وهي ان الالحاحات النفسية لكليهما تتداخل وتتشعب ، وتنتمي إلى انانا وفق عاطفتنا الداخلية . ان هذا الجزء من الانا يدعى الانا ـ المثالي او الانا الاعلى .

تقودنا هذه المعارف إلى تقسيم ثلاثي للحياة العقلية كما سنرى . اولاً يتجلى لنا « الانا » على انه الجانب الشعوري الظاهر من الشخصية ، في معناه الحصري ، وهو يتلقى الادراكات من العالم الخارجي من جهة ، والادراكات الباطنية ايضاً كالانفعالات والرغبات والميول من جهة ثانية ، اذا ما استطاعت هذه الادراكات الاخيرة العبور من رقابة الانا ـ الاعلى . من هنا وجب علينا وضع نقاط التمايز بين

الانا والانا ـ الاعلى . فالانا ـ الاعلى يهيمن على الدوافع والميول ، النابعة من اللاشعور ، والتي تدفع الذات للقيام لمختلف الاعمال والتصرفات ، فهو الذي يؤيد عبور جزء منها إلى الشعور وفق وجهات النظر السائدة في البيئة الاجتماعية (هذا يعني السؤال عما اذا اعتبرت هذه الامور صالحة ومشروعة ، او على الاقل ، إذا كانت تتوافق مع المثل العليا توافقاً جزئياً بالنسبة لمن انسجم مع المجتمع) او يستبعد الجزء الآخر عن ساحة الشعور (الكبت) . ويوجد أخيراً ، في كل منا ، عالم امنيات ودوافع يفتقر الى الشعور ، ويتكون من نزعات بدائية ثانوية غير متلائمة بعد مع مطالب المجتمع . وقد اطلق فرويد اسم الهو على هذه المنطقة الاحتياطية الديناميكية في النفس ، حيث تسود الفوضى ، وحيث نجد أن الرغبات والنزعات والدوافع الاصلية المفعمة بالتناقضات ، لم تنسجم بعد لتشكل شخصية ما موحدة .

في استطاعتنا عرض العمل المشترك المتبادل لعناصر النفس الثلاثة على النحو التالي : ان المهمة الفعالة للأنا تكمن في امتحان الواقع ، في الدرجة الاولى ، هذا يعني في مراقبة العالم الخارجي والبحث النقدي ، عما اذا كانت هذه المعطيات تتلاءم مع ما نريد أن نحققه ، وعن مدى أبعاد هذا التحقيق ، ان ثمرة هذه الدالة هو الاطلاع على العالم الخارجي. وهكذا فان الانا يملك عضو مراقبة ، يدرك ما يقع خارجاً على الأخص ، إلا انه يسيطر ايضاً على تهييج عضلاتنا ، اي على تصرفاتنا بواسطة الارادة . نستنتج بما تقدم ، ان مهمة الأنا تنحصر في تكوين الانسجام بين الدوافع والرغبات الصاعدة من اللاشعور، وبين الامكانات والصعوبات ، التي تقف حائلاً من قبل العالم الخارجي ، دون تحقيق هذا الانسجام . على الأنا بذل قصارى جهده لاشباع مطالب الفرد البشري قدر الامكان (تؤخذ بعين الاعتبار الظروف الواقعية) .

يتميز الانا ـ الاعلى بكونه عضو ادراك باطني ، فكما ان الأنا يسيطر على التصرفات ، كذلك الأنا ـ الاعلى يسيطر على عملية الشعور بالدوافع والرغبات، فهو يحرر الانا من عبء التسوية الفظة لرغبات الهو ولعالم الامنيات ، محاولاً منع جزء كبير منها (خاصة تلك التي لا تجدي فتيلاً سالفاً) ، لان محتواها يتنافى والحياة العامة) من الوصول إلى الانا الواعية . وفي مقدورنا اعتبار الانا ـ الاعلى كجزء مفصوم عن الانا ، يخضع له التنظيم الداخلي للدوافع والرغبات . اماتلاؤم الرغبات . التي اضحت في حيز الشعور ، مع المواقف والظروف الواقعية ، فملقى على عاتق الانا .

يعد الهو مركز طاقة هائلة في النفس . منه تنبع اصلاً كل حوافزنا ورغباتنا ودوافعنا ، التي يطرأ عليها التعديل ، أول ما يطرأ ، كي تنسجم مع الواقع الحياتي ، من خلال النشاط الصادر عن الانا والانا ـ الاعلى .

ومن الصعوبة بمكان ، ايضاح العلاقات القائمة بين الانا والانا ـ الاعلى . إن الانا ـ الاعلى نفسها تمتلك نبعاً من القوة والسيطرة على منطقة الهو ، متابعة بسط نفوذها على ساحة الشعور ، فالاناهو أبداً تحت تأثير الانا ـ الاعلى . مع ان قسطاً من الرغبات يزاح عن مجال الأنا تحت تأثير الكبت ، إلا ان المحتويات النفسية الشعورية تحكم وتقدر كذلك بموجب المبادىء الخلقية الماثلة في الانا ـ الاعلى .

ان البحث حول العناصر المكونة للنفس ، وبصورة خاصة منطقة الانا ـ الاعلى ، المعتمد على التطور الزمني (النشوئي) ، يفسح لنا المجال كي نشاهد بوضوح التركيب المعقد للشخصية بأكمله .

بناء على النشوء الزمني تعتبر الانا ـ الاعلى ـ كمنطقة رازحة تحت شروط المجتمع ـ احدث عهداً من العناصر الباقية المكونة للنفس. انها من نتائج الثقافة ،.

انها ثمرة التربية . وتلك القواعد الخلقية النابعة من الصميم والتي دعاها كنط الأمر المطلق - ويعني كنط « بالأمر المطلق» صوت الضمير المنطلق من داخلنا ، المميز بين الخير والشر ، وحسب رأيه فان حكم الضمير أو تصميمه النهائي تتسم بالصحة الكابـــة وبالضرورة ، كما هو الامر بالنسبة للأحكام المنطقية ، اذن ما لا يمكن تعليله ، ثابتاً ومطلقاً - تلك القواعد لا نجدها لدى الطفل في السنوات الاولى من عمره . ان حياة الطفل النفسية لا تتبلور وتنظم إلا حسب وصايا المربين الآمرة الناهية . وشيئاً فشيئاً يغدو صوت الأهل الخارجي صوت الضمير الداخلي . من هنا يلاحظ أن أوجه الشبه الكائنة بين الشـــعوب البدائية المتوحشة والشعوب المتحضرة تماثل وأوجه الشبه الكائنة بين علاقة الطفل ومربيه . ان إشباع رغبات معينة ، كالفسق بذوي القربى مثلاً ، يحظر تحظيراً كلياً بمقتضى قوانين خارجية ، تفرض ذاتها فرضاً مرغماً صارماً ، ويشعر بها تدريجياً كتحريم داخلي إلزامي لامفر منه (تابو) والحواجز الداخلية ، الكامنة في نفس الانسان المتمدن ، تقف حائلاً ليس فقط دون تنفيذ مثل هـذه الرغبات والنزعات ، بل وايضاً دون الشعور بها ووعيها ؛ وهكذا يمثل الأنا - الأعلى كتاب شرائع ضمني ، قـــد قبلته الشخصية الانسانية ، ويمكن القول ان التعليمات الخارجية آلت الى طابـع ثان من جراء تبني الشخصية لها والعمل بها ، ولهـذا غدا الأنا - الأعلى مع مرور الزمن جهازاً آلياً ، ومن ثم سدت المنافذ لمثول هذه التعليمات أمام الحـكم الواعي ، فهي إزاء التمعن والرأي ، الذي قد يناهضها في المستقبل صامدة لاتلين . وهي تدين لفعاليتها الفجائية الصارمة بالشكر لعملية الحصر أو الكف. ويجدر بالذكر أن هذاالطابع الراسـخ والمنيع الذي تتحلى به المبادىء الخلقية ، كان السبب في قول كنط بقبليتها (Apriori) واعتبـارها كقوانين التفكير في المنطـق . أما التـأويل النشوئي ، أي التأويل المبني على أساس تاريخ التطور ، فيظهر أن القوانين المنطقية

قد نشأت من التلاؤم مع الواقع (العالم الخارجي، القوانين الطبيعية) ، والقوانين الخلقية نشأت من التلاؤم مع الضرورات الاجتماعية . ومن السهل استيعاب ثبات وصرامة هذه القوانين لأنها تمثل الشروط الأساسية في الحياة الانسانية المشتركة ، في تكوين دعائم المجتمع .

ومن الممكن أيضاً تفسير لاشعورية هذه القوانين ، أو على الأقل تطبيقها اللاشعوري ، اذ انها ليست بحاجة إلى الحكم الواعي ، إلى التمعن المستقصي ، ان استعمالها يتم بشكل أعمى ، لأن هذه القوانين ابداً ، وفي جميع الحالات ، سارية المفعول ، طالما يبقى ذلك البنيان الاجتماعي ، التي صدرت عنه ، قائماً على قدم وساق واذا طرأ تغيير ما على العلاقات الخارجية ، بصورة لاتتلائم مطلقاً والاوضاع الجديدة ، عندئذفقط لابد من وضع تلك القوانين موضع التمحيص وتغييرها، لكن مادامت هي سارية المفعول ، فتطبيقها الاعمى يجلب المنفعة ، لانها تضمن أولاً فجائية التأثير ويخفف الشعور ثانياً قسطاً وافراً من عبء واجبه ، المتجه نحو الداخل والقائم على تنظيم عالم الدوافع وتنسيقه ، وهكذا يصبح الشعور اكثر استجابة لواجبه ، المتجه نحو الخارج ، والمنحصر في امتحان الواقع .

يمكن معرفة دالة (وظيفة) وطبع (جوهر) الأنا ـ الأعلى من خلال التغييرات المرضية التي تطرأ عليها، كما يحدث غالباً في تاريخ العلوم . يلعب نشاط الأنا ـ الاعلى الشاذ لدى المصابين بأمراض عصبية دوراً هاماً ، فقد تصبح تلك الخصائص ، الكامنة في الأنا ـ الاعلى ، والتي تضمن عملاً رادعاً كافياً مصدراً لوقوع أمراض نفسية تحت تأثير المغالاة . ان معاناة الأنا ـ الاعلى القصوى ، ونشاطه الهادف إلى كبت يتجاوز الحدود ويتفاقم ـ اذ إنه في هذه الحالة ، يقف حائلاً دون اشباع الرغبات والميول التي يقررها الحكم الشعوري ـ يؤديان إلى تكتل دوافع ، تسلك عند ذلك سبيلاً ، وتظهر في نتائج ، تتصف بالصفة المرضية النفسية .

فاعراض المرض النفسي ليست سوى عبارة عن محاولة لازاحة عبء الدوافع المتراكمة بعامل الكبت الذي بلغ الزبى .

تبرز في السواد الاعظم من المجتمعات المتحضرة في عصرنا الحالي دلائل مرضية عامة من السير وفق المبادىء الاخلاقية الصارمة للأنا ـ الاعلى فيما يخص الجنس ، فالميل الجنسي باكمله ينظر اليه نظرة عدائية سيئة ، ولايسمح باشباعه إلا ضمن شروط معينة ، فلا توجه تلك النظرة فقط إلى تلك الرغبات المشينة نحو الاهل في عهد الطفولة ، والتي تغير مجراها المهام الرئيسية للأنا ـ الاعلى . من هنا يتضح ، أن الميل الجنسي ، المحيط بعامل الكبت المفرط ، يشكل غالباً اعراضاً مرضية عصبية ، حينما يتوق إلى الانعتاق والتحرر . هنا يكمن السبب أيضاً في أن الجنس يصطبغ باهمية كبيرة عند نشوء مثل هذه الأمراض . قد يلازم التحليل النفسي ، في أكثر الاحيان ، لأنه يبالغ في شأن البواعث النفسية في شرحه لحالات النفس المريضة. ان هذا اللوم يقع على كاهل المجتمع ، وينتصب ضد اخلاقه الجنسية ذاتها ، الصارمة والزائفة . ان الدور المفرط للجنس ابان وقوع أمراض نفسية ، ليس سوى نتيجة للكبت الجنسي المفرط .

من ناحية أخرى ، فان مساعينا الثقافية برمتها ، تدين بالشكر لعملية الكبت الطبيعية في الأنا ـ الاعلى . ان نشاط الانا ـ الاعلى ، القائم في الحيلولة دون اشباع ميول لاأخلاقية معينة ، يرغم مثل هذه الميول على الانسجام والتلاؤم مع المتطابات التي يقرها المجتمع (التصعيد) ، خاصة وأن هنالك ميولاً عدوانية وجنسية يطرأ عليها التعديل على ذلك النحو ، تحت ضغط الانا - الاعلى ، فتغدو صالحة لخدمة المجتمع . فالاقتصاد والفن والعلم والدين ، ثمرات ذلك التصعيد ، ليست في الاصل سوى دوافع ونزعات قد تمعت لصبغتها اللااخلاقية .

ان تكيفنا وسلوكنا ازاء العالم الخارجي على وجه العموم وجميع تصرفاتنا ،

تنشأ من التفاعل المتبادل المشترك الصادر عن عناصر الشخصية العقلية الثلاثة. ويشير السلوك النموذجي في الحياة، ونمط الانجاز النموذجي للميول والرغبات والحاجات، إلى خصائص معينة تتجلى في الطبع. ويمكن القاء ضوء على النماذج المختلفة للطباع من خلال المقاييس المتباينة التي بموجبها، تكشف ميول العناصر الثلاثة المكونة للشخصية والموصوفة آنفاً، عن تصرفاتنا. وفي مقدورنا، بانطلاقنا من وجهة النظر هذه في علم تحليل البنية النفسي (نظرية الذات أو الأنا) تمييز نماذج الطباع التالية :

١ - الطبع المنحرف الاجرامي

هذا الطبع، يكشف، في معظم الأحيان، عن طاقة خلقية ضئيلة في حالة القمع، ناتجة عن تربية ناقصة أو خاطئة. ويلاحظ أن النزعات، التي تتنافى والمجتمع، والتي تلج من قبل الانا - الاعلى لدى الانسان السوي، لاتكتفي بغزو ساحة الشعور لديه، بل تقوده للقيام باعمال مجرمة. ومن المستحسن اجراء تربية لاحقة واعية (رعاية اجتماعية) لمثل هذه الفئة، غايتها تشجيع تكوين صحيح للانا - الاعلى - المثالي.

٢ - الطبع العصبي أو الغريزي

يتسم بالطبع العصبي أو الغريزي طائفة من الاشخاص، قد خضعت تصرفاتهم وخضع سلوكهم الحياتي لطاقة نزعات لاشعورية، أفلتت من قيد الرقابة الخلقية، وهي على الرغم من ذلك، لا تلبث أن تبوح بوجود الحاح اخلاقي خلال شعور بالذنب جلي، لكن غالباً ما يقتصر الامر على حاجة لاشعورية لعقاب

الذات . هؤلاء لا يستطيعون فرض موقفهم الشخصي الخلقي الواعي في معترك الحياة ، لكنهم يشعرون بتيار فعلهم الغريزي المتعارض مع الاوضاع الاجتماعية ، فيقفون منه ، في مجال الشعور ، موقفاً سلبياً منكراً . مما تقدم نستنتج أنهم اناس قد وهنت عزيمتهم وضعفت ارادتهم . فغالباً ما ينطوي قـدر هؤلاء على ظلال مأساوية ، اذ يسيئون إلى أنفسهم بأنفسهم ، بصورة عفوية وبقصد مبهم ، تحت وطأة الشعور بالذنب (الضمير السيء) ، كأني بهم يودون انزال العقوبات على ذواتهم لتصرفاتهم الغريزية . هذا الميل ـ الاساءة الى الذات ـ في بعض تصرفاتهم ، ناتج عن الجزء الخلقي من الشخصية (الانا ـ الاعلى) الذي يشعر شعوراً حيوياً تبعد هذه التصرفات الغريزية عن المجال الأخلاقي ، فيشبع حاجاته الاخلاقيـة عن طريق العقوبات (التصرفات المضرة بالذات) . هكذا يلاحظ أن هؤلاء يقولون باعمال غريزية تتنافى والبيئة الاجتماعية متسربة من قبضة الرقابة (لكن يلاحظ ، أنهم يقومون في الوقت نفسه أيضاً بتصرفات تعرض مصالحم الذاتية ، وحتى وجودهم ذاته للخطر . بناء عليـه ، فهم في الوقت ذاته ، مجرمون وقضاة ، لقد انصهرت في بوتقة شخصهم صفة المجرم وصفة القاضـي . الى هذه الطائفة تنتمي نماذج مشهورة كالمقامر والمغامر والمنافق ، وقد تصطدم في نهاية المطاف بنهاية مفجعة تحت تأثير هذه النزعة الغامضة المستترة ، المصوبة نبالها ضد الذات ، والتي يسهل على المحلل النفسي سبر غورها والكشف عنها .

٣ ـ الطبع المثبط

يقابل الطائفـة الأولى ، ذات الطبـع الاجرامي ، الطائفـة ذات الطبـع المردوع المثبط ، الذي يؤدي الى الوقوع في أمراض عصبية . ان اشـخاص هـذه الطائفة يقعون تحت تأثـير الانا ـ الاعلى الشديد القسوة ، بحيث تروع وتشل

جميع أشغالهم وتصرفاتهم في معظم الأحيان ، إذ يتملكهم الاحساس بأنها ممنوعة محرمة فيكفون عن تنفيذها ، تحت وطأة الناقد الخلقي المترمت ، الأنا ـ الأعلى .

ان الأشخاص المقيدين نفسياً ، الغائصين في عالم الهوس الى أبعد الحدود ينتمون الى هذه الطائفة . وغالباً ما يميطون اللثام عن عالم يمور بالخيال ، قد نما فيهم فابدعوه بديلاً عن التصرفات الممنوعة والتخلي العديد الوجوه في عالم الواقع .

يفصل الطبع الغريزي عن الطبع المصاب بمرض عصبي ، الاختلاف الكمي فحسب . ان أعراض المصاب بمرض عصبي تنشأ كبديل عن اشباع رغباته التي احبطت من قبل الأنا ـ الأعلى الصارم ، والتي ليست لا تقود إلى القيام بأعمال ملائمة فحسب ، بل لا يشعر بها على الاطلاق ، كما ذكر سابقاً .وقد بينت الدراسات التحليلية النفسية أن هؤلاء الأشخاص لا يستطيعون الاستغناء عن رغباتهم اللااجتماعية المتخلفة ، وأيضاً لا يستطيعون تحقيق هذه الرغبات بسبب الالحاح الخلقي الكامن في داخلهم ، فتنشأ ثمة أعراض عصبية كحل وسط ، هادفة إلى اشباع تلك الرغبات المتخلفة اشباعاً وهمياً .

٤ ـ الطبع السليم

يتسم الطبع السليم بالعمل المشترك المنسجم بين العناصر الثلاثة المكونة للشخصية ، ان تربية هذا الطبع تقود إلى تكوين درجة الحاح خلقي ، لا تقف بعد عقبة أمام الطاقة الغريزية الأصلية لتثبطها بقساوة مفرطة ، بل تحولها ، والتحول هذا يؤدي إلى ترويضها وتأهيلها . وهكذا تغدو الدوافع التي كانت

لا توافق البيئة الاجتماعية أصلا صالحة لخدمة المصلحة العامة . لذلك فان الأنا ـ الأعلى في الانسان السوي لا تسبب حصراً مفرطاً للطاقة الغريزية الحيوية ، غير أن أثره الرادع يكمن في أن كل هيجان ، يستحيل اشباعه في صورته الأصلية لأسباب كامنة في المجتمع ، يتعرض لانواع من التعديل البناء ، كي يستخدم لانجاز أعمال اجتماعية يستفاد منها .



الجدلية في الحياة النفسية

فيلهلم رايخ

علينا أن نتساءل في هذا المجال ، عما إذا اكتشفت المعارف المادية للتحليل النفسي تلك الجدلية الماثلة في العمليات النفسية أيضاً . غير أنه في البدء نود أن نبعث في ذاكرتنا المبادىء الاساسية للطريقة الجدلية كما أقامها ماركس وانجلز ، وتابع انجازها تلامذتها .

ان ماركس ، في جدليته المادية ، عارض جدلية هيغل المثالية ، هيغل المؤسس الحقيقي للطريقة الجدلية . بينما نجد هيغل ينظر الى جدلية المعاني كمحرك أولي للتطور التاريخي ، ذاهباً الى أن العالم الخارجي هو مجرد مرآة عاكسة للأفكار أو المعاني المستمرة في تطوير ذاتها جدلياً ، نجد ماركس يقلب النظرة الى الحياة ، وفق العرف المادي ، رأساً على عقب . هذا يعني ، أنه أوقف بنيان هيغل الفلسفي على قدميه ، حسب تعبيره ، حين أعلن ، أن الامور المادية لها طابع الاولوية ، وأما الافكار فتتعلق بها . ولدى استعارته النظرة الجدلية لمجرى الحوادث من هيغل ، أجهز في الوقت ذاته على المثالية الميتافيزيائية الهيغلية وعلى المادية الآلية ، التي سادت في القرن الثامن عشر . ان المبادىء الاساسية للمادية الجدلية هي :

١ – ليست الجدلية شكلاً من أشكال الفكر وحسب ، بل هي معطاة مع المادة مستقلة عن الفكر . هذا يعني ، أن حركة المادة تتم موضوعياً بصورة

جدلية . ان الجدلي المادي لا يدخل اذن الى المادة ، ما هو فقط في فكره ، بل هو يـــدرك بواسطة الحواس والفكر - تفكيره الذي يخضع بدوره للقوانين الجدلية - مجرى الحوادث المادية الماثلة في الواقع الموضوعي ادراكاً مباشراً . ومن الواضح أن هذا الموقف يتعارض والكانطية المثالية معارضة كلية [1] .

٢ - لا يتم تطور المجتمع، وكذلك تطور الحوادث الطبيعية ، كما يزعم كل ضرب من ضروب الميتافيزياء ، سواء أكانت مثالية أم مادية ، من جراء ومبدأ كامن في التطور ، أو « نزوع للتطور مستقر في الاشياء » ، انما يتم بعامل التناقض الصميمي ، من الاضداد الماثلة في المادة ومن صراع الاضداد ، الذي لا يمكن أن يجد حلاً في نمط الآنية المعطى ، ما لم تنفجر الاضداد نمط آنية المادة المعطى ، لتخلق نمطاً جديداً ، تنبعث منه مجدداً أضداد جديدة وهكذا .

٣ - ان كل ما ينبثق عن التطور الجدلي لا يتسم موضوعياً بالخير أو الشر - انما يتسم بالضرورة . بيد أن ما يدفع في البدء بعجلة التقدم الى الامام في مرحلة من مراحل التطور ، في وسعه أن يغدو بعدئذ عقبة في سبيل التقدم . هكذا روّج نمط الانتاج الرأسمالي في البدء ، طاقات الانتاج التقنية رواجاً هائلا، إلا أن هذا النمط من الانتاج أضحى بعد ذلك عقبة في سبيل التطور تحت تأثير التناقضات المستقرة فيـــه . إن الانعتاق من ربقة هـذا العائق ، يأتي بـه نمط الانتاج الاشتراكي .

٤ - من خلال وصف التطور الجدلي ، الناجم عن صراع الاضداد ، نلمس أنه لاشيء يبقى على حاله ، بل كل شيء يصير ، يحمل لتوّه بذرة زواله في ذاتـه . إن الطبقة ، التي تريد أن تثبت دعائم سيادتها ، لا يمكنها قبول النظرة الجدلية . وإلا فانها توقع الحكم بالموت على ذاتها . ان البورجوازية الرأسمالية أدت

---

(١) فارن لينين : Materialismus und Emperiokritizismus 1927

في تصاعدها ، حسب ماركس ، الى تطوير طبقة البروليتاريا ، التي تعني بدورها غروب الطبقة البرجوازية ، تبعاً للشروط الحياتية التي تحيط بهذه الطبقة الجديدة . لهذا السبب لا يقبل الاعتراف بالجدلية ،اعترافاً تاماً عملياً ، سوى طبقة الكادحين ، بينما يتحتم على البرجوازية أن تبقى عالقة في مثالية مطلقة بالضرورة .

٥ – إن كل تطور هو عبارة عن تعبير ونتيجة لنفي مزدوج : نفي النفي . كي نوضح هذا ، ندلي مجدداً بمثال حول التطور الاجتماعي . إن انتاج السلع كان نفياً للمشاعية البدائية ، حيث كان يسود فيها انتاج قيم استعمال ليس إلا . ويمثل نظام الانتاج الاشتراكي نفياً للنفي الأول ، إنه ينكر انتاج السلع ، ويؤدي به هذا النفي ، للوصول إلى مرحلة أعلى ، تقضي بإثبات ما نفي قبلاً ، بإثبات انتاج قيم استعمال ، إلى مرحلة الشيوعية [١] .

٦ ـ إن الأضداد ليست مطلقة ، بل يتداخل بعضها ببعض . فالكمية تنقلب إلى كيفية في نقطة معينة . إن كل علة لمعلول هي في الوقت ذاته معلول

---

(١) ان الشيء ذاته ينطبق على تطور الاشكال الجنسية ، وجملة الافكار الجنسية التي اتيح الكشف عنها مؤخراً . ففي المجتمع القديم الذي يزاول اقتصاداً مبنياً على شيوعية بدائية ، كانت الحياة الجنسية تراعى ويوافق عليها . غير ان هذا الاثبات ، الذي تلقاه الميول الجنسية ، ينقلب ، تحت عامل تطوير هذا المجتمع الى مجتمع منتج للسلع يمارس لاقتصاد خاص، الى نفي يسود في البنية البشرية وفي المجتمع. ومن الضروري أن نفترض ، حسب قانون التطور الجدلي ، أن نفي المجال الجنسي وانكاره سينقلب مجدداً الى ايجاب جنسي في مستواه الاعلى ، ايجاب يتطلبه المجتمع وبنيته . ولا نراها في الوقت الحاضر في تناقض حاصل بين الرغبة في الاطاحة بالاقتصاد السلعي ، وبين الرغبة في المحافظة عليه وحسب ، انما أيضاً في صراع ، يتأزم تدريجياً ، بين النزعة الكامنة في المجتمع لزيادة شدة الضغط الجنسي ، وبين الميل الى العودة من جديد الى الحياة الجنسية الطبيعية بدلاً من التسوية الاخلاقية والضغط الجنسي .

لذلك المعلول بما هو علة . إن هذا ليس مجرد أثر متبادل بين ظواهر منعزلة عن بعضها انعزالاً تاماً ، إنما تداخل متبادل وتأثير متبادل . وأبعد من هذا ، ففي وسع عنصر من العناصر التحول المفاجيء إلى نقيضه ضمن شروط معينة [١] .

٧ ـ ان التطور الجدلي يتم عادة تدريجياً ، إلا أنه يغدو قفزاً في مواضع معينة . إن الماء لا يتحول تدريجياً الى جليد بعامل التبريد المستمر ، انما الكيفية : ماء تتحول فجأة في نقاط معينة الى الكيفية : جليد . لكن هذا لا يعني ، أن التغير القفزي قد نشأ فجأة من لا شيء ، بل ان هذا التغير تطور تدريجياً بصورة جدلية الى تغير قفزي. هكذا تسعى الجدلية أيضاً الى حل التضاد الماثل في المفهومين (تدرج ـ ثورة) [٢] دون أن ترفعه . ان التدرج أو التطور يمهد السبيل أول ما يمهد ، لتغير اجتماعي في النظام الاجتماعي (افقار الأكثرية ، التشريك ..) ومن ثم يقاد التغير بطريقة ثورية .

ولنحاول الآن ، من خلال حوادث نموذجية جرت في الحياة النفسية الانسانية ، اثبات الجدلية الكامنة فيها ، التي لا تظهر الى حيز الوجود ، حسب رأينا ، دون الاعتماد على الطريقة التحليلية النفسية .

---

(١) نكاد نلمس هذه الحادثة لمس اليد الآن من خلال حركة الجماهير الفاشية . ان انتفاضة جماهير الشعب الالماني المناهضة للرأسمالية ، التي وقفت موقفاً مناقضاً كل التناقض لدالة الموضوعية للفاشية ، نراها تنقاد خلف الفاشية ، منقلبة الى عكس ما كانت تأمله هذه الانتفاضة الذهبية لفترة من الزمن ، أي الى توطيد دعائم سيادة الرأسمال الالماني .

ان جوهر السياسة الماركسية يكمن في رؤية مسبقة لاتجاهات التطور الممكنة ، وفي تنشيط كل حادثة من الحوادث التي تتوافق والثورة الاجتماعية . لأنه اذا تمكنا من سبر غور التناقضات الداخلية ، الكامنة في كل ظاهرة اجتماعية مهمة ، في الوقت الملائم ، عند ذاك يغدو الحسبان المسبق لامكانات التطور سهل المنال .

(٢) Evolution - Revlution .

ولنذكر في البدء مثالاً من أمثلة التطور الجدلي ، مثال تكون عوارض مرض العصاب ، كما فهمه ووصفه فرويد . ينشأ العرض العصابي ، حسب فرويد ، من جراء صد الانا ، المكبل اجتماعياً ، لدافع من الدوافع الانفعالية في البدء ، ثم لكبت الانا هذا الدافع . ان عملية كبت الدافع وحدها لاتؤدي الى وجود ظاهرة مرضية ؛ لابد من أن يخترق الدافع المكبوت حاجز الكبت من جديد ، ويظهر كعرض في شكل بموه . ان العرض يحتوي ، حسب فرويد ، على الدافع المصدود وعلى عملية الدفاع ذاتها . فالعرض يحسب اذاً حساب هذين الاتجاهين المتعارضين . لكن أين تكمن الآن جدلية تكوّن العرض ؟ ان هذه الحالة المفعمة بالتناقض - مطلب الدافع من جهة ، والواقع المعارض من جهة ثانية - الرامية الى رفض الاشباع أو معاقبته : تطالب بوجود حل لها . ان الانا في غاية الضعف لمجابهة الواقع ، بيد أنه في غاية الضعف أيضا للسيطرة على الدافع. ان ضعف الانا هذا ، الذي هو بدوره ناجم عن تطور مسبق ، هذا التطور الذي يمثل مرحلة واحدة فقط من مراحل تطور العرض - يمثل الاطار الذي ضمنه يؤدي الصراع دوره . ان هذا الصراع ينتهي على النحو التالي : ان الانا الواقع في خدمة المتطلبات الاجتماعية ، كي لا يذهب هدراً أو تنزل عليه اللائمة ، يكبت الدافع في الواقع تحت تأثير دافع ضغط الذات . ينجم الكبت اذاً عن تناقض ، لا يمكن ايجاد حل له ، ضمن اطار الشرط السائد في حالة الوعي . وليست حالة عدم وعي الدافع وتجاهله ، سوى حل مؤقت لهذا الصراع ، وان كان حلا مرضياً .

المرحلة الثانية : بعد عملية كبت الرغبة : التي ينفيها الأنا ويثبتها في آن واحد ، يطرأ تغيير على الانا بالذات . ان شعور الانا يفتقر الى جزء من جزائه (الدافع) من جهة ، ويكتسب جزءاً (الراحة العابرة) من جهة

ثانية . لكن تحت تأثير الكبت ، لا يمكن أن يتخلى الدافع عن الاشباع ، كما هي الحال في ميدان الشعور ، بل يتفاقم الأمر ، خاصة لأن الدافع المكبوت لا يقع الآن تحت رقابة الشعور . إن الكبت يعمل على زوال ذاته بذاته ، لأن الطاقة النفسية تودع بسببه وتتراكم تراكماً هائلا ، كي تقتحم حاجز الكبت في نهاية الامر .

إن عملية اقتحام الكبت الجديدة ناجمة عن التناقض : كبت ـ تجمع غريزي ، كما أن الكبت نفسه كان ناجماً عن التناقض : رغبة الدافع ـ رفض العالم الخارجي (ضمن الشرط : ضعف الانا) . لا يلاحظ ثمة « ميل » الى تكوين العرض ، انما في وسعنا أن نرى أن التطور ينشأ من التناقضات الكامنة في الصراع النفسي . وقد كان شرط اقتحام الكبت معطى مع عملية الكبت ، الا وهو تراكم طاقة الدافع غير المشبع . هل عادت الامور الى نصابها من جديد في هذه المرحلة الثانية لدى اقتحام حاجز الكبت ؟ نعم ولا . بما أن الدافع عاود بسط سيطرته على الانا . لا ، بما أن الدافع قد تغير ، قد بدا في شكل بموه على صفحة الشعور ، كعرض . هذا العرض يحتوي على الدافع القديم ، لكن في ذات الوقت على نقيضه ، على صد الانا للدافع .

هكذا نشاهد في المرحلة الثالثة (العرض) أن الاضداد الاصلية قد عادت واتحدت في ظاهرة واحدة لا غير . هذه الظاهرة بالذات هي نفي (اقتحام) النفي (الكبت) . ولنتوقف مؤقتاً كي نبرهن على ما أوردناه بمثال واقعي مستمد من خبرة التحليل النفسي .

لنأخذ حالة المرأة المتزوجة ، التي كان ينتابها الخوف من مجرمين يودون الاعتداء عليها بالسكاكين . ليس في وسعها البقاء وحيدة في غرفتها . إن مجرماً

مريضاً قد قبع في كل مخبأ وزاوية . أدت الدراســة التحليلية لحالة امرأة العامل هذه الى الأمور التالية :

١ ـ المرحلة الاولى : صراع نفسي و كبت

تعرفت هذه المرأة قبل زواجها على رجل حاول أن يغريها بشتى الوسائل، رغبت في الاذعان له ، لو لم تكن مردوعة من الناحية الخلقية . وقد استطاعت الانعتاق من حلبة هـذا الصراع ، ممنية نفسها بالزواج في المستقبل . في الواقع عقدت قرانها على رجل آخر ، دون أن تنسى الرجل الأول ، الذي أشاح بوجهه عنها . بيد أن مجرد التفكير بـه ، كان يسبب لهـــا اضطراباً مستمراً . ولدى مصادفتها اياه للمرة الاولى بعد زواجها ، تملكها صراع نفسي مريع ، بين الشوق إليه ، والمحافظة على الوفاء . إن هـــذا الصراع أضحى لا يطاق ، وليس له من مخرج ، في ظل هذه الشروط ؛ ذلك لان شوقها للارتماء في أحضانه ، كان يعادل قوتها الخلقية . طفقت تتجنب مقابلته (الدفاع) ، الى ان غاب عن ذاكرتها في النهاية ظاهرياً . ان هذا النسيان لم يكن نسياناً حقاً . بل كان كبتاً . ظنت أن جرحها قد التأم ، ولم تعد تفكر بذلك الشخص على الاطلاق .

٢ ـ المرحلة الثانية : اقتحام الكبت

بعد مرور مـدة على زواجها حصلت مشادة عنيفة بينها وبـــين زوجها ، لانه غازل امرأة غيرها . في أثناء المشادة ، كانت قـد فكرت ـ كما اتضح الامر بعد ذلك بمدة طويلة ـــ « اذا كنت أنت تسمح لنفسك بهذا ، فأكون أنا في غاية الغباء ، اذا لم أسمح لنفسي بذلك أيضاً ! » عندها ارتسمت أمامها صــورة حبيبها الاول . الا أن الفكرة كانت تحمل خطراً كبيراً في طياتها ، لانها ستنفخ النار في رماد الصراع القديم . هكذا رمت بالفكرة عرض الحائط عمداً : لقــد كبتها من جديد . في الليل أصابتها موجـة من الخوف ؛ لقد استحوذت عليهـــا

الفكرة ، بأن رجلا غريباً يقترب من سريرها الهويني ، راغباً في اغتصابها . هنا نلاحظ أن الدافع صار الى شكل بموه . وأبعد من هذا ، لقد نفذ الى الشعور ثانية منقلباً نقيضه : أي أن الرغبة نحو الرجل الغريب انقلبت الى خوف منه .

٣ ـ المرحلة الثالثة : تحليل العرض

ان هذا التغيير ، انقلاب الرغبة الى خوف ، يمثل أساس نشوء العرض . فاذا ما تناولنا العرض ذاته بالتحليل ، نجد من خلال تصوراتها ، أن رجلا غريباً يتسلل في الليل مقترباً من سريرها ، تحقيقها لرغبتها المكبوتة ، ألا وهي خيانة الزوج (أظهر التحليل في حذافيره ، أنها قد تخيلت عشيقها الاول ، دون علم منها : لون الشعر وغيره ، تتطابق وأوصاف العشيق) ، الا أن صد الدافع كمن في العرض ذاته ، أي الخوف ازاء الدافع ، الذي بدا خوفاً من الرجل . وقد اختفى عنصر « الاغتصاب » من ساحة الخوف ، واستعيض عنه « بالقتل » . ان هذا يتفق اذاً وتغير مضمون العرض وتنكره ، الذي أضحى الآن واضحاً كل الوضوح .

لا نلاحظ في هذا المثال وجود أضداد منفصلة أصلا عن بعضها ، تتحد في ظاهرها فحسب (بل نلاحظ أيضاً أن الظاهرة قد تحولت الى نقيضها ، الرغبة الى خوف . ففي تحول الطاقة الجنسية الى خوف ـ وهذه واحدة من اكتشافات فرويد الاولى الاساسية ـ تظهر الحقيقة التي تقول ، ان الطاقة ذاتها تولد ، ضمن شرط معين ، نقيض ما يبدو لنا بالذات ، ضمن شرط معين آخر .

وهناك مبدأ جدلي آخر مستمد من الخبرة ، يتضح في مثالنا . إن ما هو قديم ، أي الرغبة الجنسية ، يظل ماثلا فيما هو جديد ، أي في العرض . رغم هذا ، فان ماهو قديم ليس هو ذاته ، بل هو شيء جديد كل الجدة في الوقت ذاته ، أي

خوف : إن التضاد الجدلي القائم بين الليبيدو والخوف يمكن إيجاد حل له على نحو آخر ، أي التضاد القائم بين الأنا والعالم الخارجي[1] .

قبل ان ننتقل الى هذا الموضوع ، نود تبيان أمور جدلية أخرى في المجال النفسي من خـــلال بعض الأمثلة الوجيزة . في عملية تحول الكمية إلى كيفية نلاحظ : أن عملية كبت انفعال من ساحة الشعور، أو مجرد ضغطه فقط ، تمثل للأنا لذة وارتياحاً إلى حد ما ، لأن الأنا يتجنب وقوعه في أزمة نفسية ؛ لكن إذا حصلت فوق حد معين ، نجد أن اللذة قد انقلبت إلى « لالذة » . إن إثارة عذبة طفيفة للمناطق الشبقية في الجسد ، والتي لاتشبع إشباعاً نهائياً ، تجلب اللذة، لكن إذا دامت هذه الإثارة مدة طويلة ، انقلبت اللذة إلى لالذة .

هناك أيضاً حوادث جدلية هي التوتر والاسترخاء . يبدو هـــذا الأمر جلياً في الميل الجنسي . إن التوتر الناتج عن هيجـــان جنسي يؤدي إلى ارتفاع الشهوة ، لكن في الوقت ذاته تضعف حدة التوتر من خلال الاشباع في الإثارة . إن التوتر ، يحمل في جنباته الاسترخاء . إنه يمهد السبيل لحصول الاسترخاءالمقبل، كما أن التوتر الآلي لنابض الساعة هو مرحلة سابقة تهيء استرخاء النابض . عكس هذا نجد أن الاسترخاء يرتبط أحياناً بأعلى توتر ممكن – كما هي الحـــال مثلاً في

---

(١) ان التناقض في الرأي حول الثنائية الغريزية ، التي يطلق عليها اسم : الثنائية الاقتصادية الجنسية (ومافاله فرويد ، يمكن صياغته حسب المستوى العلمي ، على النحو التالي : أثبت فرويد ، التضاد الكامن بين الانا والعالم الخارجي من جهـــة ، ثم أثبت بشكل غير متعلق بهذا التضـــاد ، الثنائية الداخلية لغريزتـين أوليتين . ولبث فرويد ممسكاً بحـزم بالطابــــع الإثنيني للعمليات النفسية ، الذي كان من اكتشافـــه . إلا أن الاقتصاد الجنسي يفهم الثنائية الغريزية الداخلية على نحو آخر ، لا على شكل مطلق ، إنما على شكل جدلي . عـلاوة على هذا فان الاقتصـــاد الجنسي يعيد الأزمات الجنسية الداخلية الى التضاد الأولي : أنا – عالم خارجي .

العمل الجنسي ، أو في التوتر المريح الحاصل من مأساة مثـيرة ـ بيد أن هذا الاسترخاء هو بمثابة أساس لحدوث توتر جديد .

في وسعنا تبيان مبدأ هوية الأضداد من خلال حوادث الذات النرجسي وليبيدو الموضوع . ليس حب الذات ، حسب فرويد ، والحب المتجه وجهة موضوع خارج الذات . عبارة عن ضدين فحسب ، بل إن الحب الموضوعي ينشأ عن الليبيدو النرجسي ، وفي امكانه أن يعيد الكرة ، وينقلب في كل آونة إلى حب ذاتي . لكن بما أن كليهما يمثل اتجاهاً في الحب ، فكلاهما متماثل . وأبعد من هذا كذلك ، كلاهما يعود الى مصدر مشترك ، إلى الجهاز الجنسي الجسدي ، إلى « النرجسية الأولى » . كذلك المفهومان « الشعور » و « اللاشعور » (وحدة المعنى) متضادان . إلا أنه يمكن الإشـــارة إلى أن كليهما ، يحمل طابع التماثل وطابع التضاد في الوقت ذاته ، والفضل يبدو في تبيان هذا للعصاب القهري . إن المرضى بالعصاب القهري يكبتون تصوراتهم من ساحة الشعور ، لدرجة أنهم يجردون التصور من الانتباه فقط ، أي من الشعور بالانفعال لامتلاكه . فالتصور المكبوت هو ، في آن واحد ، مشعور به وغير مشعور به . هذا يعني ، أن في وسع المريض إعادة هذه التصورات ، إلا أنه لايدرك معانيها .

إن المفهومين « الهو » و « الأنا » يعبران كذلك عن أضداد متماثلة : ليس الأنا سوى عبارة عن جزء يتميز تميزاً خاصاً ، بيد أنه يغدو في الوقت ذاته ، تحت تأثير العالم الخارجي ، خصماً للهو ، قريناً مشاكساً من الناحية الوظيفية .

لايتطابق مفهوم التقمص مع حادثة جدلية فحسب ، بل مع هوية الاضداد أيضاً . إن عملية التقمص تتم ، حسب فرويد ، على الشكل التالي : أحدهم « يتشبه » بشخص المربي مثلاً . هو في الوقت ذاته ، موضوع حب وكراهية ، أي « يتقمصه » هذا يعني أخذ صفاته والعمل وفق أوامره وكأنها تنبع من ذات

الشخص المتقمص . في هذه الحالة تضمحل العلاقة الموضوعية عادة ، فالتقمص يحل مكان حالة العلاقة بالموضوع ، إذن هو يمثل نقيضها ، نفيها ؛ غـير أنه في الوقت ذاته يحافظ على العلاقة الموضوعية ، مع اختلاف في الشكل ، إنه اذن اثبات أيضاً . هنا يكمن الصراع أو التناقض التالي : أحب الرجل (س) ؛ بما أنه يقوم على تربيتي ، يمنعني من القيام باعمال كثيرة ، لهذا السبب أكرهه ، يودي تحطيمه ، ازاحته ، غير اني أحبه أيضاً ، أتوق اذن الى أن أحافظ عليه . لايمكن وجـود مخرج في حالة التناقض الشائكة هذه الا على النحو التالي : « إنني أطالب بشخصه كلياً ، اتشبه به ، أتقمصه ، أقطع علاقتي معه في العالم الخارجي (العلاقة الموضوعية) ، لكن أستمر في المحافظة عليه في داخـلي بشكل مختلف ، لقد أفنيته ، وايضاً احتفظت به » .

ضمن تلك الوقائع ، التي يستوعبها التحليل النفسي ، بفضل مفهوم اجتماع الضدين ، القائل بالنفي والإثبات في الوقت ذاته ، يوجـد العديد من الظاهرات الجدلية ، لانذكر منها سوى ماهو أعمق أثراً وأشد بروزاً : ظاهرة تحول الحب الى كراهية والعكس . إن هذين المفهومين مطبوعان بطابع التماثل (وحدة المعنى) فاذا تمكن المرء من إقامة صلات عميقة مع إنسان آخر ، يمكن ان يعني الحب كراهية والعكس . إن الانقلاب إلى النقيض ميزة نسبها فرويد الى الدوافع بعامة . غير أنه لدى الانقلاب لايضمحل ماهو قديم ، بل يبقى في نقيضه ، محتفظاً به كلياً .

كذلك الضدان : العصاب والشذوذ ، يجب أن يحلا حلاً جدلياً ، بحيث أن كل عصاب يمثل شذوذاً ، والعكس .

لننتقل الآن الى السؤال عن مدى ما أمـاط التحليل النفسي الستار عن الجدلية في الميدان النفسي ، وخاصة بالنسبة للتطور العام للفرد في ظل المجتمع .

وسنعالج السؤال الجوهري التالي : هل يمكن إرجاع الجدلية في المجال النفسي الى التضاد الاولي الماثل بين الانا الغريزي والعالم الخارجي ؟

كنا قد أشرنا في حديث سابق إلى رأي فرويد حول الفرد . فالفرد من الناحية النفسية ، يأتي الى العالم ، في عرفه ، كحزمة من الحاجات تقابلها دوافع ملائمة لها . بصفته كائناً اجتماعياً ، يوضع في كنف المجتمع مع تلك الحاجات وليس فقط في ظل المجتمع العائلي الضيق ، بل مباشرة ؛ من خلال الشروط الاقتصادية للوجود العائلي ، وجهاً لوجه في المجتمع الواسع . وبجملة بسيطة ، فان البنية الإقتصادية المجتمع ـ تحت تأثير هذه العوامل : انتماء طبقي للأهل ، الاحوال الاقتصادية السائدة في العائلة ، الايديولوجيات ، علاقة الاهل ببعضهم .. ـ تؤدي الى وقوع أثر متبادل مع الانا الفطرية الكامنة في المولود . وكما أن هذا الوليد يغير وجه محيطه ، فإن المحيط المتغير يؤثر فيه مجدداً . وقد تشبع بعض الحاجات ، وبالتالي يسود الانسجام . غير أن معظم هذه الحاجات لاتشبع وينشأ التضاد بين اشباع الحاجات والنظام الاجتماعي ، الذي تمثله العائلة (ثم المدرسة) . ينجم عن هذا التضاد صراع يؤدي الى حدوث تغيير . وبما أن الفرد هو الخصم الاضعف ، فان الامر يؤدي الى حدوث تغير في بنيته النفسية . ان ضروب الصراع هذه ، الناجمة عن الاضداد ، والتي ليس بالإمكان حلها ، اذا لبثت بنية الطفل على حالها ، تنشأ كل يوم وساعة ، وتكون في الواقع العنصر الذي يدفع بالطفل الى الامام . لاشك أن المرء يتحدث في التحليل النفسي عن استعدادات واتجاهات للنمو وغيرها ، الا أن الوقائع التي وصل اليها التحليل بواسطة الخبرة حتى الآن ، حول نمو الطفل في سنيه المبكرة ، تؤكد التطور الجدلي ، الموصوف انفاً ، تؤكد حركة الاضداد من درجة الى درجة . يميز المرء عادة درجات في التطور الليبيدوي ، فيقال مثلاً : الليبيدو يجتاز درجات التطور تلك . غير أن المراقبة العلمية ، أظهرت ، بأن أي

مرحلة من مراحل التطور ، لايمكن حثها وتنشيطها ودفعها الى الامام دون خيبة في اشباع الواقع ، الموجود في مرحلة سابقة . هكذا تغدو خيبة الاشباع ، من خلال الصراع ، الذي يولد الخيبة في نفس الطفل ، محركاً للنمو . وسوف لانعير ، في هذا البحث ، الجزء التطوري المتعلق بالوراثة ، اهتماماً ، كالاستعداد الكامن في مناطق الاثارة الجنسية ، وجهاز الادراك ، هذه الامور التي يصعب على المرء عرضها عرضا خالصاً . لم يزل هذا الجزء ميداناً غامضاً كل الغموض بعد في البحث البيولوجي . والسؤال عن طبيعة جدليته لايمت بصلة لموضوعنا . علينا أن نحسب حسابه ، إلا اننا نكتفي بجملة فرويد : « ان الاستعداد الفطري يشترك في عملية النمو كما تشترك المعاناة » .

تلعب خيبات الدوافع في خضم المعاناة ، الى جانب الاشباعات ، دوراً هاماً ، بصفتها محركات النمو ، فالتضاد القائم بين الانا الفطري والعالم الخارجي يصير في نهاية الامر الى تناقض صميمي ، بحيث يشرع عضو رادع ، في تكوين ذاته « في الجهاز النفسي ، تحت تأثير العالم الخارجي : الانا ـ الاعلى . فما كان بعد خوفاً من العقاب أصلا ، يغدو ردعاً خلقياً . والصراع القائم بين الانا الفطري والعالم الخارجي يستحيل الى صراع قائم بين الانا الفطري والانا ـ الاعلى . غير أننا لا ننسى ، أنهما يتسمان بطبيعة مادية ، فالاول يتغذى مباشرة عن طريق الاعضاء والثاني أقيم في الانا من أجل المحافظة والبقاء في آخر المطاف . ان غريزة حفظ الذات (النرجسية) تخف من حدة الميل الجنسي والميل العدواني ، هكذا تدخل حاجتان اساسيتان ، كانتا تكونان وحدة اصلا في طور الرضاعة و كذلك فيما بعد في ظروف متعددة ، في تناقض مع بعضها ، ويدفعان بعجلة النمو الى الامام من صراع الى صراع ؛ لكن ليس بمناسبة التقيد الاجتماعي ، بل حقاً بواسطته . اذ ما حدد النمو الصراع الداخلي والخارجي بشكل عام ، نرى ان المجتمع هو الذي

يشبع الاهداف الفطرية ، كما يشبع العوائق الخلقيـة بمحتوياته السائدة الراهنـة . ففي وسع التحليل النفسي اذن اثبات جملة **ماركس** اثباتاً تاماً ، وهي ان الوجود يحدد « الشعور » ، اي يحدد التصورات واهـداف الدوافع والافكار الخلقية ... وليس العكس . ان التحليل النفسي يعطي هذه الجمـلة مضمونها الواقعي بالنسبة لنمو الطفل . الا ان هـذا لا ينفي ان بسبب الجهاز الفطري كثافـة الحاجات ، التي ترضخ لشروط جسدية (وفروقاً نوعية للنمو . ان هذا ليس « بانزلاق مثالي » ، كما ذكر لي بعض الماركسيين في مناقشات جرت حول هذا الموضوع ، انما يتفق تماماً والجملة الماركسية التي تقول ، ان الناس يصنعون تاريخهم بأنفسهم ، فقط وفق افتراضات وشروط معينة ذات طبيعة اجتماعية .

اذا ترجمنا هـذا الكلام الى لغة علم الاجتماع ، نجد أن موضوعة **فرويد** الاساسية حول معنى عقدة أوديب بالنسبة لتطور الفرد ، لا تعني سوى أن الوجود الاجتماعي هو الذي يحدد هذا التطور . فالاستعدادات الانسانية والدوافع ، التي هي عبارة عن أشكال فارغة لتقبل المحتويات الاجتماعية ، تجتاز الظروف (الاجتماعية) وأقدار الصلات بالاب والام والمربين ، لتكسب الآن فقط شكلها النهائي ومضمونها .

ان جدلية التطور النفسي لا تكشف فقط ، أن ثمـة نتائـج متعارضة تتكون ، ناجمة عن موقف متأزم ، وقت تأرجح ميزان قوى الاضداد ، بل ان التجربة العملية تثبت ايضاً ، ان خصائص طبع من الطباع يمكن ان تنقلب في مواقف متأزمة ملائمة الى نقيضها . هذا النقيض الذي كانت تكمن بذرته لدى الحل الاول للصراع . ففي امكان طفل قاس ان يغدو طفلا شفوقاً رقيق الفؤاد ، وفي استطاعة التحليل الوافي لحادثة الشفقة هذه الكشف عن القسوة القديمـة . الطفل المغرم بالاوساخ قد يتشدق بعد ئذ بنظافته (وقد يغدو الفضولي انساناً كتوماً

الى درجة لا تطاق . والغرق في الماديات والارضيات قد ينقلب الى تقشف وزهد بسهولة : اي كلما ازدادت حدة ذو صفة من الصفات ، كلما سهل انقلابها الى نقيضها في ظروف ملائمة (تكوّن رد الفعل) .

بيد ان ما هو قديم ، لا يضمحل كلياً لدى التحول في مجرى التطور . بينما نجد ان جزءاً من الصفات قد استحال مكوناً النقيض ، نجد ان جزءاً آخر بقي على حاله . غير ان هذا الجزء يعاني بعض تبدلات شكلية مع مرّ الزمن بسبب تغير الشخصية ككل . ان مفهوم التكرار الفرويدي يلعب في سيكولوجيا التطور النفسي دوراً كبيراً . ويتضح لدى دراســـة عميقة له بأنه مفهوم جدلي بحت .[1] إن ما يتكرر هو في الواقع أبداً ما هو قديم وشيء ما جديد ، هو القديم في صورة جديدة أو دالة جديدة . هذا ماوجدناه لدى تحدثنا عن العرَض . وكذلك هي الحال أيضاً في عملية التصعيد . فعندما يولع الطفل باللعب بوسخه صغيراً ، ومن ثم يولع ببناء أبراج من الرمل الرطب ، ومن ثم عندما يكبر ، يلمس في نفسه رغبة جامحة للهندسة المعمارية. نجد في هذه المراحل الثلاثة، ان العنصر القديم لبث على ما هو عليه ، لكن في شكل متبدل ، ودالة متبدلة . وثمة مثال آخر حول الطبيب الجراح أو الطبيب النساني . فالاول يصعد ساديته في اجراء العمليات الجراحية ، والثاني يصعّد لذة النظر واللمس الطفلية .

ان الحكم على صحة هذه الوقائع لا يقدمه النقد المنهجي ، وانمـــا النقد التجريبي وحسب . ان الذي لم يحلل جراحاً ، لا يمكنه معارضة هذا ا ي ، بيد ان في وسعه الادلاء باعتراض عام من الناحية المنهجية ، الا وهو ارتباط نشاط

---

(١) نعني هنا بأن التكرار عملية جدلية فقط ضمن اطار مبدأ اللذة واللالذة . في الواقع يتوجب علينا عدم حصر هذا المفهوم ضمن هذا المبدأ . وقد عمدنا إلى ذلك لأننا لم نرغب في فتح الباب مجدداً للميتافيزياء الواقعة خارجاً .

الانسان وعمله بالشروط الاقتصادية الحياتية . لا يزعم التحليل النفسي أكثر من أن هذه القوى أو تلك تعمل على التأثير في النشاط . إلى جانب هذا العامل الذاتي ، نجد أن شكل التصعيد يخضع لشروط اجتماعية في الواقع ، لأن المكانة الاجتماعية هي التي تقرر قبل كل شيء تصعيد المرء لساديته على صورة جزار أو جرّاح أو شرطي سري . وقد يحدث أن تسدّ الامكانات أمام التصعيد لأسباب اجتماعية ، بما يؤدي عندئذ إلى عدم الرضى عن المهنة ، التي أرغم المرء على مزاولتها من قبل المجتمع ارغاماً .

أبعد من هذا على المرء أن يتساءل عن كيفية توافق الطابع العقلاني البيّن للنشاط والعمل الانساني ، مع الطابع اللاعقلاني الذي لا يمكن أن يغفله المرء [1] . إن الفنان يرسم ، والمهندس يبني ، والجراح يشق ، والطبيب النسائي يفحص مرضاه كي يدفع ثمن معيشته ، أي لأسباب اقتصادية معقولة . يعدّ العمل علاوة على هـــذا ، عاملاً اجتماعياً ، أي معقولاً . لكن كيف يتوافق هذا الأمر مع قول التحليل النفسي ، إن العامل يصعّد دوافعه من خلال النشاط الذي يقوم به ، وبالتالي يشبع هذه الدوافع ؟ لا يقدر بعض المحللين الطابع العقلاني للنشاط البشري تقديراً كافياً . ففي وسع المرء أن يثبت هذا في نظرتهم الحياتية ، التي لا تريد أن ترى في نتــاج النشاط البشري سوى اسقاطات واشباعات للدوافـــع .

إن دالة النشاط الاجتماعية تقرر فيما إذا كان النشاط عقلانياً أم لاعقلانياً . إن تبدل طابع الانغماس في العمل من الميدان العقلاني إلى الميـــدان العبثي اللاعقلاني والعكس ، يرتبط بمكانة الفرد حينذاك . ان عمل الطبيب ذاته ، الذي يتسم باللامعنى في غرفة الفحص ، يغدو في حياته الخاصة ، لدى فعل الوصال مثلاً .

---

(١) عقلاني : ماله معنى وغاية . لاعقلاني : ما ليس له معنى وغاية ، عبثي .

ذا معنى . وما كان له معنى هناك ، يفقد معناه ، يفقد طابعه العقلاني ، في هذا الموقف الخاص نفسه .

هذه التأملات تفسح لنا المجال كي نفترض أن التحليل النفسي ، بفضل طريقته في البحث ، يحاول سبر غور الجذور الغريزية لنشاط الفرد الاجتماعي ، وبفضل نظريته الجدلية حول الدوافع ، يحاول ايضاح الأثر النفسي للقوى المنتجة في الفرد . هـــذا يعني ايضاح **تكوّن الايديولوجيات** « في رأس الانسان » ، ايضاحاً مفصلاً ، بين القطبين : بنية المجتمع الاقتصادية والبنية الفوقية الايديولوجية التين استوعب المفهوم المادي للتاريخ لباقة علاقتها السببية ، بين هاتين النقطتين النهائيتين يدرج الاستيعاب التحليلي النفسي لسيكولوجيـــة الانسان الاجتماعي سلسلة من عوامل ارتباطيـة . في وسعه أن يشير الى أن بنيـة المجتمع الاقتصادية لا تتحول بصورة مباشرة الى ايديولوجيات « في رأس انسان » بل ان الحاجة الغذائية ، التي تتعلق في صورها الخارجية بالظروف الاقتصادية ، تؤثر في دالات الطاقة الجنسية ، التي هي ألين عريكة منها بكثير . وفي وسعه أن يشير أيضاً إلى أن التأثير الاجتماعي في الحاجات الجنسية يقود إلى ايجاد قوى منتجة جديدة على شكل ليبيدو مصعّد ، في سياق العملية الاجتماعية ، من جراء تضيق دائرة أهداف تلك الحاجات . ويبدو هذا تارة مباشرة على شكل طاقة عملية ، وطوراً بصورة غير مباشرة على شكل نتائج متطورة تطوراً عالياً للتصعيد الجنسي ، كالدين والاخلاق عامة مثلا ، والأخلاق الجنسية خاصة ، وكالعلم وغيره .. وهذا يعني إدراج قيّم التحليل النفسي في ميـــدان المفهوم المادي للتاريخ ، في نقطة محددة كل التحديد ومناسبة لموضعهـــا ، أي هناك حيث تبدأ المشاكل النفسية ، التي تظهرها الجملة الماركسية القائلة : إن نمط الوجود المادي يتحول في رأس الانسان إلى أفكار . إن العملية الليبيدوية الكامنة في التطور الاجتماعي تتمتع اذن بطابع ثانوي ، إنها

تتعلق به ، وإن كانت تتداخل فيه بصورة حاسمة ، لدرجة أن الليبدو المصعّد والمعتبر كطاقة عملية يصير الى قوة منتجة .

اذا عدت عملية الليبدو في منزلة ثانوية ، فعلينا أن نبحث في المعنى التاريخي لعقدة أوديب . كنا قد وجدنا ، ان التحليل النفسي ينظر الى العمليات النفسية برمتها نظرة جدلية ، حتى تلك التي هي غير مشعور بها . غير أن عقدة أوديب بدت وسط هذه الظاهرة المتحركة و كأنها نقطة ثابتة . للأمر سببان : إما أن نعتبر عقدة اوديب واقعة معطاة كامنة في طبيعة الانسان ، نازعين عنها الصبغة التاريخية ، فالتغير لا يعتريها ، ولا يخضع للتغيير . واما ان الامر يعود الى ان الشكل العائلي ، الذي يعلل عقدة أوديب الآن ، لبث على ما هو عليه نسبياً منذ آلاف السنين . ان رأي الاول يعتنقه على ما يبدو جونس الذي زعم في نقاش له مع مالينوفسكي (Malinowski) حول العقدة الاوديبية في المجتمع حيث تسود الحقوق الاموية ، بأن عقدة اوديب هي اصل واساس كل شيء . ان هذا الرأي خاطىء دون ريب ، لأن الذهاب الى ان العلاقات التي تربط الابن بالاب وبالام هي علاقات ابدية تبقى على حالها في كل مجتمع ، يتناسب فقط مع الرأي القائل ، بعدم وجود تغيير ما في الوجود الاجتماعي . ان القول بأبدية عقدة اوديب يعني ان الشكل العائلي الذي اوجدها هو شكل مطلق وابدي ، هذا يستدعي الى الخاطر للحال ، ان الانسانية مطبوعة بالفطرة على ذات الشكل ، كما تبدو لنا الآن . ان فرضية عقدة اوديب تنطبق على جميع اشكال المجتمع الابوي (حيث تسود سلطة الاب) . غير ان علاقة الاطفال بالاهل تختلف ـ حسب ابحاث مالينوفسكي ـ في المجتمع حيث تسود حقوق الام ، بحيث انه لا يستحق اطلاق هذه التسمية عليه . ان عقدة أوديب ، حسب مالينوفسكي ، واقعة مشروطة اجتماعية ، يتبدل شكلها مع تبدل بنية المجتمع . لا بد لعقدة اوديب من ان

تزول في المجتمع الاشتراكي ، لزوال قاعدتها الاجتماعية ،العائلة الابوية . ولفقدان العائلة الابوية حقها في البقاء . إنما فقط مسألة تعريف وحسب . هل يريد المرء الاشارة الى الميل للفسق بـذوي القربى الواقعي ، كما كانت الحال في العهود السحيقة ، ويدعو هذا الميل « عقدة أوديب » ، او ان يحتفظ بهذه التسمية لتطلق على رغبة في الفسق بذوي القربى خائبة ، وعلى المنافسة مع الوالد الحقيقي ؟ هذا يعني فقط قصر صلاحية قضية اساسية تحليلية على اشكال معينة في المجتمع ؛ لكن هذا يعني في الوقت ذاته ، تمييز العقدة الأوديبية ، على انها حقيقة مشروطة ، على الأقل في أشكالها ، اجتماعيـاً ، وفي نهاية الأمر اقتصادياً . ان الفراغ الذي يسود أوساط علماء الشعوب ، حول مصدر الكبت الجنسي ، لم يزل على قدم وساق ، ولم يؤد الى حل مـا . ان فرويد الذي اعتمد على نظرية العشيرة البدائية الداروينية في كتابه « طوطم وتابو » ، يستوعب عقدة أوديب على انها علة الكبت الجنسي . بيد ان هذا الرأي لا يعطي المجتمع ، الذي تسود فيه حقوق الام ، حقه . اما موقف ابحاث باخوفن ـ مورغان ـ انجلز (Bachofen - Morgan - Engels) فتظهر امكانية اعتبار عقدة اوديب ـ او بالاحرى الشكل العائلي الذي تنهض عليه ـ عكس الرأي الفرويدي ، نتيجة للكبت الجنسي ، الذي ابتدأ يوماً ما . مهما يكن من امر : من المؤكـد ان التحليل النفسي سيفقد امكانات اخرى في البحث في الميادين الاجتماعية والتربوية ، اذا ما اراد ان يزيل الصبغة الجدلية عن العقـدة الاوديبية ، هذه الجدلية التي اماط الستار عنها في المجال النفسي .

التحليل النفسي وعلم الاجتماع

د. كونراد فان بواس

تسود وجهات نظر متباينة حول الصلات المتبادلة القائمة بين علم نفس الأعماق وعلم الاجتماع، العلم التجريبي لحياة المجتمع البشري.

قلة هم الباحثون الذين يتمسكون بالرأي القائل، إن كل علم يبحث في النفس يتحتم أن يكون مبنياً على أساس اجتماعي. ان المجتمع في عرفهم، من المعطيات الأولية. إنهم لايستطيعون النظر الى الانسان، الا ككائن اجتماعي، يقضي حياته أبداً في ظل الحياة الاجتماعية، وليس في استطاعته العيش بعيداً عنها. على هذا غدا كل بحث في علم النفس، حسب رأيهم، علماً يبحث في معاناة وسلوك الجماعات، وفي المعنى الحصري علماً نفسياً اجتماعياً. ومن البديهي أيضاً أن ينطبق هذا الرأي على علم نفس الأعماق بصورة عامة، وعلى التحليل النفسي بصورة خاصة،

على النقيض مما تقدم، يذهب عديد من علماء الاجتماع، والجزء الأكبر من علماء النفس، الى أن البحث في حياة الجماعة البشرية ينطلق من علم النفس الفردي، وعلى الأخص من علم نفس الأعماق (Tiefenpsychologie) المتجه اتجاهاً ديناميكياً. ألا تتألف كل جماعة من الجماعات من الأفراد ؟ ألم يصنع الانسان تاريخه فكون مجتمعه ؟

إن هذا التضاد الظاهري الماثل في هذين الاتجاهين ناتج عن طرح خاطىء للمشكلة ؛ في الواقع، إن كلا من هذين الرأيين يتضمن حقيقة جزئية ليس أكثر.

التعديلات السريعة التي طرأت على هذه العلوم في السنين الاخيرة ، جعلتنا نمعن النظر في حالتها الواقعية ، وقادنا الامر تدريجياً كي ندرك العلاقة الجدلية الخاصة الكامنة فيها : يحاول هذان العلمان ، كل وفق طرقه الخاصة ، وصف وتنسيق وتعليل وتعديل الواقعة نفسها ، ألا وهي : الانسان في ظل الجماعة الانسانية .

لذا يجب على هذين العلمين أن يكونا في المستقبل متلازمين ، كعلوم صديقة تتمتع بذات الاهمية ، يتداخلان ويتأثران ويؤثران أبداً ، كل ذلك في سبيل تطور مثمر لهما .

سننطلق في بحثنا هذا من حقيقة وضرورة هذه العلاقات المتبادلة ، محاولين وضع النقاط على الحروف ، مشيرين الى مضار سيادة مطلقة لاحدهما على الآخر ، وإلى خطر الوقوع في امبريالية فكرية قد تقود الى صهر علم النفس في بوتقة علم الاجتماع أو بالاحرى الى صهر العلوم الاجتماعية في بوتقة علم النفس .

وسنظهر بما فيه الكفاية ، وفي مواضيع مختلفة ، **العلاقة الجدلية القائمة** بين هذين العلمين ،مشيرين أيضاً الىتأثيرالسوسيولوجيا علىتطور **التحليل النفسي**.

التطور تحت تأثير فرويد

إن علم النفس وعلم الاجتماع ، السيكولوجيا والسوسيولوجيا ، من العلوم الفتية . قد يتجاوز عمر علم النفس نصف قرن ، ولايزيد عمر علم الاجتماع ، في شكله الحاضر ، عن ضعفي هذه المدة .

لماذا لم يتم العمل منذ البدء في ظل اتفاق متبادل ؟ إن السبب يكمن في الجوهر الخاص للعلم على وجه العموم ، لدى نشوء هذه المباحث الجديدة . إن

السيكولوجيا عُرفت منذ سنين عديدة : كعلم النفس »، أي كعلم يبحث في النفس وفي الروح ، وذلك على نقيض العلوم الطبيعية التي تبحث في العالم « المادي » معتمدة على التجربة ، لقد كان علم النفس في ذلك الزمان ، علماً عقلياً ، يعتمد على التأملات والاستنباط والتقييم ، اكثر من اعتماده على الملاحظة الموضوعية والاختبارات ، لهذا وقع هذا العلم منذ البدء فريسة مشاكل وهمية مستعصية ، كالعلاقة بين النفس والجسد ، بين العقل والمادة مثلاً . فاختلطت الحدود ، نوعاً ما ، بين علم النفس والفلسفة واللاهوت ، حتى اننا نجد في غضون القرن التاسع عشر فلاسفة ، منهيين بصورة خاصة ، يحددون معالم السيكوجيا العلمية.
ومنذ أواسط القرن التاسع عشر فقط ، ازدهر علم النفس ازدهاراً مريعاً محاولاً حصر مهمته في عالم الخبرة ، كعلم نفس تجريبي . إن العلم الحديث قد غرف حاجياته ومعلوماته من معين الاختبار ، وحاول انكار تحدره من العلوم العقلية الام . ولم يطمح في أن يكون أكثر من علم يبحث في ظاهرات الشعور ، كما يقول ليبز (Lips) ، معتمداً على طرائق العلوم الطبيعية في التحليل والقياس . لكن ، بعد فترة من الزمن ، أضحى علم النفس التجريبي هذا ، مهدداً بالاستحالة الى ضرب من علم الوظائف الحسية (Sinnenphysiologie) ، أضحى علم نفس دون روح ، لانه رفض الاعتراف بتلك العمليات العقلية التي ينكرها التفكير ، لانه لايجد مايشير اليها ، من خلال حوادث فيزيولوجية في المخ ، ورفضه هذا كان بمثابة رد فعل أمام كل ميتافيزيقيا – ويمكن القول خوفاً منها – . علاوة على ذلك فقد تماثلت بعض المفاهيم في هذا الاتجاه ، فاعتبر مثلاً « نفسي » و « شعوري » لفظات متماثلة .

إن مثل هذا الاتجاه في علم النفس ، لايستطيع أن يقدم شيئاً يذكر لعلم

الاجتماع الفني . كانت هناك مسائل أخرى ، في الواقع ، تشغل هذا العلم ،وترمي الى رؤية الانسان ككل ، كوحدة تختبر وتعمل بنشاط واستجابة في ظل الحياة الاجتماعية . ان التحليل الدقيق لعمليات الشعور المختلفة ، والتأمل الثاقب في علاقتها مع الحوادث الجارية في سحاءة المخ لا يأتي بمنفعة لعلم الاجتماع من وجهة النظر النفسية - الاجتماعية . كان يود علم الاجتماع ان يعلم ، كيف صار الانسان الى كنف الجماعة ، ومع الجماعة ايضاً حضارتها ومدنيتها وثقافتها ، على ما هو عليه وفكر كما يفكر ، وعمل كما يعمل ، وقد ظل علماء النفس حينذاك مدينين بجواب على هذا السؤال .

ان البحاثة الاول ،الذي كشف هذه الحالة السيئة، كان وليام ماكدوغال (W . McDougall) .وقد حاول وضع نهاية لهذه الحالة غير المرضية عام ١٩٠٨ في مستهل كتابه « مدخل في علم النفس الاجتماع »[1] واعترف بصراحة، ان الخطأ يقع على كاهل علماء النفس ، لأنهم أهملوا جزءاً يقع ضمن نطاق اختصاصهم، وله أهمية كبرى في العلوم الاجتماعية[2] .

سوف لا نتعرض في بحثنا للسؤال عن مدى نجاح محاولة ماكدوغال

---

(١) An Introduction to Social psychologie . وليام ماكدوغال(١٨٧١ - ١٩٣٨) طبيب وعالم نفسي انكليزي ، نشر كتبه ، أول ما نشر ، في انكلترا ، ثم قدم الولايات المتحدة وعين أستاذاً بجامعة هارفرد ثم بجامعة دوك . يذكر (١٤) دافعاً يصحب كل منها انفعال خاص في علم النفس الغريزي ، كما سنرى ، فغريزة القتل مثلاً انفعالها الغضب ، ويدعو هذه الدوافع بالغرائز أحياناً . وقد شدد على قيمة الغرائز بالنسبة للسلوك والمعرفة . (المترجم)

(٢) لا يقتصر الذنب على علماء النفس فقط . إن نقداً منهجياً لاذعاً لهذه الحالات نجده لدى هلكسن. راجع : H . Helksen. Der Begriff des Staates u . die Sozialpsychologie « Imago VIII , 1922 , S . 97 f . »

في وضع قاعدة مشتركة للعلوم الاجتماعية عامة في « علم النفس الغريزي » . إن نظرية ماكدوغال سادت زمناً لا بأس به دون منازع ، لا سيما في البلدان الناطقة بالانكليزية . وانه لمن دواعي الغرابة حقاً ، أن نجد ، أن فرويد قد أثر على علم النفس الاجتماعي المعاصر في البلاد الانكلوسكسية تأثيراً أعمق من ماكدوغال .

إن كتاب « المقدمة » لماكدوغال يُظهر جلياً ، أن مؤلفه لم يتعرف قط ، أو لم يتعرف بما فيه الكفاية ، على المؤلفات الأولى التي بحثت في التحليل النفسي . لقد أقرّ هو بعدئذ بذلك ، وأصلح من موقفه نوعاً ما ، في كتابه « الموجز في علم النفس »[1] . إلا أن تلك المؤلفات الاولى كانت قد احتوت على جميع العناصر التي يحتاجها ماكدوغال لبناء علم النفس الاجتماعي العام ، الذي يجب ان يكون ، كما طالب هو بذاته ، اساساً لعلم الاجتماع ، – وكان ذلك قبل ان يظهر عمل فرويد الحضاري التاريخي « طوطم وتابو »[2] الى الوجود

---

(١) « Outline of psychology »

(٢) « Totem und Tabu » ، « الطوطم » عبارة عن رمز (غالباً على شكل حيوان) يكسب الرجل البدائي له احترامه وخشوعه ، دونما سبب معقول ، ويظن البدائي أنه ينحدر منه ، وأنه يصد عنه النوائب والخطوب ، وقد تسمى العشيرة باسمه . أما « التابو » فهو ما لا يجوز لمسه ، ويتجنبه المرء إما بعامل الخشية أو بدافع الاحترام لانه يحمل في ذاته قوة سحرية تدعى « مانا » حسب المعتقدات البولينزية . وقد يكون هذا الشيء شخصاً أو منطقة أو موضوعاً ، وأشار فرويد الى أن « التابو » هو تأكيد لتصورات انفعالية ، اجتمع فيها ضدان (ambivalent) ، مثلا تبقى حالة الخوف والشهوة معلقة تحت تأثير التابو . ويقول جيلن (Gehlen) : إن التابو ينظم موقفاً حرجاً ويقوم السلوك ، ويوجد بالاضافة الى الشعائر الدينية والعبادة والطقوس بذور الاستقرار التي بموجبها يحدد الشعور الاجتماعي وجهة نظره ، وبالنسبة لعلم النفس الاجتماعي الحضاري بمعنى هذا المفهوم ، أن الأمور التابوية هي أمور فطرية =

زمن طويل . وتشاء الصدف ، ان ينشر فرويد كتاباً ، يبيّن فيه اوضح مما بيّن في اعماله السابقة ، كيف انه يعي العنصر الاجتماعي في الاسباب المرضية للعصابيين وعياً تاماً . ويكتب أبراهام (K . Abraham) معلقاً على رأي فرويد في كتابه « الاخلاق الحضارية الجنسية والتهيجات العصبية الحديثة »[١] :

« نجد عادة أن العوامل التي تسبب التهيجات العصبية في وقتنا الحاضر ، تعود الى الضوضاء والصخب والسرعة اللاهثة ، التي تسود في مجتمعنا الحديث . إلا أن هذا التعليل لا يكفي ، لأنه لا يعير المُحيطة الجنسية في بحثه عن الأسباب المرضية (Atiologie) للعصابيين اهتماما كافياً . ان حضارتنا تنهض على ضغط وكتم الدوافع ، والاخلاق الحضارية تطالب الفرد الاجتماعي بتحديد نزعته الجنسية تحديداً مفرطاً ... ان الاخلاق الحضارية هي مصدر مرض لأشخاص عديدين . وفرويد يطرح المشكلة متسائلاً ، ألم يطرأ على المنفعة الحضارية من وجود الاخلاق من جراء الاضرار النفسية ، عدم تكافؤ وعدم اتزان ، بين المنفعة وبين ذاك الضغط ؟ »[٢] .

في وسعنا اعتبار هذا المؤلف ، الذي تستخدم فيه تشخيصات التحليل النفسي استخداماً منسقاً لحل المشاكل الاجتماعية ، الاول من نوعه . وقد يُعد خاتمة المرحلة الاولى الفرويدية ، لأن فرويد قد استنتجه من خبراته الطبية ، سالكاً

=معروفة (كعدم ثلم شعور الغير ، وكالنهي عن الفسق بذوي القربى ..) ان التقاليد تضمنها والحق يؤكدها ، انها تجعل السلوك والعمل وأشكال العبادة والشعائر تنساب في قنوات محددة . وقد تستحيل أخيراً إلى رموز ، ذات طابع معين مميز ، لا سيما طابع القسر والقهر ، بتوقع مجتمع معين في كنفها ، أو بالأحرى تفوقه .

(المترجم)

(١) Die Kulturelle Sexualmoral u . die Moderne Nervositat

(٢) Ref . von K . Abraham im «Jahrbuch» 1909 , S 527 .30

منهجاً يكاد يكون ثورياً ، ونلاحظ ذلك في الشواهد التالية وغيرها بوضوح :

« على المرء هنا ، أن يفطن الى العقبات ، ويحـــذر من تبديل جزء من الصلة الصميمية الماثلة في مؤسساتنا الثقافية برمتها ، دون الاكتراث بمجموع هذه الأجزاء »[1].

« من المؤكد ، أنه ليس من مهام الطبيب ، تقديم ارشادات اصلاحية ، لكنني أرى أنه يمكنني معاضدة الضرورة الملحة لمثل هذا الاصلاح » .

ان مساهمة فرويد الجوهرية ، بالنسبة لعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي تنحصر دون أدنى شك ، في هذه المرحلة الأولى ، في وضعه حداً لعلم النفس العديم الروح ، الذي عزل الانسان عن المجتمع ، وقوقعه في تجريد لا طائل تحته ، في موناده بلا نوافذ[2] . ومنذ الكتابات الاولى الفرويدية ، كان الانسان وحدة حيوية ، يجب أن تدرس ككل يعمل فعالاً مستجيباً (aktiv - reaktiv) في خضم الاوضاع الثقافية والاجتماعية .

ان اكتشاف طابع الصراع في الحالات المرضية العصبية ، دعا فرويد الى تركيز اهتمامه ، منذ البداية ، على التأثيرات الاجتماعية – النفسية المنبثقة عن الجماعة ، وخاصة عن العائلة ؛ اذ اتضح له ، أن أعراض الهستيريا تظهر ، حين يقبل المرء المبادىء الاخلاقية السائدة ، أي أخلاق جماعة من الجماعات ، قبولاً واعياً ، ويحاول أن يدفع عنه ذكريات حوادث قد تهدد مكانته الاجتماعية

---

(١) مؤلفات فرويد بالألمانية ج ٧ ، ص ١٥٩

(٢) موناده (Monade) لدى لايبنتز ، الفيلسوف الالماني ، تعني الجوهر الفرد ، فالكون حسب رأيه مؤلف من جواهر روحية بسيطة (مونادات) ، والنفس هي موناده واعية ، لكن بلا نوافذ تشرف على العالم الخارجي ، معرفتها تنبع من ذاتها ، عن طريق الانسجام المسبق .
(المترجم)

بالخطر ، اذا علمت تلك الجماعة بهذه الحوادث . وفي كتابه « الأمراض العصبية الدفاعية »[1] كان قد اثبت فرويد ، أن الحكم السلبي للمجتمع ، وادانته لتصرفات أعضائه ، لا يحول فقط دون قيام الفرد بأعمال معينة ، بل يقود أيضاً الى جعل المحتويات الفردية المنطوية في أعماق النفس ، كالذكريات ، والرغبات ، والميول ، المصطبغة عادة بصبغة جنسية ، بفعل الآليات الدافعة[2] ، مشلولة الاثر ، لأن الشعور ، « لا يتحملها » ، وهكذا تغدو هذه المحتويات ، تحت تأثير عملية الدفاع ، التي تؤدي الى كبتها وازاحتها ، غير مشعور بها .

وإذا ذكرنا ، علاوة على ذلك ، انه في كتابه « ثلاث دراسات حول النظرية الجنسية »[3] قد فسر معنى العائلة وعقدة اوديب[4] ، ووصف عملية الكبت والتصعيد وتكوين الاستجابات ، هذه الدوافع القدرية في الحياة العقلية ، الهامة من الناحية الاجتماعية . يتضح لنا أن كتابه هذا له قيمة مستمرة بالنسبة لعلم الاجتماع .

---

(١) S · Freud A bwehrneurose 1894

(٢) الآليات (mechanismen) هي ، حسب فرويد ، القوانين التي بموجبها تعمل الطاقات النفسية في اللاشعور ، وبواسطتها قد يشبع الفرد دوافعه كالكبت والتصعيد وثبات الفكرة والارتداد والتسويغ . والآليات الدفاعية (Abwehrmechanismen) تكون صنفاً شاملاً عظيم الأهمية من قواعد أو عادات توافقية ، وتنقسم الى دفاعات ذات طبيعة عدوانية نسبياً ، ودفاعات انسحابية تهربية . (المترجم)

(٣) (Drei Abhandlungen Zur Sexualtheorie)

(٤) (odipus . Komplex) نسبة الى أوديب في القصة الاغريقية « أوديب الملك » لسوفوكلس أوديب قتل أباه وتزوج أمه دون علم منه ، فلما علم بذلك فقأ عينيه ، وتنشأ هذه العقدة من ارتباط ليبيدوي نحو الاصل ، وتتميز بكره الأب والميل نحو الأم . (المترجم)

طبعاً لا يسعنا في هذه المقالة تعداد ووصف كل آلية تحليلية ، لها أهميتها النفسية الاجتماعيــة . إلا أنه يمكن تلخيص الاكتشاف الاسامي لعلم النفس التحليلي ، المتعلق بعلم النفس الاجتماعي ، في الجمل التالية : يكمن الشيء الجوهري في أن سلوك الانسان ، ككائن اجتماعي ، تقيده الدوافع ، أو بكلمة أخرى ، يقيده النزوع الى اشباع حاجاته الحياتية . إن علم التحليل النفسي كان قد أشار إلى أن الحاجة إلى الحب ، في جميع وجوهه الفردية أو الاجتماعية ، لها ذات الأهمية القصوى الاساسية ، كالحاجة الى الغــذاء والدفء . ان التحليل النفسي ، كان في طليعة العلوم التي بحثت ووصفت الاشكال المختلفة للحاجة الى الحب ونموها وتطورها :

ان هذه الدوافع التي لا شكل لها لدى الولادة . تأخذ ابّان نمو الطفل تحت كنف العائلة ، طابعاً نموذجياً ، يحدد شخصية الفرد .

وتتميز « الحاجات » الانسانية عن الدوافع الاصلية الاخرى ،لان البيئة الاجتماعية تبدلها و « تستخدمها » . ويتميز الانسان عن الحيوان ، لان في داخله بواعث تؤثر فيه تأثيراً لا شعورياً ، وهذه البواعث ، هي عبارة عن ترسبات خلقية موجودة في هذه البيئة الاجتماعية: ألا وهي الوصايا والاوامر الصميمية ذاتية الحركة . وقد أطلق فرويد على هذه السمات الراسية في الاعماق ، وعلى هذه الضروب من رد الفعل ، اسم « الانا ـــ الاعلى » .

واذا أضفنا الى ما تقدم ، آليات الانتقال والاسقاط [١] والتقمص [٢] ،

---

(١) (Projektion) وهي الآلية التي يصفها فرويد في مؤلفه « الدوافــع ومصيرها » على النحو التالي : « ان الأنا يسلخ من ذاته عنصراً ما ، يصبه في العــالم الخارجي ، ومن ثم يسكب أحاسيسه ومشاعره فيه بصورة عدائية » (مؤلفات فرويد جـ ١٠ ص ٢٥٨) .

(٢) (Identifizierung) وهو عبارة عن رغبة مجتاح الفرد بتقمص =

نكون قد أتينا على تعداد الامور التي ساهم فيها فرويد في مجال علم النفس الاجتماعي العام كاملة .

مؤلفات فرويد النفسية - الحضارية

بعد هذه التأملات العامة ، يجدر بنا أن نوجه اهتمامنا شطر مؤلفات فرويد ، التي تتضمن بطريقة مباشرة ، آراء نفسية - اجتماعية ، ونفسية - حضارية .

طبعاً في البدء ، علينا ذكر كتاب الفكاهة (Witz) (١٩٠٥) ، حيث خصص فرويد فصلا كاملا للبحث في « الفكاهة كحادثة اجتماعية » وقد برهن على أن الفكاهة حادثة اجتماعية ، منطلقاً من قول شكسبير في (الحب الضائع) :

« في أذن السامع وحدها

يكمن تقدير المزاح

وليس في لسان ذلك ،

الذي يرويه ... »

فالشخص الذي يلقي فكاهة ما ، يحتاج الى شخص آخر يستوعب تلك الفكاهة . المتكلم لا يضحك أبداً ، وهو يزيل ضروب الروادع ويفتح المنافذ لتفريغ الاشياء المكبوتة عن طريق الضحك .

أما المؤلف الثاني الاجتماعي ، فهو البحث الذي ذكر سابقاً « حول

= شخصية محبوب - من المحتمل أن يجتمع فيه ضدان - أو على أي حال من الأحوال « التشبه به قدر المستطاع .

الاخلاق الحضارية والجنس » (١٩٠٨) وفي عام (١٩١٢) ظهر كتاب « طوطم وتابو » عمل فرويد التاريخي الحضاري الذائع الصيت ، فيه عثر فرويد، منطلقاً من المعتقدات التابوية والنزعة الطوطمية ، على العلاقات العميقة الكامنة في حياة البدائيين الدينية والاجتماعية ، كما حصل لعالم الاجتماع الفرنسي دور كهايم Durkheim من قبله ، إلا أن دور كهايم ، كان قد اكتفى نوعاً ما ،باستنتاجات صوفية وهي أن الله والمجتمع يتماثلان ، وأن الله ليس سوى التعبير الصوري الرمزي للمجتمع : بينما حاول فرويد ، معتمداً على استيعابه التحليلي لامراض العصاب ، لاسيما أمراض العصاب الناجمة عن القسر (Zwangsneverosen) ، التغلغل الى جذور الروابط النفسية للفرد ، سواء كانت هذه الروابط اجتماعية أم دينية . وقد عثر على تلك الجذور ، بأخذه اعتقاد البدائيين ، أن الطوطم « هو السلف والاب الاول » بالنسبة اليهم ، حرفياً : ان الطوطم كان في الواقع الاب الاول ! وبالاستناد الى فرضية أتكنسون (Atkinson) ونظرية داروين (Darwin) في الرهط ، وطد فرويد دعائم تركيب عظيم ، لكنه جرىء ، لايزال موضع جدل عنيف في علم الاجتماع .

واذا غضضنا الطرف عن مدى ماتحتويه فرضية الرهط من حقيقة ، نلاحظ أن لهذا المؤلف أهمية كبرى بالنسبة لعلم مناهج البحث السوسيولوجي . إن فرويد بتفسيره الظاهرات الاجتماعية والدينية تفسيراً نفسياً ـ فردياً ، مبيناً أن الاصل السيكولوجي للدين والاخلاق يعود الى ردود فعل عاطفية ، إلى علاقة الاب بالابن والعكس ، وضع حداً لصوفية اجتماعية زائفة : لقد اثبت أن دور كهايم كان على حق عندما نادى بتماثل السلطة الالهية مع السلطة الاجتماعية، إلا انه بهذا كشف الستار عن السبب العميق لهـــذا التماثل أو التقمص ،أي عن سلطة الاب ، ومهد السبيل لحـــل مسألة أخرى مهمة ، وهي مسألة « تكوين

الجمهور » . وقد تعرض لهذا الموضوع في كتابه « سيكولوجيا الجماهير وتحليل بنية النفس » (١٩٢١)[1] .

ان عالم الاجتماع الحقوقي المعروف هانس كلزن (Kelsen) قد بين منذ عام ١٩٢٢ أهمية هذا المؤلف في مجال علم الاجتماع[2] . ينطلق فرويد في تأملاته من ظاهرات التجمهر ، كما وصفهاسيغيل (Sighele) ولوبون (Lebon)[3] . كان لوبون قد حدد مفهوم الجمهور (Foule . Masse) . فهي موجود مؤقت مؤلف من عناصر لامتجانسة ملتحمة لفترةمن الزمن . السؤال الهام من وجهةنظر علم الاجتماع الآن : فيما يكمن جوهر هذا « الارتباط » والانضمام ؟

لاشك أن لوبون قد أعطى وصفاًرائعاً للتغيرات النفسية الفردية ،المنبثقة عن واقع نشوء الجماهير ، إلا أن تعليله تلك الظاهرات كان أقل إقناعاً بكثير من ذلك الوصف .

وقد أولى كلزن باعتراضه المبدئي الاولي التالي « بما أن للأفراد ، الذين اندمجوا في صفوف الجماهير ، صفات تختلف عن الصفات التي يتسم بها الفرد في حالة الانعزال، فإننانرى لوبون يتحدث عن (خصائص الجماهير) التي (لانجدها لدى الافراد) ، وبالتالي اصطنع تضاداً بين الفرد وبــين الجمهور « تضاداً ليس له من وجود في الواقع . »

---

(١) (Massenpsychologie und Ich . analyse) .

(٢) راجع مجلة (Imago , VIII . S . 97 f f)

(٣) لوبون (١٨٤١ – ١٩٣١) مفكر فرنسي . مارس مهنة الطب ، وألف كتباً عديدة علمية وأدبية ولاسيما في تاريخ الحضارات . وقد اشتهر كعالم اجتماع نفسي عـ... طو... كتابه (Psychologie des foules) «سيكولوجيا الجماهير» (١٨٩٥) وقد ترجمت معظم مؤلفاته الى العربية من قبل عادل زعيتر ، وخاصة هذا المؤلف تحت عنوان « روح الجماعات » . (المترجم)

علاوة على ذلك، يتحدث لوبون عن « مشاعر الجمهور » و « أخـــلاقه » وعن « وحدته النفسية » وغيرها . فيما يخص هذا الرأي ، قدم كلزن ملاحظته الصحيحة الثاقبة : « إننا نلاحظ أن لوبون يؤكد كل التأكيد ، أحياناً ، على تجسيد وحــــدة مجردة ، كل التجرد ، ووضع واقعي ، ناجم عن افتراض وجود روح جماهيرية ، لعلاقة انسجام المضمون في نفس كل فرد . ونراه يرفض رفضاً مريعاً، الأخذ بالفرضية التي تقول ، أن الأمر لايعدو ان يكون ، في هذه الحالة ، غير تعبير اختزالي ايضاحي لمجموعة من الظواهر المفردة المشابهة » .

« بما أن الأفراد (في ظل الجمهور) يظهرون خصائص جديدة ، فان لوبون يجسد مفهوم الجمهور ، ويعده (جسماً) ، ويعده فرداً جـــديداً يحمل تلك الخصائص الجديدة » .[1][2]

إن فرويد لم يقع في هـذه الأخطاء المذكورة آنفـــاً ، على الرغم من انطلاقه من وصف لوبون . بالنسبة اليه لاوجـود سوى لنفس فردية ، وهـــذا مانجـــده تماماً في مؤلفه « طوطم وتابو » . فالشيء المميز لسوسيولوجيته هو أنه استوعب وفسر ظاهرات روح الجماهير ، في نظرية لوبون ، كظاهرات روح فردية . وطرح السؤال عن نوع تلك الرابطة التي تجمع بين الأفراد في ظل الجماهير، وتصيرهم إلى وحدة ملتحمة ، واستنتج أن هـذه الرابطة هي في الدرجة الأولى الأيروس (Eros)[3] بـ المعنى الواسع للكلمة .

---

(١) في Imago ، المصدر السابق . ص ١١٢

(٢) يقول غوستاف لوبون في كتابه روح الجماعات (ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٣٠) : « وهي كخلايا الجسم الحي ، التي يتألف من اجتماعها موجود جديد ذو صفات تختلف عن صفات كل واحدة من هذه الخليات » . (المترجم)

(٣) Eros ، هو اله الحب لدى الاغريق . ابن الهة الحب أفروديت ، ومرافقها الدائم . في كتاب أفلاطون المأدبة (Symposion) نجد الايروس يجسد العنصر الروحي =

إن الجمهور ، حسب رأي فرويد ، لايمكن أن يقوم له قائم ، دون وجود « قائد » . « ليس الانسان حيواناً قطيعياً .. انما حيوان في رهط ، إنـــه كائن فرد في ظل رهط ، يقوده زعيم » . إن هذا الرأي ينطبق على كل تجمع اجتماعي، والأمر سيان ،إن كان القائد إنساناً ، كما هو الحال ، في « جمهور البدائي ،الأصلي، الطبيعي » ، أو فكرة قائدة ، كما هو الحال، في التجمعات المنظمة والأكثر استقراراً من تلك ، والتي تؤول إلى مؤسسات اجتماعية . أشخاص عديدون متساوون ، في استطاعتهم التماثل فيما بينهم ، وشخص فريد ، يفوقهم قدرة وذكاء : هذه الحالة التي نجدها تتحقق في الجماعة الجديرة بالحياة . « وقد استخدم فرويد » لأول مرة ، كي يشرح علاقة الجماعة بالقائد ، نظريته الجديدة حول بنيته الشخصية ، التي اتخذت شكلها النهائي ، في مؤلفه « الأنا والهو »[٢] . هنا نراه ينطلق من انقسام شعور الفرد إلى أنا وأنا مثالي ،ومن وظائف الأنا ـ المثالي ، كالتأمل الذاتي ،والنقد الذاتي ،والضمير . وقد أوضح فرويد الصلة الغريبة من نوعها ،التي تربط الفرد بالقائد ، مفترضاً ،ان القائد يتولى مهام الأنا ـ الأعلى ، ولهذا يشل فعل الأنا ـ المثالي لزمن معين (هذا يعني طول مدة تكوين الجماعة) . إن « رجل الجماعة » حيوان بدائي في ظل الرهط ، عنيف شديد ، يحيا دون نقد ذاتي ، ودون حواجز » ـ وان اراد القائد ـ ودون ضمير أيضاً » ، لهذا نجد لوبون يصف « النكوص » والتراجع الى حالة بربرية لدى

= والعنصر المادي ، فهو يتوق نحو الحكمة ، كما يتوق نحو اللذة . وتستعمل هذه الكلمة الآن للدلالة على تلك الروح الخفية ، التي تبعث فينا الشوق كي ننزع نحو الحقيقة والصلاح والجمال . فالايروس أو الحب العظيم هو حافز الطموح في الرجولة ، يدفعنا الى اكتمال الذات ، والى معانقة الخير والمطلق ، والحلم بالخلود (سواء عن طريق أبنـاء حقيقيين أم روحيين) .

(المترجم)

(٢) (Das Ich und das Es)

تحدثه عن « الجماعة الاجرامية » إن هذه الحالة كلها يمكن سكبها وتلخيصها في صيغة واحدة : ان الموضوع ، أي القائد ، قد حل بدلا من الأنا ـ المثالي .

إن الجماعة ، حسب رأي فرويد ، تتألف من عدد من الأفراد ، وضعوا نصب أعينهم نفس الموضوع ، عوضاً عن أناهم ـ المثالي . « لقد تنازلوا عن أناهم ـ المثالي واستعاضوا عنه بمثال جماعي ، يتجسد في شخص القائد ، كما هو الأمر في حالة الحب والعشق ،لهذا نرى أنه في استطاعتهم ، أن يتماثلوا فيما بينهم . إن جوهر الجماعة ، إذن ، يكمن في علاقة فريدة مزدوجة الاتجاه : إنها علاقة تربط الأعضاء بالقائد من جهة ، وتربط الأعضاء بعضهم ببعض من جهة أخرى. ومن المؤكد أن الجمهور البشري لايؤول إلى جماعة إلا بواسطة هذه الرابطة المزدوجة الاتجاه . إن أهمية « علم نفس الجماعات » بالنسبة لعلم الاجتماع ، قد تجلت ، في ذلك الحين ، بصورة رئيسية ، في خطوات التقدم في علم مناهج البحث ، والتي أعلن عنها في مقدمة كتابه : « لايستطيع الباحث في الحياة النفسية للفرد البشري ، أن يغض الطرف عن الفرد الآخر ، لهذا فان علم نفس الفرد هو في الوقت نفسه أيضاً ، علم نفس اجتماعي ، منذ البداية ... »

« ... يعالج علم النفس الاجتماعي ، اذن ، الفرد (التأكيد من قبل المؤلف) معتبراً إياه عضواً في عشيرة ، في شعب ... »

ففي نطاق علم النفس الاجتماعي ، وتحت تأثير هذه « القاعدة الأساسية » ، يبدو كأنما قد انتهى أمر تلك المفاهيم الصوفية الزائفة ، كمفهوم « روح الجماعات » ومايشابهها ، حيث تستخدم ، ببساطة كلية ، استعارات لغوية كحقائق . ووفق هذه الطريقة تطور علم النفس الاجتماعي مبتعداً عن أفق التصوف ، كي يغدو علماً .

تنزع في الوقت الحاضر ، إلى تأكيد وجهة النظر الدينامية للدوافع ، كما نؤكد أيضاً التقدم النظري الذي أوضحناه في هذا البحث ، كما ذكرنا ، والذي لاقى شكله النهائي لأول مرة في مؤلف «الأنا والهو» ، لاسيما في إيجاد المعنى المجرد « الأنا ـ الأعلى » .

في الواقع ، إن صياغة هذا المفهوم ، قد كونت جسراً يربط علم الاجتماع بعلم النفس التحليلي . وتكمن المسحة الابداعية في تكوين معنى الأنا ـ الاعلى في تبيان أن التضاد القائم بين دوافع الذات والمحيط ، يستحيل إلى تناقض داخلي ، عندما يتشكل في الجهاز النفسي وتحت تأثير العالم الخارجي الحاجز رادع : الأنا ـ الاعلى .

فما كان قبلاً يطبع بطابع الخوف من العقاب ، يغدو ردعاً خلقياً . والصراع القائم بين الدافع والبيئة يؤول إلى صراع نفسي بين دوافع الذات والأنا ـ الأعلى . وبهذا أثبت فرويد اثباتاً قاطعاً ، أن الوجود يحدد الشعور ، وليس العكس ، مسبغاً على هذه القضية مضموناً واقعياً مجسماً .

ولا يسعنا في الواقع إنكار ، أن « الصيغة الاجتماعية العامة » (Konliguration) (على حد تعبير عالم النفس الألماني بند كت Ruth Benedikt) تحدد إلى حد بعيد نمط عمل الأنا ـ الأعلى ، ومضمون الوصايا والنواهي المنبثقة منه . وقد قدمت أبحاث سوسيولوجية وانثولوجية مقارنة ، في السنين العشر الماضية براهين متواصلة ، داعمة القضية الفرويدية الجريئة . إن هذا الرأي ، حول نشوء الأنا ـ الاعلى ، يفسر أيضاً ظاهرة غريبة في عصرنا الحاضر ، جلبت صعوبات جمة لعلماء الاجتماع ، وخاصة لزعماء الحركات العمالية : وهي أن العمال ، وحتى أولئك الذين يعون طبقتهم ، يلاحظ أن موقفهم في ظروف سياسية او اقتصادية حرجة ، كالاضراب والحرب والثورة المضادة ، لا يتلاءم مع ما ينتظره المومنهم،

نظراً لانجاهم السياسي الواعي ، مع أن ما ينتظر منهم*، يكون في الحقيقة ممكناً ، ويستحق المطالبة في تلك الحالة الواقعية .

إننا نعلم الآن أن مرجع الخيبة في هذه الظروف يعود إلى الصراع الداخلي بين الانا ، مع كامل أفكارها التقدمية الواعية ، والانا الاعلى الذي يدفع الشخصية دفعاً ، وبصورة لاشعورية ، كي تخضع للسلطة التقليدية .

ان أمل الاشتراكيين النظريين ، الذين اعتقدوا وفقاً للنظرية المادية التاريخية ،أن التغييرات التي تطرأ على عملية الانتاج ، ستقود لا محالة تلقائياً الى قيام الثورة ، وبالتالي أيضاً الى تغيير البنية الفوقية الثقافية ، حسب المعنى الاشتراكي ، لم يتحقق كل التحقيق . والذنب يعود الى أثر الانا ـ الاعلى العائق المؤخر .

ويأخذ كتاب فرويد « اللارضى في الحضارة »[١] مع كتابه الذي ظهر قبل هذا بثلاث سنوات « مستقبل وهم » مكانة فريدة في المؤلفات الفرويدية بكاملها . هنا نكاد نشعر بفرويد الانسان ، على نقيض ما نراه في مؤلفاته السابقة ، حيث يبقى شخصه محتجباً ـ ربما باستثناء كتابه « مذكرات حول الحرب والموت » ـ واننا نسمع هنا صوت حكيم طاعن في السن ، يدلي بحكمه الصافي حول عالم تسوده روح فوضوية ، لذا يعم مؤلفاته هذه نغمة توحي بالخاتمة ، فيها القساوة والجلد ، وفيها الاسى المر على أوهام ومثل عصفت بها ريح الضياع ،وفيها الشك والتخبط المتكهن حول مصير الانسان الأوروبي وحضارته . وانه ينطلق من المصادر الثلاثة لآلام البشرية : قوة الطبيعة الفائقة ، زوال الجسم البشري ، وعدم اكتمال البنية الاجتماعية . ويتطرق خاصة إلى السؤال عن علة « النبع » الثالث « للشقاء » ويتساءل ، ألا تعود هذه العلة ،

---

(١) Das Unbehagen in der Knltur)

في الدرجة القصوى ، إلى جزء « ذي طبيعة لاتغلب » ، إلى جبلتنا النفسية ذاتها.

ان الحضارة ، أيه حضارة كانت ، تقوم على الحد من اشباع الدوافع الفردية ، بفضل « التكوين الارتكاسي » و « تصعيد الدوافع » ولاسيما « التخلي عنها » ، « إن هذه المسحة الحضارية ، التي تخيب أمل الدوافع الأصلية ، تسيطر على العلاقات الاجتماعية بكامل مجالاتها ؛ ونحن نعلم تمام العلم ، مسبب روح العداء المتأصل ، الذي يجب أن تكافحه جميع الحضارات » .

إن روح العداء المتبادل يهدد بشكل مستمر حياة الجماعة . إن هذا العداء أولي ، أي معطى مباشرة ، بما أنه وليد دافع التحدي الطليق . من يجد لديه الشجاعة الكافية ، بعد خوضه تجارب الحياة وفهمه التاريخ البشري ، أن يعارض هذه الجملة : « الانسان ذئب للانسان ؟ » (Homo homini Lupus) .

إن جزءاً من هذه التحديات يمكن إزالته ، عن طريق تشكيل فئات وجماعات ، لأنه « من الممكن دائماً أن تتوثق عرى الحب في جماعة من الناس ، وقد يزداد هذا الحب باضطراد ، إذا ظل آخرون يعبرون عن عدائهم وتحديهم » .

وقد يتسرب جزء آخر من التحدي ، إلى داخل الذات ، مع مجرى تطور الفرد ، وهذا الأمر يساعد على بث روح القساوة في الأنا ـ الأعلى ، وفق عملية جدلية وضعها وعرفها فرويد نفسه . رغم هذا يبقى عامل العدوان أو التحدي ، عاملا مزعجاً لانتشار السلام ، انه الخصم العنيد للحب (Eros) ، الذي بدوره يعمل أبداً ضده ، حينما يحاول العدوان ، أن يصهر الأفراد ، في بوتقة واحدة ، تتسع مع الزمن .

هنا تعتمد الافكار الفرويدية على تخيل بيولوجي ، عكس ما نشاهده في مؤلفاته السابقة ، حيث اعتمد على مراقبة الواقع السيكولوجي . فهو لم

بعد يعتبر التطور الحضاري كنتيجة تولد عن الجدلية القائمة بين الانسان والبيئة ، وانما « كعملية خاصة تجري فوق سماء الانسانية ، وتبين لنا الصراع الابدي القائم بين الحب (Eros) والموت ، بين الحياة والفناء . فيلاحظ أن الحتمية البيولوجية قد صيرته متشائماً . ومن المؤكد أن اضافته جملة جديدة ختم بها كتابه « عنصر اللارضى » ، الذي صدر منه طبعة ثانية ، قبل حريق مجلس الامة بأشهر قليلة ، ليس من دواعي الصدفة وحسب ، وهي « لكن من ذا الذي يستطيع أن يتنبأ بشيء عن النجاح أو التدهور (في هذا الصراع) ؟ »

إن الاثر الذي خلفه « اللارضى في الحضارة » في العلوم الاجتماعية ، لا يمكن وصفه بكلمات ، أفضل من تلك التي قالها هرمان هيسه (Hesse) : « كلما أحكمنا تكوين قضية إحكاماً متيناً ، كلما طالبت تلك القضية بنقيضها بشكل لا يقاوم وبكلمات أخرى : ان قيمة هذا الكتاب تكمن خاصة في النقد البناء ، الذي أحدثه لدى رجال السياسة وعلماء الاجتماع وبعض علماء التحليل النفسي .

وقد تعرض فرويد لنظريات المعارضة السياسية حينذاك ، لأننا نراه يعتبر المثل الاشتراكية وهماً من الأوهام في كتابه « عنصر اللارضى في الحضارة » إلا أن فئة من علماء التحليل المحدثين رفضوا التغييرات التي طرأت على نظرية الدوافع في كتابه هذا ، لأن هذه التعديلات هي سبب « الميول التشاؤمية المتحفظة » التي يجدها فيه . وبالاتفاق مع العديد من علماء الاجتماع ، أجمعوا على الرأي القائل ، إن الميول العدوانية في الانسان لا تنجم ، بصورة حتمية ، عن دافع الموت الفطري أو دافع الفناء والابادة ، بل اعتبروا هذه الميول ارتكاسات

طبيعية على ضروب فن الحرمان ، في عهد الطفولة وفيا بعده ، لكن مبدئياً يمكن تجنب هذه الارتكاسات (Reaktionen) .

إن ضروب الحرمان هذه ، تنشأ في السنين الأولى من عمر الطفل نتيجة للتدابير التربوية العديدة التي تريد أن تنظم وتروع أو تضغط ، - فيما يخص وظائف الطفل الحيوية ، كالتغذية والنوم والافراز وحب الحركة ، الحاجة الى التكلم ، الجنس ... - لاشك أن معظم هذه التدابير قاسية أو لا لزوم لها في مجتمعنا الحالي. إن شدة الميول العدوانية تتعلق ، حسب رأيهم ، بنوع وشدة الحرمان ، وهذا ينطبق على الطفل كما ينطبق على المراهقين والكبار . إن درجة الحرمان ، لدى الطفل الصغير تتوقف الى حد بعيد على النظام التربوي السائد في العائلة ، وتلعب الدراسة بالنسبة للتلميذ دوراً هاماً الى جانب التربية المنزلية ، أما بالنسبة للمراهقين والكبار فيبرز أثر البنية الاجتماعية المباشر ، بروزاً أكثر وضوحاً ، وأما المقاييس التربوية ، المدرسية والعائلية ، فتؤثر على هؤلاء تأثيراً غير مباشر ، لكنه ليس أقل فعالية من أثر البنية الاجتماعية المباشر . وقد أجمع هؤلاء الباحثون على الرأي القائل ، ان مشاعر العجز لدى الطفل ، وخوفه من سلطة الأهل ، وقلقه على فقدان عواطف المحبة ، تحول دون اتجاه التحدي أو العدوان نحو خارج الذات . هذا يساعد على حفظ التحدي في داخل الذات . ولا ننسى أن أثر مشاعر الطفل الايجابية إزاء مربيه ، يعمل على دفع عجلة هذه الحادثة الجدلية ، التي تؤدي الى تكوين أنا - أعلى ، يزداد قساوة باستمرار .

وعلى نقيض ما ادعى فرويد ، يجزم هؤلاء ، أن تطور الحياة العقلية ليس تطوراً حتمياً بيولوجياً ، ولا تطوراً يمكن التملص من ربقته ، وتجنبه . فهم يؤكدون ، أن « إنسان » فرويد هو عبارة عن نموذج بشري ، يظهر في زمن معين ومجتمع معين ، وهذا المجتمع المعين يتميز بأنه يلقي على عاتق أعضائه

ضروباً مختلفة من عوامل الردع . فالانسان الذي يثير الشفقة ، والذي يطالعنا في « مستقبل وهم » و « عنصر اللارضى » هو انسان المدنية الغربية الحاضرة ، انسان « مجتمع الحشد » ، هذا المجتمع الذي يثقل الطفل والكبير بأنواع شتى حقيقية من الحرمان .

التراث

إن كتاب فرويد « عنصر اللارضى في الحضارة » هو في الواقع خاتمة المطاف ضمن سلسلة مؤلفاته ، في مضمار علم النفس الحضاري الخاص ؛ ذلك لأن مراسلته مع اينشتاين (Einstein) « لماذا الحرب ؟ » (١٩٣٤) ومؤلفه « الرجل موسى » (١٩٣٧ / ٢٩) لم تأت بشيء جديد يذكر . لذا نضطر أن نوجه اهتمامنا بعد عام ١٩٣٠ شطر مؤلفات تلاميذ فرويد ، الذين استمروا في تطبيق طريقة التحليل النفسي ، إبّان دراسة الظاهرات الاجتماعية ، واضعين نصب أعينهم معلمهم مثالاً .

قد تبع معظم هؤلاء خطوات المعلم باخلاص ، ولم ينحرف مبدئياً باي شكل من الأشكال ، عن الطريقة التي نهجها فرويد . هناك مثلاً محاولات روهايم (Roheim) التحليلية حول علم الشعوب وأصولها ، ودراسات فلوجل (Flugal) التحليلية الاجتماعية ، كتلك التي تبحث في المقاومة اللاشعورية ضد تحديد النسل ، وبحوث كلوفر (glover) في الحرب والسادية . لكن الى جانب هذا ، ظهر اتجاه جديد في الثلاثين الماضية ، تحرك في البدء ، في فسحة تفكيره البسيكولوجي ، فوق أسس التحليل النفسي ، إلا أنه رفض افتراضات فرويد الاجتماعية .

إن هذا الاتجاه اتخذ موقفاً يعارض النزعة التشاؤمية الفرويدية ، ويعارض الميل الذي اجتاح العديد من علماء التحليل النفسي ، الساعي الى صبغ الحادثة الاجتماعية « بالصبغة البسيكولوجية » المحضة ، هذا يعني تعليلها بصورة مستقلة عن البواعث الاجتماعية الواقعية المعطاة فعلاً ، والناجمة عن دوافع لا شعورية . إن الأوضاع الاجتماعية ، التي كانت سائدة في تلك الآونة ، دعت هؤلاء للتشبث بمثل هـــذه الآراء ما فيه الكفاية . كان سلطان الرايخ الثالث قد بسط نفوذه آنذاك في أوروبا الوسطى ، مركز حركة التحليل النفسي العالمية . وقبل أن يلتفت الشر السيامي اليهم التفاتة قاسية ، بفترة وجـــيزة ، وجيزة جداً ، استيقظ فيهم الشعور بضرورة وضع معارف علم نفس الأعماق في خدمة الحركة المضادة للفاشية . وهكـذا أنجز رجال من أمثـال فينيخل (Fenichal) و فروم (Fromm) و رايش (Reich) ، وكـذلك إلى حد مـا لانداور (Landauar) تحت وطأة هذا الكفاح ، عدداً من المؤلفات المفيدة ، والقيمة جزئياً ، والتي تكشف أهميـة التحليل النفســي ، من حيث هو نواة لبنـاء بسيكولوجية مادية تاريخية في المستقبل ، وكان ذلك في السنين الأخيرة ، قبل نزوحهم عن الأراضي الألمانية .

أما من الناحية الاجتماعية ، فكان نشاط هوركهايمر (Horkheimer) ومار كوزه (Marcuse) وجماعتها الفرنكفورتية ، ينصب في الاتجاه ذاته .

يستطيع المرء تلخيص العلائم المشتركة الكامنــة في دراسات هؤلاء الباحثين على النحو التالي : إنهم يعتقدون أن البنية النفسية لانسان عادي معاصر ، مع ما يكمن فيها من « القلق الحضاري واللارضى » انما هي وليدة صراع جدلي لطاقات بيولوجية واجتماعية . ويتميز المجتمع الحالي بالتصنع والترشيد (التنظيم العملي العلمي للانتاج) وتوزيـع العمـــل من ناحية العمل التكنيكي الفني ، وبالتجمعات البشرية (انشاء المدن) ونزوح السكان من حيث الحركة السكانية

(ديموغرافياً) ، وبينية الطبقات ، والصلات الابوية الآخذة في الضعف ، وزمن المراهقة المتأخر كل التأخر ،ونزعة التفكك على الصعيد الاجتماعي . إن هذا المجتمع ـ مستعيناً بنظمه التربوية ـ لا يضغط على النزعة الجنسية لدى الطفـــل المترعرع وحسب ،بل وأيضاً على ميوله العدوانية المتبلورة ارتكاسياً (reaktiv - aggressive) المنبعثة من المجتمع ذاته . كذلك هو الأمر بالنسبة للكبار ، فالمجتمع يعمل على سلبهم كما لا بأس به من اشباع جنسي ملائم وسنهم . لقد أوضح هذا فرويد (١٩٠٨) وأثبته كنزي (Kinsey) إحصائياً قبل مدة من الزمن .

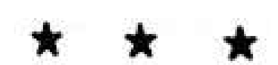
هكذا يعمل على تربية جيل من الأفراد ، ضعيفة أناهم ، يخشون الحرية ويجزعون من تحمل المسؤولية ، لا يثقون بأنفسهم ، يشعرون بالوحـــدة في أعماقهم ، ويتشوقون للعيش في ظل الاطمئنان ، والخضوع لسلطة الوالد ، بدلاً من تربية شخصيات قوية سليمة ، تتحمل عبء المسؤولية . إلا أن المجتمع يعوض لهؤلاء الأفراد شيئاً ما من خلال التكوينات الجماعية : كالأمـــة والعرق ، أو كذلك عصبة سرية أو النوادي . ويحصل المرء من جراء هذا التكوين الاجتماعي، عن طريق « النرجسية الجماعيـــة » ، على صمام يحول طاقته الحيوية الغريزية (الليبيدو)[١] ونزعته الاعتدائية المحصورة . وكلما ازدادت شدة الضغط ، كلما كانت الامكانية اكبر في اختيار الفرد ذي الأنا الضعيفة ـ مع ما يكمن فيه من استعداد لتقبل الديماغوجية ـ هذا الانضمام السهل ، بدلاً من اتباع طريق اكثر صعوبة من أجل اشباع صحيح لدوافعه ورغائبه .

---

(١) Libido كلمة لاتينية تفيد معنى الشهوة ، استخدمها فرويد وقال عنها إنها طاقة حيوية ، شبقية في جوهرها ، فيها تتمثل غريزة الحياة ، والليبيدو لا يشمل لديه غير طاقة الغريزة الجنسية ليس الا . لقد العالم يونغ هذا ، وجعل هذا اللفظ يشمل كل طاقة نفسية « حيوية » الجنسية منها وغير الجنسية . (المترجم)

لهذا فان القلق الحضاري واللارضى عن الثقافة ، ليسا سوى ظاهرة من الظاهرات المرضية السائدة في مجتمعنا الحالي ، وعرض من أعراض تدهوره . ويتحتم علينا اعتبار هذا العرض كشرط مسبق من الشروط الاجتماعية العامة ، التي تؤدي إلى هاوية الانحطاط الكلي .

إن هذا التطور بأجمعه لا يثبت فقط عمق الجذور التي ضربتها اكتشافات فرويد في تربة العلوم الاجتماعية ، بل يثبت أيضاً ، أن هذين العلمين في الواقع ، ينبعان من صلب الحياة .







علي

@alisirosch

" أما نحن ، فنمثل الاستثناء والخطر ." #نيتشه

انضمّ في مايو ٢٠١٦

٥١ المتابَعون **٢،٣٦٨** المتابِعون

مكانة التحليل النفسي في المجتمع

فيلهلم رايخ

ان اتخذنا التحليل النفسي موضوعاً لدراسة اجتماعية تخضع للعلم تعترضنا التساؤلات التالية :

١ – لأي وقائع اجتماعية يدين التحليل النفسي في نشوئه ؟

٢ – مامكانة التحليل النفسي في المجتمع الراهن ؟

٣ – ماالخدمة التي يؤديها التحليل النفسي في ظل الاشتراكية ؟

١ – يرتبط التحليل النفسي ، كأي ظاهرة اجتماعية ثانية ، بمرحلة معينة من التطور الاجتماعي، فهو يخضع أيضاً لشرط وجوده على صعيد معين من العلاقات الانتاجية . إن شأنه شأن الماركسية . كلاهما نتاج العصر الرأسمالي ، بيد أن التحليل النفسي لايمت بصلة مباشرة بالبنية الاقتصادية التي يتسم بها المجتمع ، كما نلاحظ ذلك في الماركسية . على أي حال من الممكن تبيان صلتها غير المباشرة بوضوح : وهي تمثل في رد فعل على العلاقات الحضارية والخلقية من قبل الانسان الوالج في حضن المجتمع .

هنا تطالعنا قبل كل شيء العلاقات الجنسية،التي نشأت مع نشوء العقيدة الجنسية .وكانت الثورةالبرجوازية قد كنست في القرن التاسع عشر الجزء الاكبر من نمط الانتاج الاقطاعي ونادت بأفكار تحررية معادية للدين والقوانين الاخلاقية

السائدة . ونشاهد أنه اتيحت الفرصة لقطع الصلة مع الاخلاق الدينية المتحجرة ابان الثورة الفرنسية . ويبدو أن البرجوازية آنذاك قد نادت بأخلاق جديدة معادية للأخلاق المعترف بها بعامة ، وغرست بذور اخلاق جنسية جديدة بخاصة. الا أن البرجوازية غدت في زمن لاحق رجعية ، بعد أن وطدت دعائم سلطتها وقوي عضد الاقتصاد الرأسمالي في ظلها ، وتبنت الاخلاق السابقة مجدداً ، لانها كانت في امس الحاجة إليها لقمع الطبقة العاملة التي شرعت تبرز للوجود في تلك الآونة . إلا انها تبنتها على شكل مغاير ، لكنه غير مختلف في جوهره . ولاقى تحريم الشهوات الجنسية والمطالبة بالزوجة الواحدة وبعفة الفتيات وبكارتهن وما يتبعه من تبذير للطاقة الجنسية عند الذكور ، معنى اقتصادياً جديداً مطبوعاً والحالة هذه بطابع رأسمالي . ان البرجوازية التي قوضت دعائم الاقطاعية ، كانت قد تبنت جزءاً كبيراً من احتياجاتها الحضارية من صلب الاقطاع ، لكن وجب عليها كذلك اقامة حاجز يفصل بينها وبين « الشعب » بواسطة قوانين اخلاقية تنتمي إليها وحدها .

وهكذا عمدت إلى تضييق الاحتياجات التي ينادي بها الجنس اكثر فاكثر . ونشاهد أن حرية الجنس في الطبقة البرجوازية قد تقلصت آفاقها لاسباب اقتصادية . ويستثنى من ذلك الزواج . أما الشبيبة فنراها تبحث عن اشباع رغباتها الجنسية في احضان نساء وفتيات ينتسبن الى الطبقة الكادحة . لهذا السبب وللتضاد الايديولوجي الماثل بين الطبقات ازدادت حدة المطالبة بالعفاف بالنسبة للفتاة البرجوازية ، وظهرت الاخلاق الجنسية المزدوجة إلى حيز الوجود من جديد على أساس رأسمالي . وكما في دائرة مفرغة ، فهي تؤثر في الحياة الجنسية عند الرجل تأثيراً مروعاً مفزعاً ، وتترك في الحياة الجنسية عند المرأة أثراً مبيداً ، تلك المرأة التي تغدو من جراء نموها ومع تطورها « عفيفة » في ذاتها ، حتى في كنف الحياة

الزوجية ، أي « باردة » تبعث النفور في النفس . وتمكن هذه الحالة أيضاً ظهور الأخلاق المزدوجة ، فالرجل يحاول الاستمرار في ارواء رغباته في حضن امرأة تنتمي الى الطبقة الكادحة ، بينما هو في الواقع يحتقر مثل هذه المرأة من جراء وعيه الطبقي ، ويجد نفسه مرغماً على التمثل « بالأخلاق الشريفة » ازاء العالم الخارجي ، بينما نلاحظ أنه يتمرد ضمنياً على قرينته ، ويظهر خلاف هذه المشاعر للعالم الظاهري ، وينقل مثل هذه الأفكار إلى أبنائه .

بيد أن الكبت الجنسي الدائم والحط من قيمة الجنس يغدوان على الصعيد الجلي عنصر هدم للحياة الزوجية والعقيدة الخلقية الجنسية . وتطل علينا المرحلة الأولى في البدء ، مرحلة تقويض ركائز الأخلاق البورجوازية ، حيث نشاهد تفاقم الأمراض النفسية بشكل ملحوظ ، ونجد العلم الفرنسي المعترف به كعلم ، والواقع هو نفسه في شبكة الكبت الجنسي ، نجده يشمئز من أن تكون الميول الجنسية موضوع بحث ضمن بحوثه ، ونراه ينظر الى الأديب أو الشاعر الذي تشغله مثل هذه المسألة الراهنة أيما اشغال نظرة احتقار وازدراء . إن الأخلاق البرجوازية تفسر الامراض النفسية والامراض العصبية بعامة على أنها مجرد « أوهام » ، وأنها ناجمة عن « إرهاق في العمل » . في نهاية القرن التاسع عشر ظهر كروفيل على هذا العلم الواقع في حوزة الأخلاق ، وأشارة إلى المرحلة العلمية الثانية التي تنبيء بتدهور الاخلاق البرجوازية ضمن الطبقة البرجوازية نفسها ، ظهر باحث يزعم أن النهيج العصبي الحديث ناجم عن الاخلاق الجنسية الحضارية ، وأن ما يسبب الامراض العصابية بصورة عامة كامن في الحصر الجنسي المتفاقم . ان هذا الباحث الذي يدعى فرويد نفي وحرمت مؤلفاته ونعت بالمشعوذ . لقد أصر على موقفه وحيداً فريداً . وسدت الاسماع دونه ردحاً من الزمن . في أثناء ذلك ظهر التحليل النفسي الى الوجود . ظهر مطبوعاً بطابع القرف والاستهجان في

أوساط العالم البرجوازي برمته ، وليس فقط بالنسبة للعلم ، بما أنه يلامس جذور الكبت الجنسي .

لقد ظهرت في الوجود الاجتماعي في ذات الوقت ، دلائل حركة ثورية ضد ايديولوجية المعسكر البرجوازي . فالشبيبة البرجوازية احتجت ضد البيت العائلي وأوجدت حركة للشبيبة تخصها ، تتجلى غايتها في توقها إلى الحرية الجنسية ، لكن بما أنها لم تنتهز فرصة اللحاق بحركة الطبقة العاملة خمد أوارها ، بعد أن وصلت جزئياً إلى مرامها . وعلت أصوات الصحف البرجوازية الحرة بشدة من جديد ضد وصاية طائفة من رجال الدين . وشرع الادب البرجوازي في اتخاذ موقف معين من المسائل الاخلاقية منعتق من قيود التبعية والتقيد . بيد ان جميع هذه الظاهرات التي رافقت ظهور التحليل النفسي جزئياً وسبقته جزئياً باءت بالفشل .

وعندما غدا الأمر رصيناً ، افتقر الى من يحمل الراية بجرأة ويتابع التفكير في المشكلة حتى نهايتها ليصل إلى استنتاجات وافية . إن المصلحة الاقتصادية هي في طليعة الأمور كلها ، وعلاوة على ذلك فقد عقد ميثاق تحالف بين الليبرالية البرجوازية والسلطات الدينية . وكما ان الماركسية تعبر عن الوعي الاقتصادي بصيغة قوانين انطلاقاً من استغلال الاكثرية بواسطة الاقلية ، كذلك التحليل النفسي فهو تعبير عن الوعي بالقمع الجنسي الاجتماعي . هنا يكمن المعنى الاجتماعي الاسامي للتحليل الفرويدي . الا أن ثمة فرقاً جوهرياً بينهما : بينما نجد أن طبقة ما تستغل طبقة ثانية ، نجد أن الكبت الجنسي ظاهرة تشمل الطبقتين معاً ، حتى أن هذه الظاهرة أقدم من استغلال طبقة من قبل طبقة ثانية من حيث منطاق التاريخ البشري . غير أن هذا الكبت لا يتساوى كماً في الطبقية .

ان شكل الحياة الجنسية الذي يطبع الطبقة العاملة يتميز ويتأثر بوضعها الاجتماعي المؤسف ليس إلا ، هذا الوضع الذي نجده اليوم في الظروف الاجتماعية للطبقة الكادحة المبتذلة . لكن عندما اتخذت الطبقة الحاكمة المسيطرة اجراءات سياسية واجتماعية وراحت تمارس « رعايتها » بقدر ما يتمشى هذا وخدمة مصالحها ووجودها الذاتي ، سرت في غمرة النشوء الرأسمالي هذا عملية برجزة الطبقة العاملة برجزة ايديولوجية ازدادت صبغتها يوماً بعد يوم . ومن خلال ذلك سرت عدوى الكبت الجنسي بين صفوف الطبقة الكادحة ، لكنها لم تبلغ الابعاد التي نجدها لدى البرجوازية الصغيرة التي أضحت بابوية اكثر من البابا ، والتي اقتفت أثر المثل الاخلاقية الماثلة في قدوتها ، ألا وهي البرجوازية الكبيرة ، بصورة اكثر حزماً وشدة من هذه الاخيرة ذاتها ، التي كانت قد صفت حسابها في اعماقها مع اخلاقها منذ زمن طويل .

ان مصير التحليل النفسي في المجتمع البرجوازي مرتبط بالمسألة التي تبحث في موقف البرجوازية من الكبت الجنسي أو بالاحرى ترفعه .

٢ ـ ما مكانة التحليل النفسي في المجتمع الراهن

ونطرح السؤال التالي : هل باستطاعة البرجوازية حمل عبء التحليل النفسي مع مر الزمن دون أن يلحقها من جراء ذلك أي حذر ؟ أي شريطة ألا تقع المعلومات والصيغ العلمية في تسطح المعاني بدون أن يشعر بذلك القائمون على هذا العلم . ان مؤسس التحليل النفسي ذاته كان قد تنبأ له بمستقبل لا يدعو إلى التفاؤل ، واعتقد ان العالم سيودي باكتشافاته بشكل من الاشكال لأنه لن يتمكن من أن يحتملها . ومن الواضح أنه دار في ذهنه نصف هذا العالم أي الطبقة

البرجوازية . اذ ليس في ذهن الكادحين العاملين أي فكرة بعد عن التحليل النفسي ولم تصلهم أي معلومات بهذا الشأن بعد . اننا نحن الذين لا نستطيع أن نجزم كيف سيكون موقف الكادحين من التحليل النفسي ، نملك أدلة كافية لدراسة موقف العالم البرجوازي . ان رفض التحليل النفسي يرتبط بصورة مباشرة مع الأهمية الاجتماعية للكبت الجنسي . لكن ماذا يصنع العالم البرجوازي بالتحليل النفسي ان لم ينبذه . هنا نجد من جهة العلم ، خاصة علم النفس والطب النفسي ، ويطالعنا في جهة ثانية الجمهور العلماني . وينطبق على كليهما ما قاله فرويد على سبيل المزاح وبلهجة من به شك : ان قبول التحليل النفسي لهو مدعاة للتساؤل : أيقبله المرء كي يحافظ عليه أو كي يهدمه . وعندما يصدف ويقع التحليل النفسي بين أيد متقفة تثقيفاً تحليلياً جيداً ، يصعب على المرء تبين العمل الفرويدي في مؤلفاتهم ثانية ، ويذهبون إلى أن أمر الميول الجنسية قد يكون صائباً ، بيد أن هنالك المغالاة .. وهنالك مكانة الاخلاق عند الانسان .. ويتابعون : لا ريب في أن التحليل طريقة صائبة ، لكن ثمة التآلف ، وهو ليس بأقل أهمية . وعندما عمد فرويد إلى انشاء نفسانية (بسيكولوجية) الأنا ، منطلقاً من النظرية الجنسية ، تنفس العالم العلمي الصعداء بشكل ملحوظ : أخيراً بدأ فرويد بتضييق دائرة لا عقلانيته وسخافاته ، أخيراً أتى ذكر « الأمور الراقية » الماثلة في الانسان ، ولا سيما الاخلاق بعامة . ولم يمض طويل وقت ، حتى طرق المسامع الحديث عن مثل الأنا ، وأضحت الميول الجنسية مبررة تبريراً تافهاً مؤطراً ، فهي أمر مفترض افتراضاً لا بد منه وغني عن البيان .. وجرى الحديث آنذاك حول عهد جديد يشق آفاقه أمام التحليل النفسي وعن بعث جديد . بتعبير آخر ، لقد أضحى التحليل النفسي جديراً بالعيش في كنف المجتمع .

وبدا الأمر في صفوف سواد الناس مدعاة للاشمئزاز ، اذ تملك هذه الصفوف

الشعور ، خاصة تحت ضغط الأخلاق الجنسية البرجوازية ، بأن التحليل النفسي عبارة عن « موضة » عصرية لاشباع الرغبات ، فعمد بعضهم إلى تحليل عقد نفسية مائلة لبعض . ودار الكلام حول رموز الحلم في الصالونات عند شرب الشاي بعد الظهر ، وتجاذبوا أطراف الاحاديث وتجادلوا رغم جهلهم المطبق بهذا الأمر ، لأن محور الحديث يدور حول التحليل النفسي ليس إلا . وكانوا بين محبذ له ورافض . بعضهم تملكهم الحماس من « الفوضية » الرائعة ، والبعض الآخر وهم ليسوا أقل جهلا كانوا قانعين ، بان فرويد ليس سوى طبيب جاهل ، ومانظريته سوى فقاقيع من الصابون . وجرى الحديث أيضاً عن هذه القيمة الجلى التي يغدقها على الجنس ، كأنما ليس في الوجود أي أمر راق إلا الجنس ! وعلى هذا نجد أن « النقاد » هبطوا إلى حلبة الجدال في الأمور الجنسية . وقد تشكلت في أميركا الجمعيات والنوادي لمناقشة التحليل النفسي . وغدا هذا العلم تجارة رائجة . وهكذا تبدى الوجه الخارجي لهذه المشكلة .

وكيف تبدو المشكلة من الداخل ؟

خية أمل أنرخية . اذ لم يستطع الباحثون الدفاع عن نظرية ضغط الكبت الجنسي . وقد قلب يونغ النظرية التحليلية برمتها رأساً على عقب ، وصاغ منها عقيدة ليس للأمور الجنسية من ذكر فيها . وكذلك عملية الكبت الجنسي عند الباحث أدلر تقودنا الى الموضوعة التي تذهب إلى أن الأمور الجنسية ليست سوى شكل ظاهري من اشكال ارادة القوة ، وبالتالي يدعو إلى الابتعاد عن التحليل النفسي وتأسيس مجتمع يقوم على الأخلاق . أما رانك الذي كان تلميذاً موهوباً من تلامذة فرويد ، فقد استطاع من خلال طمس معالم الليبدو على صعيد بسيكولوجية الأنا ، استطاع أن يجوز على نظرية حلم الرحم والولادة ، ناكراً في النهاية المعارف الجوهرية القائمة على التحليل .

إن الكبت الجنسي يترك أثره أبدا ودوماً في التحليل النفسي ، وعدا هذا يمكننا أن نشاهد ، في حلقات التحليل النفسي ذاتها ، الالتزام الاقتصادي والاجتماعي في عملها المقلل من وطأة التطرف والقسوة والداعي الى اتخاذ حل وسط . وبعد ظهور « الأنا والهو » لفرويد ، لم يعد هناك من ذكر لمفهوم الليبيدو ، وقد بذلت المحاولة لصك نظرية العصابيين برمتها من جديد بناء على تعويضات الأنا . واتفق على أن عمل فرويد الضخم يتمثل أصلاً في اكتشافه الشعور اللاواعي بالذنب ، وعلى أن العلم قد تغلغل بهذا وحسب إلى صميم ما هو حقيقي وجوهري .

وفي ميدان معالجة الأمراض العصابية ، حيث يدور الأمر حول تطبيق عملي لنظرية ثورية كل الثورة على انسان المجتمع الرأسمالي ، يتجلى الميل نحو اتخاذ الحل الوسط والاستسلام تجاه الاخلاق الجنسية البرجوازية . إن المكانة الاجتماعية للمحلل تمنعه أحياناً من التحدث بصراحة وأمام العموم ، لا بل قد يكون التحدث مستحيلاً . لاسيما الافصاح عن عدم تلاؤم الاخلاق الجنسية الحالية : الزواج والعائلة البرجوازية والتربية البرجوازية ، مع المعالجة التحليلية النفسية الجذرية لأمراض العصاب . حتى انه لا يخفى في جهة ثانية ، ان العلاقات العائلية لا جدوى ولا عزاء فيها للمريض وبأن محيطه هو المانع الاكبر الذي يحول دون رجوعه إلى الصحة . وقد يعتري الانسان الخجل ـ وهذا أمر مفروغ منه ـ من استخلاص هذه النتائج من مثل هذه الاثباتات .

وعلاوة على ذلك ، يصدف أن يفهم المرء تحت مبدأ الواقع والملاءمة مع الواقع ، لا النشاط الواقعي والاندماج في الحياة ، لا بل الانسحاق والخضوع التام للمتطلبات الاجتماعية ذاتها ، التي تكون قد سببت المرض العصابي . ومن البديهي أن مثل هذا الفهم مضر في الممارسة العملية للتحليل النفسي للشفاء من الأمراض العصابية .

وهكذا يضيق نمط التحليل النفسي الرأسمالي الراهن ، يضيق الخناق على هذا التحليل من الداخل ومن الخارج . ولدى فرويد الحق ، ان علمه يتدهور . لكننا نضيف إلى ذلك : في المجتمع البرجوازي حين لا يتلاءم هذا المجتمع مع هذا العلم . لكن ان انسجم معه سيعاني الموات ذاته بالتأكيد ، الموات الذي عانته الماركسية على يدي المصلحين الماركسيين : أي عن طريق السطحية في معالجة الأمور ، ولا سيما اهمال نظرية الليبيدو .

بما أن التحليل النفسي سيدق المسامير في تابوت الايديولوجية البرجوازية ان طبق بصورة لا تطمس معالم المفاهيم ، وأبعد من هذا ، بما أن الاقتصاد الاشتراكي يشكل أساس الازدهار الحر للفكر والحياة الجنسية ، نجد أن مستقبلاً للتحليل النفسي ماثل في الاشتراكية ليس إلا .

٣ـ ما الخدمة التي يؤديها التحليل النفسي في ظل الاشتراكية ؟

كنا قد وجدنا أن التحليل النفسي لا يستطيع منطلقاً من ذاته بناء أي مذهب حياتي . وبالتالي لا يستطيع أيضاً أن يتخذ مكانة مذهب حياتي . غير أنه يحمل في طياته انقلاباً للقيم ؛ إنه يقوض عند الأفراد الشعور الديني والعقيدة الجنسية البرجوازية ويحرر الجنس من حوزة الكبت لدى تطبيقه العملي . هذه الامور تطابق أيما تطابق مع الوظائف العقائدية التي تتسم بها الماركسية . ان الاشتراكية تقلب القيم القديمة معتمدة على الثورة الاقتصادية والنظرة المادية الى الكون . والتحليل النفسي ينهج نهجاً مماثلاً أو في وسعه أن ينهج هذا النهج ذاته من الناحية النفسانية . لكن بما أنه يتحتم عليه أن يلبث دون أثر من الوجهة الاجتماعية في المجتمع البرجوازي ، ليس في مقدوره بلوغ هـذا الاثر إلا بعد انجاز الثورة

الاجتماعية . اعتقد بعض العلماء المحللين ، انهم يستطيعون تغيير وجه العالم عن طريق «التدرج» مستعيضين بالتدرج عن الثورة الاجتماعية . ان هذا الرأي مجرد طوباوية وضرب من الخيال ، مبني على جهل مطبق بالوجود الاقتصادي والسياسي[1] .

يبدو أن القيمة الاجتماعية للتحليل النفسي تكمن مستقبلاً في ثلاثة مجالات :

١ - في مجال البحث في التاريخ البشري البدائي كعلم مساعد في اطار المادية التاريخية . ان التاريخ البدائي المترسخ والمكثف في الاساطير وعادات الشعوب وتقاليد البدائيين، الذين لا يزالون يعيشون حتى اليوم ، لهو صعب المنال منهجياً بالنسبة إلى علم الاجتماع الماركسي غير أن هذه المساعي ستتكلل بالنجاح ان تلقى هؤلاء المحللون ثقافة اجتماعية واقتصادية جد عميقة ، وان استغنت هذه الثقافة عن المذهب الفردي والمثالي للتطور الاجتماعي .

٢ - في مجال الصحة النفسية ، التي لاتنمو وتتطور إلا في تربة الاقتصاد الاشتراكي . ويصح أن تتحقق المطالبة بحياة اقتصادية جنسية منتظمة في ظل البيت العائلي والتدبير المنزلي ، على اساس الاقتصاد المنظم . وهذا ما هو محروم عادة على سواد الشعب من اشكال برجوازية في الحياة ، ولا يحظى بهذه النعمة

---

(١) ان الرأي القائل ، ان في وسع التحليل النفسي توسيع دائرة أثره كقوة اجتماعية بعد انجاز الثورة لهو مسألة ضحلة الرؤى ، سادت جو الماركسية الاقتصادية اليسارية المتطرفة . ان التجارب في ألمانيا ، ولا سيما رد الفعل السريع للشبيبة في جميع الصفوف على المحاولات السياسية الأولى المتعلقة بالجنس ، والتي كانت ترمي إلى ادخال السياسة في الحياة الخاصة ، علمتنا أن الاستهواءات الجماعية النفسية للتناقضات الكامنة بين حاجات الجنس والعوائق الخلقية تغدو بمثابة حافز أساسي وهام على صعيد السياسة الثقافية في سبيل العمل الثوري .

سوى أفراد قلائل . ونجد أن المعالجة الفردية لأمراض العصاب ستأخذ مجراها وتلمس أزها انطلاقاً من هذه الأثباتات .

٣ ـ في المجال التربوي كأساس بسيكولوجي للتربية الاجتماعية بعامة .

ولا يمكن الاستغناء عن التحليـــل النفسي بسبب المعلومات التي يتضمنها حول النشوء النفسي عند الطفل . ونجد أنه قد حكم عليه ، من حيث هو علم مساعد لعلم التربية ، بالعقم في المجتمع البرجوازي،هذا اذا لم نقل بأسوأ من ذلك . بما أن المجتمع البرجوازي لايمكن أن يقوم بتربية إلاتربية تخدم مصالحه لأن القيام بتربية تخدم مصالح مجتمع آخر هي خيالية عملياً ، فليس في وسع علم التربيـــة التحليلي النفسي أن يطبق قبل الثورةالاشتراكية إلا لصالح المجتمع البرجوازي . والمربون الذين يعتمدون على التحليل النفسي في تربيتهم ، والذين يشرعون في تغيير هذا المجتمع ، يجوز أن يلقوا مع مر الزمن مصيراً يشابه مصير ذلك الراهب ، الذي زار موظفاً يعمل في مؤســـة التأمينات ملحداً يحتضر ، كي يرده إلى جادة الصواب ويرجعه إلى حضن الايمان ، بيد أنه حين غادره كان قد أمن على نفسه فحسب . ان قوى المجتمع لأقوى من المساعي التي يبذلها أفراد من اعضائه .



القانون الجنائي والتحليل النفسي

د . هوغو شتاوب

كما أن المعارف النابعة من التحليل النفسي دعتنا إلى النظر جلياً في موقفنا من ذواتنا ومن واجبنا ، كذلك دعتنا الى أن نراقب من جديد علاقات البشر مع بعضها البعض وعلاقتهم بالحياة الاجتماعية في ضوء وجهات النظر التحليلية البعيدة . مهما يكن نوع المؤسسات التي نضعها موضع اعتبارنا ، لابد لنا أن نقرر ، أنه ليست غايات مادية ، انطلاقاً من تفكير واع قد شكلت بالدرجة الأولى قاعدة المؤسسات الاجتماعية ، إنما هذه المؤسسات قد نشأت وفق قانونية مستمدة من حوافز لاشعورية ، بحيث أن الوعي - الشعور الواعي والادراك - وجد نفسه مضطراً بعد ذلك إلى التلاؤم مع الحاجات المتمدنة ، أي أن العقل وضع لها أسباباً مناسبة وسمها بسمة العقلنة . هذا الأمر ينطبق بصورة خاصة على مجال علم الجرائم ، هذا الفصل في فصول الحياة الأجتماعية الأشد غموضاً والأكثر تخلفاً على صعيد التطور التاريخي .

الجنحة والعقاب قديمان قدم المجتمع ذاته ، ذلك أنه منذ اللحظة التي انضم فيها الأفراد في كنف جماعة . ونصبوا قوانين معينة تحدد حياتهم الجماعية ، وجدت بالضرورة كمطالب تقع على عاتق الأفراد وتحد من اشباعاتهم ورغباتهم وذلك لصالح المجموع . ولم نفتقر في زمن من الأزمان إلى أشخاص عمدوا إلى كسر طوق هذه القوانين لأسباب متنوعة . إن مجابهة المجتمع لمثل هذه الاعمال المنكرة

اللا اجتماعية (الجرائم) يتم إلى يومنا هذا بفرض عقوبة من العقوبات ، وهذه الصورة هي الصيغة المشروعة لاطفاء لهب حقد « العدوان الجماعي » ضد الفرد البشري المعتدي .

ولئن نلقى الجريمة والعقاب ماثلين منذ أن كونت مجتمعات بشرية ، غير أن وجهات النظر حول ماهية الجريمة ، وأي نوع من العقوبات ينبغي أن تطبق ، قد طرأ عليه التغير وخضع لتطور مستمر . من المتوقع أن تكون الجرائم الأولى التي اقترفها البشر ابان سيادة « قبائل الرعاة » قتل الأب والفسق بذوي القربى ، أما الصيغة القديمة للعقاب فتتجلى في الانتقام ، الذي يهدف إلى افناء فاعلي السوء . وهذه الأمور تركت آثارها حتى عصرنا الحالي . لنتذكر « ثأر الدم » عند الشعوب الرومانية ، والخروج عن القانون و « المحرمات » عند الشعوب الجرمانية .

إن الاجراءات التي اتخذتها القبائل فيما يتعلق بالجريمة ، والتصرف المتوافق مع الدوافع البشرية والناهض على شريعة « العين بالعين والسن بالسن » طرأ عليه بعض التعديل في مجرى التطور . أن نسبة الأعمال المتسمة بسمة جريمة ارتفعت ونوعيتها ازدادت ، الا أن العقاب قد خفت وطأته على نحو مستمر . ان مبدأ الانتقام والثأر غير المقيد لم يعد ينسجم والمتطلبات الخلقية في حياة مجتمع تطور أكثر من السابق ؟ ان نزعات الثأر والانتقام العنيفة مازلنا نجدها في الشعب ، إلا أنها تضغط تدريجياً وبفضل التفاهم المتزايد الى ساحة اللاشعور . وعوضاً عنها ظهرت امارات التلاؤم مع الظروف فيما نسميه « النظرية الوقائية » التي تحاول منع المجرم من العودة الى الاجرام ومنع الآخرين من الاقتداء به ، وتعليق العقاب في سبيل الغاية والسبب ، وتبرير الجريمة . في الواقع لا يحقق القانون الجنائي الغاية الموجودة من هذه أو تلك على نحو يجدر ذكره . انما القانون يخدم سابقاً ولاحقاً ،

وفي المصاف الأول ، أمر الحاق ضرر بالمجرم ، هـذا يعني الاجابة عن عدوان ينشب من هيجان منكر بعدوان مماثل ، وأن يتسم بروح تنظيمية ، خفيفة الوطأة أحياناً .

ان الحق الذي يكتسبه المجتمع في سبيل حماية اعضائه الأفراد ازاء التصرفات المنكرة اللا اجتماعية ، لاجدال فيه ، كذلك لا جدال في أن المعرفة الدقيقة للحوادث النفسية (الآلية النفسانية) عند المجرم ، مضافاً اليها استيعاباً عميقاً لجمل القانونية التي قد تقودنا الى وضع نسق ما منبثق من دراسة ردود الفعل النفسية عند الفرد على السيئات الشائنة التي تلحق به وعلى الواجبات الملقاة على عاتقه ، يرفع من شأن الامور الجنائية حقاً ويسبغ عليها معنى جماعياً ، ويخدم الانسجام مع الحياة الاجتماعية .

ان أثر التجارب التحليلية النفسية في القانون الجنائي والدعوى الجنائية سنترك أثرها حين تنقى الاجراءات الدائرة في المحكمة من التأثيرات اللاشعورية النابعة من ضروب التهيج التي قد تجتاح رجال الحكم والعدالة . كذلك يتحلى القاضي بعالم اللاوعي ، كذلك قد يخضع بصورة لا شعورية لمؤثرات تسترق الخطأ إلى قبالة المتهم . إن هذه المؤثرات تبدو في قساوة مظهر الحاكم ، وكأنه قد اتخذ مسبقاً رأيه ، بما أن عالم اللاوعي يعمل فيه وفق مبدأ المثل بالمثل (شريعة القصاص) على هذا لا يكون غالباً وعي القاضي هو القضاء الفاصل الحق ، انما عامل غريزي سادي . ونجد هذا العامل ينقرض بين الدوائر الشرعية المنفذة على الصعيد القانوني ، لكنه يزول على نحو غير ملائم بتاتاً على الصعيد الاجتماعي .

ومن المهام التي تقع على عاتق محلل نفسي بصفته خبيراً في الطب ، كما تقع على عاتق محامي الدفاع الملم بمجالات التحليل النفسي ، تقديم فكرة واضحة عن الحوافز الحقيقية الشعورية منها وغير الشعورية ، للمحكمة ، حول الفعل الاجرامي

المطروح ، استناداً الى نتائج البحوث في علم نفس الأعماق . اعتماداً على هذه الامور تتاح للقاضي فرصة القاء حكم صائب قدر الامكان بناء على استيعاب موضوعي للقضية .

إن علم التحليل النفسي عكف على دراسة المجرم والجريمة كونها ظاهرة اجتماعية شاذة بطريقة مماثلة للطريقة التي مورست في حقل العصاب والعصابيين ، سابقاً لم يدر المجتمع ولا علم الطب كيف يبادر الى اتخاذ اجراءات صائبة في هذا المضمار . مع تقدم هذه المعارف وتطويرها أضحى بامكان هذا العلم إسداء الاقتراحات واتخاذ الاجراءات التي تتناسب كل التناسب لجعل الشاذ اجتماعيا اجتماعي النزعة أو على الأقل وقد الامكان تجنب المرء القيام بعمل اجرامي .

١ ــ الشعور بالذنب والاجرام

كان الاعتقاد السائد حتى الآن ، أن المجرم يقترف فعلته المنافية للقواعد الاجتماعية غالباً طلباً للكسب ، أو في حالة مؤثرات عاطفية انفعالية تحت وطأة عجز الروادع الاخلاقية السوية ، وأن الشعوربذنبه ينحدر قبل أن يبادر إلى فعلته المنكرة ، أو أن هذا الشعور واهن لديه جداً . لكنه بعد اقتراف جريمته يبرز الشعور بالذنب في صورة ندم . غير أن فرويد أشار إلى نموذج من البشر تمثل لديه شعور بالذنب خاص قبل المبادرة إلى الفعل ، ويسبب مباشرة القيام بالجريمة . إن هذا الشعور بالذنب الاجتماعي الماثل في نفسيات البشر على اختلاف مشاربهم بصورة متفاوتة من القوة اكتشف أمره التحليل النفسي ، مبيناً ، على أنه متأصل في عقدة أوديب . ويعرف فرويد هذا الشعور بالذنب على أنه رد فعل على كلا

الرغبتين الاجراميتين الضخمتين عند البشر في مرحلة الطفولة ألا وهما : الرغبة في قتل الأب والرغبة في امتلاك الأم .

بينما نجد أن الانسان السوي يتغلب على هذا الارتباط المحرم بذويه في خضم دوافعه ، ويجد اشباعاً مشروعاً لدوافعه في العالم الخارجي ، لايستطيع آخرون ، ولاسباب معينة ، التنازل عن رغباتهم الأوديبية المجرمة . إن مضمون هذه الرغبات ينضغط من ساحة الشعور ، بيد أنها تلبث حية في أعمـــاق الباطن اللاشعوري ، وتسبب شعوراً بالذنب كثيباً مستمراً . أما مصدر هذا الشعور فيبقى خافياً عن الوعي . وحصيلة هذا انزال العقوبات بالذات وايلامها بمختلف الطرق . كما ان العصابي يتلقى اشباعاً بديلاً في عرض العصاب من جراء رغباته المكبوتة ، ويعاقب ذاته في نفس الوقت من خلال العرض كي يخفف من شعوره بالذنب ، كذلك يبلغ الأثر نفسه « المجرم انطلاقاً من الشعور بالذنب » من خلال قيامـــه بالعمل الاجرامي . إن الأمور المكبوتة تعـــاود الظهور في صورة أوحى ، طافية على صفحة الشعور ، في غمار التوق للجنحة ، التي تتجلى غالباً في هفوات بسيطة ترتكب ضد الملكية . ان الفعل الاجرامي الخفيف الوطأة يحقق ، قبالة الرغبة المحرمة المكبوتة ، اشباعاً بديلاً . ومن خـــلال معاناة مشقة العقاب القانوني توهن المشاعر بالذنب ـ ذلك العقاب الذي هو أخف وطأة من الاحساس بالعدل النابع من لاشعور المجرم وفق شريعة القصاص المثل بالمثل ـ

ان المجرم (بناء على شعوره بالذنب) ينعتق اذاً من الضغط الناجم من شعوره بالذنب عن طريق تنفيذ جريمته ـ ذلك الضغط المجهول الاصل ولذلك المريع والمثل لحركته ـ بما أنه على الاقل وبطريقة ما يأوي ـ على حد تعبير فرويد ـ وعيه بالذنب . ان قانون العقوبات الحالي ينظر إلى هذا النمط من المجرمين نظرة جهل كذلك نظرة وتقدير المختصين في الطب المتوسطي الذكاء . إن العقاب المفروض حسب القانون تعد في هذه الحالة صيغة مجحفة غير ملائمة لرد

فعل المجتمع . وبغض النظر عن أمور مثل الردع أو التحسين أو الوقاية ، فان العقاب هو الغاية المنشودة اللاشعورية التي في سبيلها يعترف مثل هـذا النوع من البشر جرائمهم . فان يحرز العقاب في هذا المقام نجاحاً ما ، فهذا النجاح يكمن في أن هذا العقاب يحطم من خلال العذابات المحتملة في الشعور بالذنب لفترة من الزمن ، أو أنه يخفف من أعباء هذا الشعور . بيد أن المريض لا يلقي الشفاء التام بهذا العقاب ، هذا اذا لم نقل أنه يغريه للقيام بأفعال جديدة ...

بما أن نسبة هذا النموذج من المجرمين تطالعنا أكثر مما نتصور ، فلاينتابنا العجب ، إذا وجدنا أن مجرمين عديدين يقعون مجدداً في شباك الجريمة على الرغم من العقاب . وفي الواقع يصيرون إلى ما هم عليه بسبب العقاب . فالقانون الجنائي له اذاً مفعول يتعارض مع غايته الاجتماعية المنشودة ، فبدلاً من أن يتقي خطر الجرائم الجنائية الجديدة ، نجده في هذه الحالة يشجع على ارتكابها .

ان المجرم الذي ينوء تحت عبء الشعور بالذنب ، معرض لان يخضع في معظم الحالات ، لاسيما بسبب وطأة ألوان الشعور بالذنب ، لتأثير التحليل ، وأن يعافى بفضل التحليل النفسي. انه أقرب ، بحسب طبيعته النفسية ، إلى العصابي منه إلى المجرم الحقيقي ، الذي يفتقر الى عقدة الشعور بالذنب .

٢ — المدغور (المصاب بهوس السرقة)

جنة الاختلاس أو هوس السرقة سوء يجتاح النفس فيجعل من الانسان لصاً . إنه لأمر شائع في الاوساط الشعبية أن يختلس امرؤ شيئاً ما تحت وطأة ضغط نفسي لايقاوم . إلا أن الطب المدرسي والقانون يدرجان غالباً مثل هذا الهوس في سجل عالم الخرافات ، وتنعت الأقاويل العامة حوله بأنها أقاويل

جوفاء . وقد تمكن التحليل النفسي من اثبات امارات هوس السرقة في نفسية معظم الاطفال . وغالباً مانلمس هذا المرض بصورة رئيسية عند النساء اللواتي يختلسن الأشياء على نحو عشوائي بدون أن يتملكهن أي انفعال أو حتى أي شعور بالذنب . انهن في غمرة وقوعهن في موجة الهوس هذه ، يرضخن لنوع من الارغام والقسر ، ويبدو أن لا الجهد الذي تبذله الارادة ولا التفكير الواعي يتمكنان من وضع حد له .

ان جذور هوس السرقة هذا متأصلة في شعور عادي لكنه قوي عند المدغورين بخاصة ، وهو شعور يستحوذ على نفسية جميع الطفلات ويعود الى ما يسمى « بالحسد . على القضيب » . من تربة هذا الشعور تنبثق رغبة المرأة المكبوتة في انتزاع قضيب الرجل المحسود . وتتابع هذه الرغبة حياتها بصورة قسرية في أعماق اللاوعي ، إلى أن تجد تعبيراً لها ألطف يطفو على صفحة الشعور ويتجلى في سرقة أشياء مغرية . بما أن الغاية من هذه السرقات تعويض الاجحاف التي تحس به المرأة في تكامل اعضاء جسدها ، فتعلم هي ، على الرغم من الشعور بالذنب ، بأنه مهما تعارض هذا الهوس مع مكانتها الاجتماعية ، ليس لديها في اليد حيلة إزاء استحواذه عليها . ويندر أن نجد واقعة هوس السرقة عند الرجال . ويمكننا في هذا المجال أن نقرر بدون استثناء ، بأن السرقة تمثل عملاً رمزياً يعوض عن الرغبة الكامنة في عقدة أوديب المكبوتة ، الماثلة في اختطاف رجولة الرجل . وعلاوة على ذلك ينبغي على السرقة ، في عرف التحليل النفسي ، في هذا المقام ، أن تسوي شأن الخيبات وصنوف الفشل المجحفة التي مني بها الانسان في عهد الطفولة . تمشياً مع تفسير سرقة المدغور كعمل رمزي يهدف الى التعويض عن شيء ما ، فالأشياء تختلس عادة بصورة عشوائية وبغض النظر عن قيمتها . ان العقوبات التي تصدرها المحكمة لاتجدي فتيلاً في هذه الحالة .

ان المريض بهوس السرقة يضطر الى متابعة السرقة ، ان لم يبادر التحليل النفسي إلى شفائه . ان المذعورين الذين يلبثون بدون عقاب يندر ان يسرقوا مجدداً ، ذلك ان العقاب يحرض والحالة هـذه ، كما في الاستخفاء ، على تكرار الفعل .

٣ ــ المحتال

يتميز المحتال بأساليب محببة من حيث المجاملة وآداب السلوك ويتحلى بصفات كالنباهة والمهارة ، يشق بواسطتها سبيله إلى قلوب الناس ويغنم بثقة حلقة من الحلقات الاجتماعية ويكسب ودهم ، كي يعمد بعدئذ إلى خداع هذه الحلقة والحاق الضرر بها بمختلف الطرق .

ومن دلائله هوس العظمة وحب التبذير على نحو مثير للانتباه ، والنزعة نحو الظهور بمظهر الانتماء إلى طبقة اجتماعية راقية بالوان من الحذق والدهاء الجاد . بالمقابل نراه لا يكاد يبذل جهداً فكرياً مماثلاً في تنفيذ اجراءاته .

إن أفعاله الماكرة الخادعة تتسم غالباً بكونها ممجة وغير لبقة ، وكأن الهدف منها الكشف عنها عما قريب ، فبعد مدة وجيزة من اقترافها يقع عادة في شباكها . فيغرب عن تلك الحلقة ، ليطفو في مكان ما بلقب آخر واسم آخر ويعاود اللعبة نفسها من جديد . إنه يحوم حول المغامرة ذاتها على نفس الوتيرة ، طامحاً إلى كسب ود الناس وثقتهم به بواسطة تصرفاته ، وإلى اثارة انتباهم ليكون محط الانظار ، تائقاً إلى أن يقدره الناس اكثر مما هو ومما يستحق ، وسرعان ما يخيب ظنهم بسبب سلوكه الفظ الخشن في آخر المطاف .

لا بد لنا أن نبحث عن جذور هذه الاعمال السيئة المتكررة على نحو

غريزي في هذه الحالة في ألوان معاناة هذا الانسان إبان عهد الطفولة المبكرة .
ونجد عادة أن نفسية المحتال تنجم عن علاقات بسيطة يشعر بأنها ثقيلة الوطأة إبان الطفولة ، منها أنه يعامل من قبل الاهل معاملة تفتقر إلى الحب ، وبأنه غير مرغوب به بين اخوته . وهكذا تنشأ نزعة من العداء ، بدلاً من حب الكبار والاهل ، الذي يتوق إليه كل طفل بكل جوانحه . ويعبر أبراهام تعبيراً صائباً عن هذا الفقر إلى الحب بقوله إنه « سوء تغذية روحية » . وهذا يدعو إلى شلل تطور الليبيدو السوي وحجز أمر اكتساب علاقات ايجابية مع المحيط . ويحاول الطفل أن يوجد بذاته ما يحرمه منه محيطه ، فينعطف الليبيدو نحو الداخل نحو شخصه هو ، ويتحول إلى تصرف نرجسي .

ان غرور المحتال وهوسه بتجميل ذاته يعودان إلى النرجسية ، وهو دوماً في حاجة إلى الترف والاعجاب به . لكنه في معظم الاحيان لايكترث بموضوعات حبه العادي ، وغالباً مايصب عليها سخطه وحقده . على هذا ، فانه يظهر الجانب المحبب من شخصيته في كل مكان ، محاولاً خداع الناس بهذا التصرف ، متوقعاً ، أن يتقبلوا بعدها جميع مايروق له ويخطر في باله : ليخنع بعدها عاجلاً لميوله الحاقدة ، ويعمد إلى خداع الناس ، وخداع ذاته ، وفقدان حبهم مجدداً . وشبيه بعرض عصابي يحاول النصب والاحتيال تلقي « تعويضاً » من جراء تكرار العمل قسراً ، وهذا يعود إلى ثلم « النرجسية في طور الطفولة ، ويحاول في الوقت ذاته اداة انتقامية ، وانزال العقوبة والحالة هذه بها ؛ وهكذا يحكم المحتال على نفسه « بان يكون منبوذاً منعزلاً ، في الوقت الذي يعلو فيه نجمه ليكون محبوباً من الجميع » (ابراهام) . ان عقاب المحكمة لايصلح أمر هذا المجرم ولايضع حداً لتكرار أفعاله . إن العقاب غير ملائم في جميع الظروف من الوجهة الاجتماعية .

٤ ــ الجنح الانفعالية

تكثر غالباً ضروب من الجرائم الثقيلة الوطأة ، التي تبدو أنها ناجمة عن تفجر انفعالي ، بر في لحظة من اللحظات، موجه عادة ضدحياة الضحية . ويستعين التفسير بايضاحات مثل الانتقام والحسد وما شابهها ، إلا أن ماهو جوهري يلبث غامضاً ، وهو أن الانسان ، الذي اعتاد على التصرف تصرفاً اجتماعياً نزيهاً طوال عشرات السنين ، يقترف فجأة اعتداء بجرماً ثقيل الوطأة ، ويداهمه الشعور في أغلب الاحيان بعد انجاز فعلته هذه ، بأن ماقام به غريب عنه ولا يستوعب كيف أقدم عليه . غير أن التحليل النفسي الملم بهذه الحالات ، سرعان مايتبين له ، أن التهيج الانفعالي المباغت ليس مجرد علة البرهة تلك ، انما يمت بصلة إلى ماض طويل.

ما يجدر ملاحظته بالنسبة الى المجرم الانفعالي هو أنه ينوء تحت عبء آلام نابعة من عالمه الخارجي . إننا سنجد دوماً المجرم الانفعالي منغمساً في ظروف ـ سواء أكانت تمت بصلة إلى عجز جسدي أو سوء حظ اجتماعي أو فشل مع النساء ـ تسبب له ضروباً متسلسلة من الاهانات والعذابات التي تفوق طاقته والمجحفة في حقه .

ولنبعث في ذاكرتنا أن الانسجام مع المجتمع ، الذي يكمن في الحد من اشباع الرغبات الخاصة لصالح المجموع ، يتم عن طريق تكوين الانا ـ الاعلى. إن الوالدوباقي القدوات التربوية المسؤولة، التي تنصب حاجزاً لافناء الوان العدوان النامية في نفسية الطفل، تتقمصها انا الطفل لتؤثر في داخله شبيهة بمحكمة رادعة أخلاقية (الضمير) ، عامدة الى كبت الحوافز العدوانية الاجتماعية. ففي الحالات التي تكون فيها سلطة الأب وأولياء الشأن غير جديرة لأسباب معينة . ان تمثل دور القدوة للسيطرة الاجتماعية . تغدو بطبيعة الحال القوة الرادعة الاخلاقية للأنا الأعلى « المسقطة »

في داخل الذات والمتقمصة من قبل الطفل الناشىء غير ناجحة تماماً في عملها . وحصيلة هذا كله فقر في الاتزان النفسي . ان هذا الانسان معرض دوما ، لأن يستخدم استخداماً لا شعوريا كل ما يعترض سبيله من سوء وتعاسة في مجال تفريغ شحنة دوافعه التي تكونت من جراء الكبت الناقص لهيجانات عدائية (اصناف من العدوان) ، كي يزيل التوتر ويخلق الاتزان الادخاري في التدبير النفسي . ان تبرير تفريغ شحنة الدوافع ازاء الوعي الشخصي ، يتم بالصورة التالية ، وهو ان الشعور بالذنب ، الذي يضرب حتما نطاقا حول الدوافع العدوانية الزاحفة ، يزاح ويرفع ، بقدر ما يتمكن في نهاية المطاف ، وتحت وطأة مقاساة الدهانات والعذاب ، بالصاق تهمة التفجر الانفعالي والتهيج المباغت والقيام بالعمل المنكر بالضحية البريئة في قليل او كثير . ان مثل هذا النقل المجحف لمشاعر الفرد واحاسيسه الى صعيد آخر ندعوه « اسقاط » وندعو الحادثة « آلية الاسقاط » .

نلاحظ في حالات الجنح الانفعالية حادثة مشابهة للاسقاط : إن ضعفاً في القوة الرادعة الاخلاقية يرجع عادة الى معاناة قاساها المرء في عهد الطفولة المبكرة ، لا يتمكن تماماً من مقاومة ضغط ناجم عن أحاسيس مشبعة بالحقد المر المكبوت (ضروب من العدوان) ، مضافاً إليها اهانات وعذابات مستمرة تؤدي في نهاية الأمر الى ازاحه الكبت ورفعه وتفريغ شحنة الاعتداءات العدوانية بفضل عملية اسقاط الذنب .

وباستطاعتنا ان نلاحظ أيضاً ، ان الجنح التي يقوم بها المجرمون الانفعاليون موجهة عادة ضد أشخاص يمثلون في نظر المجرم قدوات تعود الى زمن الطفولة المبكرة (كمثال الأب ومثال الأم) . لذلك نشاهد في أغلب الاحيان في هذه الجنح الانفعالية عملا يرمز إلى الانتقام وأخذ الثأر صادراً عن اللاوعي ضد مثل هذه

القدوة في عهد الطفولة ، ضد السلطة والنفوذ ، وبسبب بعض اهانات واساءات قاساها الفرد سابقاً وشعر بانه في موقع المظلوم منها .

٥ ــ المجرم السياسي

بنية المجرم السياسي شبيهة ببنية الجنح الناجمة عن التهيج والانفعال . وقد أتانا العلم من فرويد أن الدولة تنشأ من الوجهة النفسانية كاستمرار لتطور حياة الرعاة وحياة العشائر ، وتفسر على أنها ضرب من « اسقاط » شخصية الاب التي تبناها الطفل ، أي اسقاط مثال أو صورة الاب المتقمصة . على أي حال فالدولة تجسد بالنسبة الى الفرد المعنى نفسه الذي تجسده السلطة الابوية بالنسبة الى الطفل . لذلك يكمن في الجرم السياسي ، الذي يمثل رفضاً عدوانياً لكيان الدولة أوسلطتها، المعنى الخافي عن الوعي ، والكامن في موات الامنيات العدوانية النابعة من عقدة أوديب . إن الجذور الانفعالية المتأصلة في الجنح السياسية لابد لنا أن نبحث عنها في موقف المجرم الاستثنائي من عقدة أوديب . بامكاننا في هذا المقام أن نقرر بأن هذا المجرم لم يتمكن من التغلب على أزمة العقدة الاوديبية اي على تحويل مجرى الحقد على الاب إلى محبة . ان نقد الوعي والاخلاق الموجه إليه يجمدصرته بفكرة التسلح بانجاز قضية صالحة ، أي العمل على تحسين الظروف الحياتية للإنسانية . أما توقعه بأنه لابد أن يرضخ لعقاب ما ويتألم في سبيل قضية يشعر أنها صالحة من الوجهة الذاتية ، تسبغ عليه هالة من الارتياح النرجسي .

ضمن هذا الاطار سندرك أيضاً ، لماذا تنزل غالباً عقوبات صارمة بالجرم السياسي متفاوتة في عنفها وعدم تلاؤمها . فالحاكم بعد ذاته ممثلاً لسلطة الدولة ، ففي ممارسته لمهامه يتقمص شخصية الدولة ، لأن من واجبه الحفاظ على كيانها .

لهذا وبصورة لا شعورية تماماً ، يشعر بأن كل ما يمس هذه الدولة من عدوان وسوء ، إنما يمس شخصه هو وموجه ضده بالذات ، وهو على استعداد للرد عليه بشعور عدواني زاخر ، إن مهمة المحلل النفسي الجديرة بالثناء تكمن في هذا المجال بكشف النقاب عن البنية الخفية اللاواعية الماثلة في مأساة عقدة أوديب ، التي لازالت تقوم بدورها في قاعة المحكمة ،وتبيانها لمختلف الاطراف في الحكم ، وبهذا، العمل على انزال حكم ملائم قدر الامكان .

٦ ـــ الطبع الاجرامي

يتسم بالطبع الاجرامي جميع الأفراد الذين اقترفوا افعالاً اجرامية تستوجب العقاب ناجمة عن اعتياد او امتهان ، وتتوافق . اعمالهم هذه مع وقفتهم موقف العداء من المجتمع بصورة واعية .

كذلك في هذا المجال تبدل التجارب المستمدة من التحليل النفسي الاتجاه السائد او تخفف من وطأته ، وعلى سبيل المثال صفات الطباع المناهضة للمجتمع والمكتسبة عن طريق الوراثة . ان المسؤول عن تكون مثل هـــذه الطباع الاجرامية المناهضة للعيش في كنف المجتمع تمثل في معظم الحالات (وبحسب آدلر وابراهام وايشهورن) في ضروب من المعاناة تعود الى عهد الطفولة الأولى ، لاسيا الحرمان من عاطفة الحب واشباع الرغبات . ان موقفاً ملائماًومتزناً للمجتمع قبالة المجرم ليس هو بمحتمل ، الا بعد استدراك هذه المعارف .

ويشير اوغست ايشهورن في كتابه الرائع «شبيبة مهملة»[1] الى اساليب

(١) أوغست ايشهورن : شبيبة مهملة ط ٥ برن ١٩٦٥ .
(باللغة الألمانية)

جديدة لمعالجة روح النفور من المجتمع والاجرام عند الشبيبة . إن هذه البدايات التي نرحب بها ايما ترحاب ستضع على عاتقنا مهمة شائكة ، ماثلة في تغيير نظرتنا إلى عالم الاجرام ، بيد أنها ستتيح للمجتمع ايجـاد الوسائل لتبديل موقف الفرد المعادي للمجتمع المسمى بالمجرم في حالات عديدة ، إلى موقف ينسجم مع المجتمع باتخاذ اجراءات ايجابية لاتنبع من نزعات حقد لاواعية .

★ ★ ★

الاشتراكية والتحليل النفسي

سيغفريد برنفيلد

إن السؤال الحاسم الذي يطالعنا في هذا الموضوع :

ما أهمية وقيمة التحليل النفسي بالنسبة للطبقة الكادحة ؟ وهذا يعني : ماذا وكيف يعاضدها في صراعها الطبقي ؟ هذا البحث من يعالج الآن . اني احصر موضوع بحثي في التكلم عن سؤال أقل أهمية ، بيد أنه يرمي دعائم قاعدة نظرية عامة . هل يتفق التحليل النفسي (كعلم من العلوم) مع الاشتراكية بما هي علم ؟ أم يوجد بينهما تناقض مانع ؟

يطالب التحليل النفسي بثلاثة أمور متباينة ، تختلف أهميتها بالنسبة للقضية الموجزة المطروحة آنفاً .

١ - يزعم التحليل النفسي بأن طريقة من طرق المعالجة ، فهو يحاول شفاء حالة المصابين بأمراض نفسية معينة وتحسينها . إن هذا المطاب لا أهمية له فيما يتعلق بمشكلتنا . من الطبيعي وضع التحليل النفسي في خدمة الطبقة البرجوازية ، إذا مارسه طبيب خاص ، يتعلق مورده بمرضى في وسعهم دفع الثمن . كذلك من الطبيعي ، استخدام التحليل النفسي لصالح الطبقة الكادحة في ظل حكم البروليتاريا . إنه فرع من فروع الطب ، ويخضع لقوانين ممارسة الطب في المجتمع الطبقي .

٢ - ان التحليل النفسي هو بسيكولوجيا عملية لأنه يزعم أنه يحتوي على مجموعة من الحقائق الواقعية ، علاوة على دينامية الحوادث النفسية . هذه الحقائق

تعمل مبدئياً على بث أثرها في مجرى الحوادث النفسية الماثلة في الفرد وفي الجماعات .

من الجائز هنا أن نحقق ، فيما إذا كانت هذه البسيكولوجيا العملية صالحة للاستعمال في مجالات حركة الصراع الطبقي ، وإذا كانت تبسط معونتها في مجالات هامة أم عقيمة . إن مطلب التحليل النفسي هذا يتمتع بأهمية قصوى لنا ، إلا أننا سوف لا نعيره اهتمامنا في هذا البحث .

٣ ـ يعد التحليل النفسي في الدرجة الأولى علم بسيكولوجي ، أي علم يبحث في ميدان النفس ، وبالتالي يوسع دائرة مهامه ، اتساعاً يتجاوز كل بسيكولوجيا عملية ظهرت حتى الآن . إنه يتضمن الحوادث النفسية الشعورية واللاشعورية ، الفردية والجماعية بصورة موحدة . إن علم النفس هذا لن يتفق ووجهة النظر الماركسية :

أ ـ إذا وصل إلى استنتاجات تتعارض والاستنتاجات الماركسية ، فيما يتعلق بالحوادث النفسية الجماعية .

ب ـ إذا أدت بالضرورة إلى نتائج لا تصطبغ بالصبغة العلمية ، وتعاكس النتائج الضرورية في الماركسية .

ج ـ يقابل هذين المعيارين السلبيين معيار ايجابي . ففي وسع الطريقة العلمية لعلم النفس الفرويدي تبيان تقارب وثيق مع الطريقة العلمية للعلوم الاجتماعية الماركسية . وهكذا ، إذا كان الأمر كذلك ، وإذا طرحنا المعيارين السلبيين جانباً ، يتحتم اثبات نقاط التوافق والالتقاء الكامنة في هذين العلمين ، وفق طرق التفكير المشتركة أو المتجانسة السائدة فيها . ولندقق الآن في النقطة ح .

١ ـ الطابع التاريخي للتحليل النفسي :

يتميز التحليل النفسي عن علم النفس الرسمي بطابعه النشوئي . ان التحليل

النفسي لا يدرس مطلقاً الظاهرات النفسية كظاهرات عامة ، ولا يخضع أبداً لقوانين شاملة مستقرة في مضمار النفس ، حتى انه لا ينظر إلى التعريف ارادة - عاطفة - تخيل - إلا نظرة عدم اهتمام ونفع . إنه التيار الوحيد في المدارس النفسية التكوينية الذي يتمشى مع مبادئه حتى النهاية بصورة تامة ، والوحيد الذي يراقب الأمور من الوجهة التاريخية ، لأن التطور النفسي ، أي نشوء الحادثة بالنسبة له ، لا يعد مجرد موضوع مميز في أفق بحثه ، بل هو مبدأ بحثه الفريد وهدف دراسته على الاطلاق .

إن التحليل النفسي يرتبط دون قيد أو شرط بالتنقيب عن تاريخ تلك الحوادث النفسية ارتباطاً وثيقاً ، تلك الحوادث التي تغدو موضوعاً للتأمل النفساني: كل تأمل في مجال التحليل النفسي ينطلق من حالة معينة ، من عمل خاطىء ، من حلم ؛ من رمز أو من سلوك اجتماعي . مهمة هذا التأمل تكمن في تعليل كيفية نشوء الحادثة . على التحليل النفسي الغوص خلف معاناة الفرد الذي يبين الظاهرات المطلوب بحثها ؛ أي من الناحية النظرية ، عليه أن يعود القهقرى حتى معاناة الفرد واستجاباته النفسية الأولى . ان الحادثة المطروقة للبحث تعد « مفهومة » بالنسبة الى التحليل النفسي ، اذا أمكن ايجاد المحددات المماثلة في التاريخ المسبق لتلك الحادثة (اذن في تاريخ الفرد ، ووفقاً للحالة في المجتمع الحالي أو الانسانية) . إن التحليل النفسي ، في هذه الحالة فقط ، ليس هو « بعلم نفس فردي » ، عندما يثبت الآليات (الميكانزمات) العامة النموذجية لمجرى العمليات النفسية أو يفترض وجودها بطريقة استقرائية . حتى ان مفاهيمه ليست مفاهيم « عامة » (الدافع يعني : هيجان غريزي واقعي ، انتباه ، فعل الانتبـــاه) وليست بمبادىء بالمعنى الفلسفي للكلمة (مبدأ اللذة : مجموعة من أنماط نموذجية للتكيف تحفزها الوان معاناة اللذة .) (عقدة أوديب : حالة تعانى واقعياً وتتكرر نموذجياً) .

ان طريقة التحليل النفسي يجب أن تسمى طريقة تاريخية ، اذا اراد المرء أن يميز مايطبعها خاصة ازاء وجهات النظر النفسانية الباقية .

٢ - الطابع المادي للتحليل النفسي :

ان التحليل النفسي يختلف عن علم النفس الحالي في أنه مبدئياً وبصورة حصرية استتباعية مطبوعاً بالطابع المادي ، أو بتعبير أفضل ، في أن طريقة التفكير التي يعتمد عليها هي طريقة يمكن أن تتصف بالمادية وتقيم بها . إن لفظة « مادية » ليست ملائمة ولا واضحة . انني استخدمها في هذا المقام ، بما أنها تطلق أيضاً على نمط التفكير المماثل ابان تطبيقه في ميدان العلوم الاجتماعية . لاتعني كلمة « مادي » في هذا المجال « آلي » . ان التحليل النفسي لايعد بسيكولوجيا آلية مطلقاً (كعدم اعتبارنا الاستيعاب الاقتصادي للتاريخ استيعاباً آلياً .) .

ان الطريقة المتبعة في ميدان التحليل النفسي تتخذ أيضاً موقفاً معارضاً تماماً لأي اتجاه من الاتجاهات المثالية ، لذا ينال التحليل نصيباً من « العداء » لامفر له منه ، فيما يتعلق بالقيم برمتها ، وفيما يتعلق . بالمحتويات النفسية التي تعانى معاناة « مطلقة » ، « موضوعية » ، لايمكن استنباطها » . هذا الأمر ينطبق على الحوادث النفسية الفردية والجماعية على السواء . ان التحليل النفسي لايعترف بوجود ظاهرة نفسية « كقيمة » ، بل يرجع القيم ويحولها إلى ظاهرات نفسية ، تقترن بمستوى أخفض مما كانت عليه قبلاً في عالم القيم (وفق سلم القيم العادي أو الفلسفي) ، لذلك يبدو التحليل النفسي غريباً كل الغرابة ، ويلقى ضروباً من العداء ، خاصة لأنه يكاد يزعم ، أن جميع الظاهرات الروحية التي اعتاد المرء على تمجيدها واحترامها ظاهرات تتجلى قيماً رفيعة : كالأخلاق والحب والدين والفن والعلم ، ليست سوى تعبيرات مقنعة ناجمة عن الدافع الجنسي الاولوي . وبما أن الميل الجنسي لاينال سوى منزلة وضيعة « في نظام مراتب القيم الفلسفية أو العادية » ، يظهر علم النفس و كأنه

بنوق إلى تفسير كل شيء تفسيراً جنسياً ليس إلا . من الطبيعي أن التحليل النفسي لايزعم بعدم وجود عالم القيم ، لأنه ينعتق كلياً من المسحة الميتافيزيائية ، ويرتدي حلة العلم وحسب ، انما لأنه يرى ، منطلقاً من كونه علماً نفسياً ولايعترف بهذه القيم ، قيماً رفيعة ، أن مهمته منحصرة في تبيان أن هذه القيم صارت إلى ماهي عليه مع مرور التاريخ ، من ظواهر أقل منها قيمة ـ خاصة من الميل الجنسي ،وليس منه فقط ـ وهكذا يعمد إلى ارجاعها إلى عوامل ثانية .

إن هذه الرغبة « المادية » في التعليل ، تسود أيضاً التحليل النفسي في مفهومه الرئيسي الثاني ألا وهو اللاشعور . ان ما نشعر به من حوافز في تصرفاتنا تتصف معظم الاحيان بأنها حوافز زائفة مزعومة ، حلت مكان حوافز لاشعورية قد كبتت (بصورة غير واعية ولا ملحوظة) ، تلك الحوافز تسدل ستر التمويه مدعية أنها الحوافز الوحيدة الماثلة في الظاهرة ، وأنها شريفة مقدسة ، هذا كله ـ كي تمكن الحوافز اللاشعورية ، التي هي اقل اعتباراً واكثر انحطاطاً منها ، من بسط نفوذها ـ .

ان تماثل نمط التفكير الذي نجده لدى فرويد وماركس قد لفت أنظار أخصام كل منها . ان شبرانجر (Spranger) يوصمها بالمادية كليهما . وعلاوة على هذا ، اختلط الامر عليه بدون ريب ، واستعمل لفظة مادي بدلاً من « آلي » . حسب شبرانجر ـ والبرجوازية التي يمثلها بصورة عامـــة ـ ان كل من ماركس وفرويد ينزع الى « الهدم » . هكذا سيعلل ماركس مثلاً الحروب الوطنية كبنية فوقية ايديولوجية تعلو على مصالح الطبقة الامبريالية ، وسيبرهن فرويد أن شحنة من الدوافع السادية تجتاح المتطوع في الحرب من جراء حماسه الوطني . على أي حال ، ان ماركس وفرويد سوف لا يدافعان عن الوطنية ، كقيمة ذات قوانين خاصة بها ، امام عملية التحويل التحليلية العلمية . قد يعارض احدهم

ويزعم ، ان الطابع « المادي » ليس سوى مجرد سمة عارضة ثانوية في البسيكولوجيا الفرويدية ، لأن واحدة من أهم افكارها هي : هناك عمليات نفسية تؤدي الى نشوء ظواهر جسدية . مما لاشك فيــه حقاً ان فرويد لم يتبن مطلقاً مايدعى بالمادية العامية المبتذلة ، التي رفعت منارها العلوم الطبيعية المتأخرة . وصيغـــة فوكت (Vogt) القديمة ، « ان الفكرة هي مبر المخ كما أن البول مبر الكلية » لايؤيدها التحليل النفسي . إلا ان فرويد يبتعد اكثر من هذا عن المنعطفات الميتافيزيائية المثالية ، التي تحاول اثبات هذه الصيغة « الروح يبني الجسد » مثلاً . ان هذه الصيغة لاتمت بصلة مطلقاً الى الفكرة الفرويدية . اما صياغة فوكت تلك فليست بصحيحة . لايفترض فرويد وجود علاقة مباشرة - مرية - ماثلة بين تراكيب نفسية معقدة كل التعقيد ووظائف جسمية ، بل يبدو له ان السببية في هذا المجال دقيقة وصعبة الشروط . ويفهم تحت التراتيب النفسية المعقدة قدر الليبيدو او الحوادث المشحونة بطاقـــة نفسية ، الحوادث التي لاتخضع مباشرة لشروط جسمية ، أو يندر خضوعها لها ، والتي في وسعها التأثير أحيانا على حوادث جسمية (في عوارض الهستيريا مثلا) . اخيراً يأمل فرويد من البحث العلمي ، وقد اكد ذلك مراراً ، بأن يربط العمليات الليبيدوية (أو بالاحرى الطاقوية النفسية) بالتحولات الكيميائية للطاقة الجسمية .

كذلك ماركس لم يكن موقفه موقفاً مبتذلاً ليزعم « ان الايديولوجية هي مبر الشركة » ، وانما ذهب الى أن الايديولوجية تنشأ بصورة غير مباشرة من علاقات الانتاج أو بالاحرى عن طريق افراد يغوصون في التفكير ، ويختبرون الحياة على حقيقتها ، اناس يعيشون في مجتمع تسوده ظروف انتاجية معينة ، وقد نشاهد احيانا ان للايديولوجية اثر رجعي على العلاقات الانتاجية .

٣ ـ الطابع الجدلي للتحليل النفسي

عندما يفسر التحليل النفسي ، وفق وجهته المادية أيضاً ، الظواهر النفسية برمتها تفسيراً ينصب في اتجاه واحد ، فهو لا يرمي دعائم أحادية بسيطة ، إذ أنه لاينظر إلى دافع واحد فقط على أنه العنصر الأساسي في الحياة النفسية . فضلاً عن هذا ، فاننا نشاهد أن من مميزات نمط التفكير الجوهري للتحليل النفسي هي ميزة تكوين الأضداد . فنجد الدوافع الجنسية تقابل دوافع الأنا ، والنرجسية تقابل ليبدو الموضوع[1] الحب يقابله الموت ، مبدأ اللذة مبدأ الواقع، الانا الهو ، الفرد البيئة : هذه كلها أضداد تنتمي إلى التحليل النفسي الفرويدي ، إلى قالب تفكيره الصميمي . في الواقع يتضح أن التحليل النفسي، في عرضه هذه الاضداد الثنائية واستعمالها هو أكثر استتباعية من المدارس النفسية الباقية التي نستخدمها .

من الطبيعي، أنه ليس الوحيد الذي نهج هذا المسلك ، إلا أن الفضل يعود إليه وإليه وحده في تبيان هذه الامور :

أ ـ ان هذه المفاهيم مطبوعة بطابع القطبية الحقة . فدافع الحب والحياة (أيروس) لايمكن التفكير به دون دوافع الموت وبالعكس . والقول « أنا » لاجدوى فيه للتحليل النفسي مطلقاً ، إذا لم يستدع هذا المفهوم إلى الخاطر الدوافع الماثلة في العالم الباطني والظاهري . انه ينظر إلى هذه الاضداد وكأنها أقطاب حقه أحدها يفترض وجود الآخر .

ب ـ ان المعنى المنهجي لهذه القطبية يمهد لنا السبيل لننظر الى هذه الاضداد

---

(١) يميز فرويد « ليبيدو الذات » عن « ليبيدو الموضوع » الليبيدو الذاتي يتخذ من الذات موضوعاً ، هو النرجسية التي تنغمس في حب الذات انغماساً كلياً . بينما الليبيدو الموضوعي ، هو الليبيدو الذي يختار موضوعه خارج نطاق الذات .

(المترجم)

النفسية القطبية كمفاهيم ذات وحدة في المعنى . فالمبادىء التي تسيطر على الطريقة العلمية للتحليل النفسي ليست مبادىء أحادية أو ثنائية انما جدلية .

ان فن التعليل باجمعه يعتمد على الطريقة الجدلية (مبدئياً) أما البلبلة الفكرية وعدم الفهم المطبق الذي أظهره عديد من علماء النفس لاغبار عليهم إزاء طرائق التحليل النفسي ، مآلها جزئياً ، الى أن طابع التحليل النفسي - كخطوة أولى ، كمحاولة أولى لبناء علم نفس جدلي - لبث أعمق من أن يسبروا غوره .

ج - ان جدلية التحليل النفسي ليست جدلية مفاهيمه ذاتها ، لكن التحليل النفسي يستوعب من خلالها واقع الحادثة النفسية ، تلك الحادثة التي تخطو فعلاً خطوات جدلية . ويبدو هذا الامر جلياً في استيعاب التطور النفسي .

لقد أشرت سابقاً الى قيمة التطور في التحليل النفسي . إنه بصورة خاصة العلم الذي يبحث في التاريخ النفسي للفرد وللانسانية . ان هـذا النوع في التاريخ لاتعود حوافزه الى تدابير ووقائع حالية ؛ هو ليس تطوراً ولا توسعاً ، وليس حصيلة أي ضرب من ضروب الحل الوسط أو نتيجة لهذه العوامل أيضاً ، انما سيراً متتابعاً جدلياً ولم يوضح فرويد بصيغة قاطعة رأيه حول « التطور » في أي مكان من مؤلفاته . لكن مما لاشك فيه ، أنه لا ينشد في الواقع سوى أن : كل صعيد تطوري يتضمن الاضداد ، التي ينجم عنها صراع غير مؤلم ، وهذا الصراع يحكم وجود حل له ؛ ان الحل يحدث بوسائل يتضمنها الصراع ذاته ، وينجم عن هـذا صعيد جديد . والصراع الكامن في هذا الصعيد الجديد يدفع بالتطور خطوة إلى الامام . مثلاً :

النرجسية التامة السابقة لميلاد الفرد تـنزع بعد الميلاد الى اللحاق بالحالة القديمة مجدداً . وفي ظل هذا الكفاح : (تغذية من أجل إزالة الجوع المزعج للنوم ، الشبع ، النوم هو في الوقت ذاته حالة نرجسية - رحمية) تنشأ اللذة . ان الصراع

بين دافع الراحة (الموت) ودافع الحب والحياة (ايروس) يقود الى مرحلة امتلاك الموضوع المرغوب فيه . وليبدو الموضوع يقود الى الحالة الاوديبية . وعقدة الخصاء، الناجمة عن صراع الحالة الاوديبية بين الانا والعالم الخارجي تؤدي إلى مرحلة لاحقة، ألا وهي تكوين الانا ـ الاعلى .

لا يمكن ان ينكر ان الطابع المادي ، وابعد من هذا الطابع الجدلي ، الكامن في الطريق الفرويدية في التحليل النفسي ، لم يدرك حتى الآن ادراكاً واعياً، وبالتالي لم يطبق باستتباعية تامة ، لا سيما ما يتعلق بالجدلية . ليس علم النفس الفرويدي مطلقاً علم النفس الجدلي . ان مهمة تكوين علم نفس جدلي ستكون من مهام المستقبل . ان فرويد وقف موقف العداء ازاء كل تنسيق مبكر ، انه وعى وعياً تاماً الطابع الجزئي للمعرفة في علمه ، وفي باقي العلوم . وثمة جملة من الحقائق تركها بدون ان ينسقها ـ خاصة إبان المرحلة الاولى من بحثه العلمي ـ وثمة اخرى فسرها معتمداً على طرائق لا تمت بصلة لبسيكولوجيا التحليل النفسي . غير ان كل مراجعة اجراها غالباً على أعماله الأولى كانت بمثابة خطوة الى الأمام لفلاح الجدلية . هكذا يمثل التحليل النفسي اليوم نقطة انطلاق ـ لا شك أنها الأولى ـ لبناء البسيكولوجيا الجدلية . ومن الصحيح أيضاً ، أن فرويد لم يقم بتأملات كافية حول نمط تفكيره والطريقة العلمية التي يجب أن تعتمد في التحليل النفسي ، لهذا لا نجد لديه ميزة تطبع تحليله النفسي ، ميزة مادية او جدلية . وأما زعم يورنيتز (Yurintez) وتالكهايمر (Thalkeimer) في ان التحليل النفسي هو تحليل مثالي ميتافيزيائي وأنه في الظاهر (في نقاط غير جوهرية فقط) جدلي ، هو زعم مبني على جهل مطبق ، وعلى استيعاب سطحي عامي للنظرية الفرويدية . ان طريقة التحليل النفسي ، غايته العرفانية ومحور بحثه تتطابق ـ بما أن موضوع التحليل النفسي تاريخ الحياة النفسية ـ ووجهة النظر الماركسية ـ بما أن موضوعها تاريخ المجتمع ـ . ان هذه القرابة الضمنية لهذين العلمين ليست من قبيل المصادفة ، وانما

تفهم من تلقاء ذاتها ، لأن الحياة النفسية والحياة الاجتماعية هي عمليات جدلية ، ولأن المعارف الصحيحة تكمن في اكتشاف واع لطبيعة كل حياة . من الطبيعي أن هذا لا يغلق باب الامكان امـــام تصحيح النتائج الجزئية للتحليل النفسي في المستقبل .

بعد هـذا الجزم يكتفى لايضاح الاعتبارين السلبيين باشـــارة موجزة اليها :

١ - لم يلج فرويد غمار موضوع البحث الماركسي ولم تعالـــج اعماله « طوطم وتابو » و « بسيكولوجيا الحشد » وملاحظاته المتنوعة حول حقائـــق التاريخ الحضاري ليست سوى افكار او عمليات نفسية تطرأ على أفراد يعيشون في كنف الجماعة . ان موقفه يلامس مشكلات لم يتعرض اليها ماركس مطلقاً ، وانما اعترف بوجودها ليس الا . فهو يبحث ، بعد ان يرفض كل ضرب من ضروب « الروح الجماعية » ، في الحوادث النفسية الماثلة في الفرد ، وفي كيفية استجابة هذا الفرد في اطار الشروط الاجتماعية المعطاة . وحيث تطفو سؤالات حول التاريخ السحيق وحول نشوء الظاهرات الاجتماعية يرى امر ارجاعها الى الحاجة الخارجية امراً بديهياً ، بيد انها تبقى بالنسبة اليه ، سؤالات خارجـــة عن نطاق البحث النفسي ، او كمشكلة مفتوحة بعد . في رأي فرويد ان ضروب التصعيد الاولى تعود الى الآليات الفردية . بواسطة هـــذه الآليات يمكن ايجاد طاقات منتبهة جديدة توضع تحت التصرف لتغطية المطالب التي تنشأ تحت تأثير الحاجة الاقتصادية الداعية الى تغيير ظروف الانتاج : ان الدافع الجنسي يعاني حصراً . من جهة ثانية ، لم يعالج ماركس المشكلة التي تطرق فرويد الى بحثهـــا وهي كيف علينا ان نتصور هـــذه الآليات النفسية ، التي بواسطتها تولد العلاقات الانتاجية المعطاة ، والايديولوجية التي تتطابق معها في رأس الانسان الاقتصادي . إن

التنافس القائم بين التحليل الاجتماعي العلمي والتحليل النفسي حول الظاهرات هذه ذاتها ، لا يدعنا نقرر بعد ، ترجيح كفة لصالح طرف دون آخر ، لأن هـذا التنافس لم يلامس بعد ، لعدم اكتمال بنيان هاتين النظريتين ، التخوم الفاصلة بين علم الاجتماع وعلم النفس ، على الاقل من قبل مؤلفين يتمتعون برأي حاسم في ميدان التحليل النفسي .

ان كل علم يصلح كي يوضع في خدمة كل قيمة ولصالح كل طبقة . لا ينجم عن التحليل النفسي أية نظرة حياتية سياسية أو ميتافيزيائية بالضرورة . ولا يعقل أنـه سيؤدي إلى نتائج تتناقض والعلوم الاجتماعية الماركسية ، لدى تمسكه الاستتباعي بنمط البحث التاريخي المادي الجدلي . لم يعلن فرويد أنه اشتراكي ، كما أنه لم يعلن أنه خصم للاشتراكية . ففي تحفظه الفريد من نوعه في إدلاء الأحكام ، يصعب على المرء الاستشهاد بجملة واحدة ، وان جملة عابرة ، في نصوصه . ويمكن الاشارة الى أن أحكامه قد تأثرت « بالبرجوازية » من خلال مفهوم « المرض » ، وهذا الأمر محتمل . وفي أن هذا الطابع البرجوازي لم يظهر مطلقاً في أي موضع هام من مواضيع بحثه ، لهو مدعاة للعجب ولا يدع المجال لباحث آخر « برجوازي » كي ينجح به ، خاصة اذا كان عالم نفس .



التحليل النفسي والاخلاق

د. اوسكار بفيستر

ينشد التحليل النفسي ، من حيث هو طريقة علمية ، أول ما ينشد ازاحة برقع القوى الروحية الكامنة تحت عتبـــة الشعور والتي تمارس أثرها في حياتنا الجسدية والواعية . بهذا الكشف يرتبط دوماً ترك أثر في قوى الدوافع اللاواعية التي غدت غير محجبة . ان سبر غور هذه القوى والعمل على ترك أثر فيها يتمشيان بدأ بيد مع هذه الطريقة المتبعة .

آ ـ ثمرات التحليل النفسي بالنسبة لعلم الاخلاق

ان علم الاخـــلاق نظرية تبحث في الخير ، بعبارة ثانية هو التعاليم التي تبحث في الحياة الخلقية . بالطبـع لن يدور في خلد انسان حصيف انشاء نظرية في الاخلاق شاملة أو اشادة مذهب حياتي انطلاقاً من آراء تحليلية نفسية ليس إلا . بيد أن الطريقة التي اتبعها فرويد اكتشفت سلسلة من ينابيع ثرة لخدمة الانسانية وصالحها ولا رواء بساتين الحياة .

ليس في وسعي عرض الأمور الجوهريـــة إلا في اطار ارشادات توجيهية موجزة :

يظهر لنا التحليل النفسي على نحو ملح مؤثر قوة الضمير الماثلة . ان حقيقة عملية الكبت تبوح لنا بمدى سيطرة القوى الخلقية في حياة الانسان وبالتالي بمدى وقارها ؛ تلك السيطرة التي لبثت في عالم المجهول في نظر علم النفس القديم ، ان بعض الامراض النفسية الشديدة الوطأة وعدداً لا يحصى من الآلام الجسمية ، التي هي موضع اهتمام ما يدعى بالطب النفسي - الجسمي (بسيكوباتي) ، ليست سوى اداتات ذاتية لا واعية ، وتشهد بالتالي على قدرة القوى الخلقية الجبارة ، التي هي جزء من كيان الطبيعة البشرية ، وليست هي فقط مستوحاة ومغروسة فينا مثلاً على نحو اعتباطي ، وان يكن مضمون هذه المطالب الداخلية تحدد من قبل المحيط أشد التحديد . ولا نرى أي داعٍ من الدواعي يحملنا على اعتبار هذه القانونية الاخلاقية قوة هابطة علينا من عالم علوي ، غريبة عن كيان الانسان البدائي . مما لاشك فيه ، ان الانسان البدائي لايمثل صورة الانسان ككل ، انما هو شكل من أشكال تختلف وجوده ، شبيه بالغرسة بعد اقتحامها القشرة الترابية ، في غمار صعوبات الحياة تقاد الاستعدادات الكامنة في الحياة الاخلاقية إلى حيز التحقق ، بيد أن تطورها يلبث خطراً .

ان التساؤل عما اذا كانت عملية الكبت ناجعة أم ضارة هو تساؤل طبي جزئياً ، واخلاقي جزئياً . وهو تساؤل اخلاقي لأنه ينجم غالباً عن حالة الكبت تأثيرات لاحقة لا أخلاقية . إن شأن نظرية الكبت شأن نظرية التصعيد ، فهي أيضاً تكشف لعلم الاخلاق آفاقاً جديدة تتسم بأهمية كبرى . وحسب مفهوم فرويد يكمن مفهوم التصعيد في انصباب الدافع البدائي باتجاه غاية ثانية بعيدة عن الاشباع الجنسي ، وهي في الوقت ذاته غاية متسامية ، حيث أن تحويل مجرى الدافع يكمن في اقصاء الصبغة الجنسية[1] . إن نشوء التكوينات البديلة ، التي تحل محل الطاقة الغريزية الأولية ، تتيح لنا أن ندرك المعنى البيولوجي للفن والدين ، كما كل انغماس

(١) مؤلفات فرويد ٤ ص ١٧٨ (باللغة الألمانية)

في انشغال مثالي على الاطلاق . ليس ثمة انعتاق من ربقة الفجاجة الحيوانية إلا بفضل هذه التكوينات الناهضة على تصعيد الدوافع والتسامي بها . ولن نتمكن من ادراك كنه الطبيعة البشرية ، مالم يسبر غور مصيرها التفاني في سبيل المثل العليا ، كذلك فان الطبيعة الاجتماعية للفرد الانساني لاتعقل بدون هذا التفاني .

كمطلب جديد دعا التحليل الفرويدي علم الاخلاق إلى المناداة بالوصية التي تقول باخضاع قوى الدوافع الكامنة تحت عتبة الشعور لسيطرة الضمير والعقل والحب بأسمى معاني هذه الكلمة . أو على الأقل لاينبغي أن تحدد الوعي حوافز مكبوتة خلافاً للنواهي الاخلاقية العليا ، ولا يجوز أن تلبث السيادة الثانوية للقوى الروحية القابعة تحت الشعور والتي لاتشعر بروح المسؤولية حاسمة بعد الآن .

ان الاكذوبة اللاواعية العالقة بالحياة والتي تسيطر على بعض وجودنا ، لابد وان يسفر عنها القناع . فالتربية الجنسية المغمورة والتي لاتقدر حق قدرها في مضمار التطور الاخلاقي للشخصية ستفوز بحق وجودها ، وينزع اللثام عن اللاخلاقية الداعية الى توجيه الامور الحسية توجيهاً صارماً قائماً على الكبت والجهل، كما عن حظر اقامة علم تربوي جنسي خاضع للمصادفة خضوعاً اعمى .

عوضاً عن الكبت السيطرة والتصعيد والتسامي ، وعوضاً عن التحريم احترام الاوامر النابعة من الحياة الاخلاقية ودنيا الدوافع . عوضاً عن القرف التقدير الأدبي بلا مبالغة في الاطراء او الاسفاف : هذه هي المطالب التي ينادي بها التحليل النفسي بناء على نظرته في الآثار التي تخلفها الامراض السيئة الناجمة عن تربية جنسية خاطئة .

ان حصار الفرد وتغريبه عن بيئته وخاصة عن اقرانه يكمن في مرض عصابي ما ، ويقع على عاتق جماعة من الجماعات تصفية مثل هذا الحصار

تحت شعار تقديم المعونة والدعوة الى الحياة[1] .

وقد برهن التحليل النفسي انه يتحتم على علم الاخلاق الا يطمح ببساطة الى تفتح حالة الكمال ذاتها في نفس كل فرد ، بل عليه ان يعنى بتطوير مهارات قيمة على الصعيد الاخلاقي ، على قدر ماتتمكن طبيعته من تحقيقها .

ليس في الخضوع الجامد للأوامر والنواهي القاطعة ، ولافي الطاعة العمياء قبالة مطلب قاس نابع من الضمير ، انما في القبول المتحرر البهيج لعلم اخلاقي ، تنسجم في افقه الوصايا والرغبات، الواجب والحب في ظل وحدة متكاملة ، ترى نظرية الاخلاق الناهضة على ارشادات تحليلية تحديد مصير الانسان[2] .

من التجارب في حقل التحليل النفسي يصدر الرأي القائل ، ان كل علم أخلاق لا بد وان يكون علم صحة في سبيل الشخصية وفي سبيل المجتمع بدون أن تنتهي مهامه عند هذا الحد .

الوعي واللاوعي ينبغي أن يتقابلا في علاقة تتسم بنوعية تسمح للقوى الروحية بانجاز أفضل الخدمات واضعة نصب عينيها حياة مثالية بجميع جوانبها هدفاً . فلا يقتضي الأمر اذاً مطلقاً ، تسليط ضوء الوعي على الأمور النفسية برمتها .

ونشير في نهاية المطاف الى مهمة هائلة يقوم بها التحليل النفسي في خدمة علم الأخلاق : ان التفكير بعلم الأخلاق ايضاً يقاد بخيوط عالم اللاوعي . لهذا السبب يتحتم تشعب التفكير حول عالم الاخلاق ؛ فواحد يتجه اتجاهاً ثنائياً ـ صوفياً ، وآخر يتجه اتجاهاً صارماً مؤمناً بالسلطة والنفوذ ، وثالث يتجه اتجاهاً طاغياً . انانياً . ان التحليل النفسي بما انه كذلك لا يسعه ان يقرر أي علم أخلاق هو العلم الأسمى والأفضل . لكن بامكانه ان يمد عوناً لمن انتابه حصاراً داخلياً

---

(١) بفيستر : طريقة التحليل النفسي . ص ٥٠٣ (باللغة الألمانية) .

(٢) بفيستر : النضال في سبيل التحليل النفسي . ص ٣٥٣ (باللغة الألمانية) .

شديداً ، فرضته اخلاقية كسيحة بالية ، وان تحرره من قيوده ليستنشق نسائم اخلاق أسمى وانقى . إلا انه - ولنقل مرة ثانية - على الرغم من هذا ، ينبغي الا ينهض تأسيس علم الاخلاق على التحليل النفسي وحده .

ب - ثمرات علم الاخلاق بالنسبة للتحليل النفسي

إن العمل في ميدان التحليل النفسي يخضع كبقية الاعمال الى مقاييس علم الاخلاق ، وهو بحاجة الى مثل هذه المقاييس كذلك بصورة خاصة لاتمام مهامه .

حتى ان غاية العمل التحليلي النفسي يجب أن تحدد اعتماداً على علم الاخلاق ونكرر : ليس إلا منهب فكري جامد - وقد رفضه فرويد تماماً - بود أن يرمق في كشف الامور المكبوتة ، ومايثبتها من تكوين كامن تحت عتبة الشعور ، وفي ادراكها يجد ذاته هدفاً منشوداً . ذلك انه إن تم مثل هذا الامر ، يعني حذف كل ما يتسم بطابع خاص يميز عند الفرد ، فلا يبقى له إلا وجوداً مجرداً غامضاً ، حتى توطيد أمر الانعتاق والتحرر من جميع العوارض المرضية ليس حتماً عملاً صالحاً ، فاذا بدت امارات تسطع الحياة الروحية وبرز فشل التصعيد ، عندها يعد مشروعنا غير صائب ومؤسف ، لهذا على التحليل النفسي أن يسترشد بالمطالب الاخلاقية كي يستطلع الى أي مدى يجوز له سبر غور اللاوعي ومتى يسمح له بذلك .

لابد أيضاً من اتاحة الفرصة لتكوين تعويضي جديد ليأخذ مجراه في مضمار المعالجة التحليلية ، ويراقب من الوجهة الاخلاقية وذلك من أجل السيطرة عليه ، لئلا تقع حياتنا في المستقبل مثلاً فريسة أمور خطرة تؤثر في المدار الاخلاقي منغصة

حياة الفرد مقللة من نشاطه . وبما ان من واجب المحلل النفساني الجد من رغبته الجانحة الى تحقيق مثله الاخلاقية هو في الشخص المعالج ، والتزام جانب الصحة إزاء الحادثات الجسام المأساوية ، على علم الاخلاق ان يساعده مجدداً في البحث عن حدود التساهل المشروعة .

ويكمن في مفهوم التصعيد ، الذي يقوم بدور هـــام في ميدان التحليل النفسي ، تقييم اخلاقي . فليس كل ما هو لا جنسي هو راق ، فنحن نشـــاهد في خضم الوظائف الجنسية ذاتها سلماً من القيم يقودنا بما هو بشـع الى ما هو محرم من الوجهة الاخلاقية ، حتى الى ما هو رائع . وخاصـــة لأن مجال الأخلاق ومجال التلاؤم على الصعيد البيولوجي ينسجمان في نهاية المطاف ، حـــين نستوعب معنى الحياة استيعاباً عميقاً ، هذا يعني حين ندركها شخصياً واجتماعياً وانسانياً ومثالياً ، نجدنا في حاجة الى استرشـاد اخلاقي من اجل عملنا في مضمار التحليل النفسي . فاذا اهملنا هذا الاسترشاد لن نتمكن ابداً من تحديد مفاهيم كالخلاص والتحرر والتقييم التام والقدرة القصوى على الانجاز وما شابهها .

إن التنوير الاخلاقي يكشف لنا عن حوافز قيّمة لممارسة المنهج الفرويدي . وعندما تتخذ الحقيقة والحب والحرية مكانها هدفاً في المعالجة التحليلية النفسية ووسيلة لها ، يصطبغ العمل برمته بصبغة اخلاقية وتسبغ هالة من الروعة .

وحين يعترض بعض الجهلة ومحبي السوء ويشيرون الى ان لا عمل للتحليل النفسي الا اثارة اوساخ الروح ، تشير النظرة الاخلاقية الاعمق ، الى ان التحليل غايته في الواقع احصاء ما هو بشع وعفن من الوجهة الاخلاقية وتحرير ما هو سليم وقيم ، كما هي الحال لدى اجراء عمليات جراحية . وما لم تكن مثل هـذه الامور ماثلة في النفس ، لما جرت عملية الكبت ولما ظهرت في ركابه عوارض مرضية . وكثـــير من الوان البؤس والشر الثاوية في نفوس البشر ليست سوى انحرافات وتشويها للقوى ، التي تزاحم في اعماقنا قبالة النور .

هكذا نجد أن التحليل النفسي ، بحسب جوهره العميق ، يعد وسيلة من وسائل التشجيع للخير ، ككل ماهو أصيل وحق . وقد قدم لنا فرويد سلاحاً لايقدر بثمن للنضال في سبيل تحسين العالم الاخلاقي الخير للانسان .

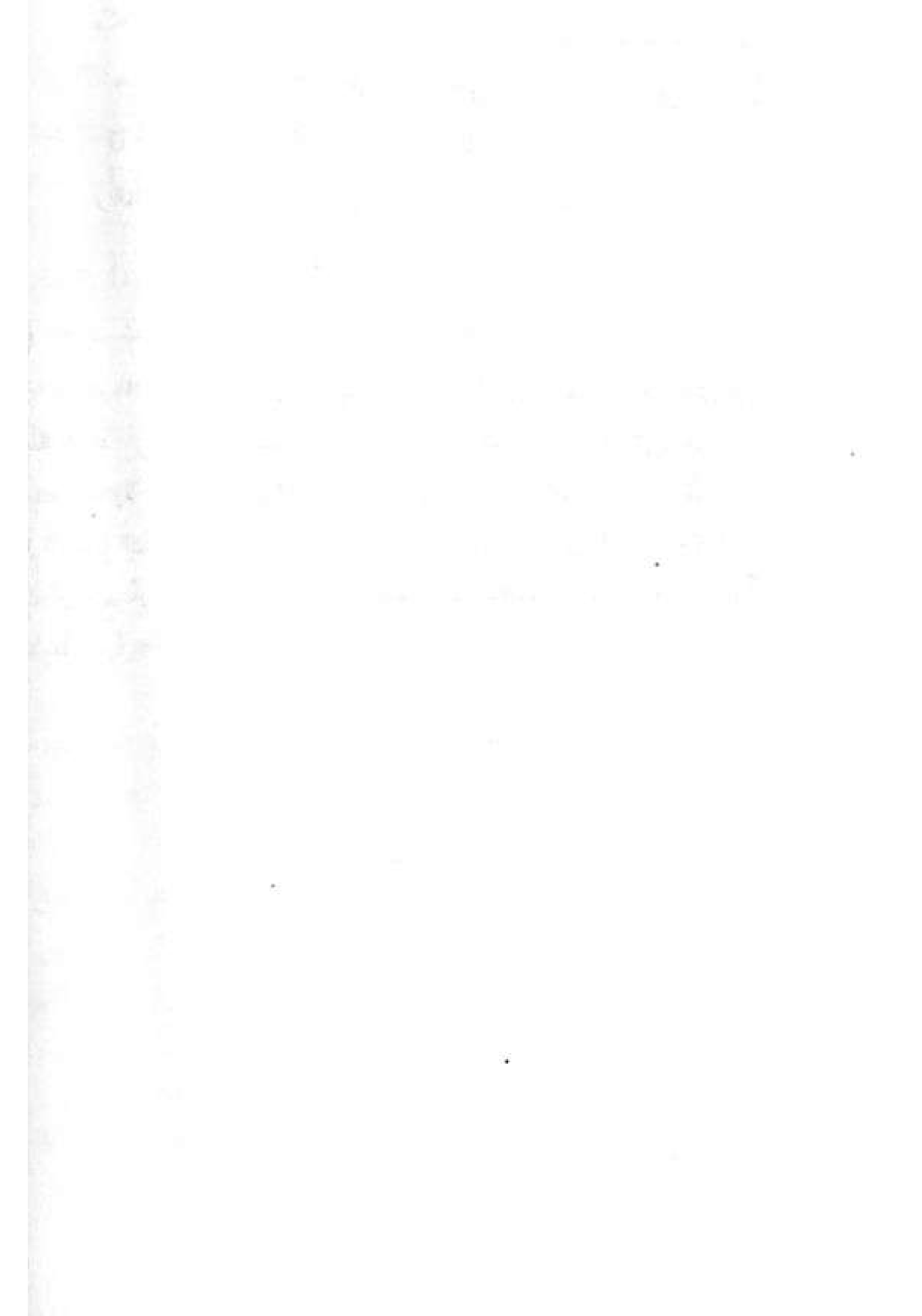
ونقطة انطلاق العمل التحليلي يكمن في هذه المعرفة :

« قابع فيك عبد نبيل

ملتزم أنت له بالحرية »

وبات التحليل النفسي على يقين ، بأن اللاوعي ، شبيه بالرحم الذي يضم العبقري ، يبني هو أيضاً السجن الذي يحتجز ذلك العبد سجيناً ، ولاشيء يحرره من سجنه هذا إلا بحثاً شاملاً في التحليل النفسي ، ملماً بأساليبه الفنية . وليس من شأن علم التحليل التساؤل بعدها ، في أي مجالات ستضع هذه القوى المتحررة امكاناتها . بيد أن فتح أبواب السجن الداخلي والتخلص من السلاسل التي تستعبده يعد أمراً عظيماً ساراً .

★ ★ ★



التحليل النفسي والتربية

جدلية تطور الوعي لدى الشباب

د . هانس كليم [1]

انا نعلق أهمية قصوى ، ونركز اهتمامنا على تربية الطبقة الشابةوتثقيفها. اننا نسعى الى تربيــــة جيل جديد من المناضلين الفتيين الثوريين ، جدير بتحمل المسؤولية الملقاة على عاتقه ، وعلى استعداد تام لانجاز بناء صرح الاشتراكية ، وتسيير دفة الثورة العلمية ـ التقنية ، وجدير أيضــــاً بالمشاركة في الكفاح ، الذي يزداد تأزماً ضد الامبريالية .

على العنصر الفني ، أن يتابع بجرأة وابداع اعمال اجداده ، وعليه أن يجابه العدو ويوطد دعائم القوة في وطنه .

واننا نعد تربية الشباب وتثقيفهم ، عملية مبنية على أساس علمي . وعلى هذا نهدف الى النقاط التالية :

- معرفة هامة بالهدف الذي يجب أن نبلغه .
- الاستفادة من قوانين التطور في المجال النفسي ووضعها موضع التنفيذ.

إن التطور في المجال النفسي ، ان تطور الوعي لدى الشباب ، يتم وفق القوانين الجدلية . واننا نلاحظ اثر القوانين الديالكتيكية هذه في جميع المجالات،

(١) عميد كلية التربية بجامعة درسدن .

في الطبيعة العضوية كما في الطبيعة اللاعضوية، في المجتمع كما في تطور وعي الشعوب، وتطور وعي الفرد .

وقبل قرن من الزمن ، كان قد بين كل من **ماركس وانجلز**، أن قوانين التطور العامة يمكن تطبيقها أيضاً على الحالة الخاصة للتطور على الصعيد النفسي .

ان البحث في تطور الوعي لدى الشباب يظهر الوقائع الجدلية التالية :

– فيما يتعلق بارتباط العوامل بعضاً مع بعض ، التي تحدد شروط التطور : لانستطيع تحليل تطور الوعي الا تحليلاً علمياً ، ولا نستطيع وصف هـذا التحليل وتنسيقه ، الا اذا استوعبنا شروط التطور الواقعية وأعرناها الاهتمام الكافي .

– فيما يتعلق بالتطور الدائم المستمر ، حيث ينشأ الجديد ، ويعبر القديم علينا أن نلاحظ أن الشباب في الوقت الراهن ، لايمكننا أن نقارنه بعهد شبابنا (مع أننا نرغب في ذلك) .

فيما يتعلق بالطابع القفزي لحركة التطور ، حيث نشاهد ان تراكم التغيرات الكمية ينقلب الى كيفية جديدة ، علينا ان نلاحظ ، ان كل عملية استيعاب وفهم تتبع هذه الطريقة ذاتها في التحول .

- اما فيما يتعلق بالاسباب الحقيقية للتطور : الا وهي التناقضات الداخلية فأود ان احدد موضوع بحثي واسهابي ضمن اطارها بصورة خاصة .

في معظم الاحيان يعترض سبيل المربي الحوادث التالية :

- يلاحظ مثلاً ان احد الفتية يقوم بواجباته في المدرسة على نحو جيد، ويظهر بمظهر المتأدب المحتشم امام معلمه . اما في البيت العائلي او لدى المقربين اليه فـنراه يظهر بمظهر معاكس .

- حادثة ثانية : لقد طرحنا السؤال على فتى لا يناهز السابعة عشرة من عمره ، ان كان يود ان يؤدي عملا اختيارياً دون اجر ما . هز برأسه مستنكراً وقال « بدون اجرة ، لا احرك ساكناً » ، وعندما جرت اشغال اختيارية تهدف إلى تحسين المدينة انضم هذا الفتى بالذات الى صفوف المتطوعين وتميز عن الآخرين بدأبه ونشاطه .

- حادثة اخرى : منح ثلاثة من الطلبة الجوائز لانهم انجزوا عملا مثالياً ، لدى معونتهم ابان القطاف . لكن بعد اربعة اسابيع دعت الادارة هؤلاء المثاليين كي يؤدوا الحساب بسبب ثلمهم روح النظام .

- وهناك فئة من التلامذة كانوا ينجزون وظائفهم البيتية بشكل سيء ، بينما نجد المشرف على تدريبهم في المصنع ، خلال الدرس التقني العملي ، يثني على جهودهم .

لقد تعمقنا في بحث هذه المشكلة ، مشكلة التناقضات واجرينا اختبارات في شأنها على ثلاثة آلاف من الطلبة .

في البدء أود ان اذكر بعض الملاحظات :

إن هذه الصيغة الصغيرة « التطور ناجم عن صراع الاضداد » تعود إلى لينين . والفلسفة الماركسية تعلمنا ايضاً ان « الامور تبقى على حالها ولا يطرأ عليها التغيير ، اذا لم يكن هنالك تناقضات بين المواضيع والظاهرات ، اذا لم يكن هناك صراع بين الجوانب المتعارضة والميول » . وقد أشار لينين إلى أن نظرية وحدة وصراع الاضداد هي النواة العقلانية « في الفلسفة الماركسية . ان قانون التناقضات ، أو بالأحرى قانون وحدة الاضداد وصراعها يشير بوضوح للعلماء الذين يهتمون بأمور التطور (كذلك تطور الوعي) ، الى ان جوانب التناقض والميول كامنة في جميع الأشياء والظاهرات والعمليات ، التي هي في حالة

صراع مع بعضها البعض . ان صراع الاضداد يدفع بعملية التطور الى الأمام ، وهذا يؤدي الى ازدياد التناقضات ، التي لا شك ستجد حلاً لها في مرحلة معينة ،من خلال عبور الأمور القديمة وتكون الامور الجديدة .

ان صراع الاضداد من نشوئه الى ايجاد حلوله لعملية معقدة ، إنه يمر في مراحل مختلفة أو بالأحرى في درجات تطور مختلفة .

ليس للتناقض في البدء معالم ظاهرة بارزة. قبل كل شيء يظهر تباين معين في جوانب الظاهرات وميولها ، هذا التباين لا يؤلف بعد نفياً حاداً للظاهرة ، لكنه لا يلبث أن يستحيل في مجرى حركة التطور الى ضـد ، أي الى تناقض متطور ، قد وصل الى مرحلة لا يحتمل أن تتلاقى فيها الاضـداد في ظل وحـدة ملتحمة . هنا يدخل التناقض في مرحلة يتحتم إيجاد حل له .

وعلينا أن ندرك كنه التناقضات الموجودة وإيجاد حلول لها في الوقت الملائم المناسب ، لا قبل ولا بعد . وهذا الأمر يلعب دوراً هاماً في عملية التربية كما في التطور الاجتماعي . ان محاولة ايجاد حل مبكر للتناقض ، أي في وقت لم تتبلور بعد الميول التقدمية فيه ، يقود حركة التطور إلى حالة من الركود (كايجاد حل وسط ، وعدم التقييم الصحيح ، وعملية التقليل والمدافعة) أو يؤدي الى بروز ظواهر تراجعية (كالاستغناء والتخلي ،الاستسلام، التقهقر والنكوص والهرب).

وقد أشار المربي الكبير ماكارنكو إلى أن « الميعاد الصحيح » لاتخاذ اجراءات تربوية ، يلعب دوراً كبيراً ، فيما يتعلق بفعالية هذه الاجراءات . ان تربية فئة لا تخضع للنظام لا يمكن أن يتم « وفق طريقة التأثير السريع من آونة إلى أخرى » . انما على المربي أن يراقب ويحلل درجة التطور التي بلغها المجموع تحليلاً واقعياً . « ليس للعقاب من قيمة مجدية إلا إذا استوعب ذلك الذي يجب أن

بنفسه ، أن المجموع يدافع عن مصالح مشتركة من خلال فرضه العقاب . بكلمة اخرى : عندما يعلم هو ذاته ، لماذا يفرض عليه المجموع تنفيذ عقاب ما » .

ان ايجاد حل للتناقض لا يعني مطلقاً الوصول إلى حالة من الهدوء والراحة اذ لا وجود أبداً لتطابق مطلق للعالم ، أو ما يسمى « تماثل مطلق جامد لموضوع ما » في الواقع تتضمن المواضيع دائماً تناقضات عديدة مستترة أو واضحة ، فاذا لم يظهر تناقض معين في موضوع معين إلى حيز الوجود ، اذا لم ينشأ بعد ، فهناك مع ذلك تناقضات كامنة فيه ! اننا نؤكد على هذه الناحية ، لأنها هامة بالنسبة لتطور الوعي وهي : ان كل تناقض ينشأ ، يمر بتطور معين .

ومن دراستنا للجدلية الماركسية نستخلص أيضاً ، أنه لا وجود لحاضر لا يغلب قائم بين الاضداد يعزلها بعضها عن بعض ، انما تتحول هذه الاضداد متصلة مع بعضها . وان معرفتنا بأن حركة تطور الظاهرات والمواضيع تقوم على صراع الأضداد ، يقودنا كي نستنتج ، أن هذه المواضيع والظاهرات تحمل مصدر تطورها في ذاتها ، وان التطور هو حركة ذاتية هو تطور تلقائي للمادة .

ان المفهوم الجدلي « للحركة الذاتية التلقائية » على صعيد تطور الوعي ، يعارض المبدأ الآلي في علم التربية ، الذي يعتبر أن الدافع الخارجي (كاتخاذ اجراءات تربوية مثلاً) كعلة من العلل التي تستطيع حل عملية التطوير حلاً مباشراً أو تسير دفتها في وجهة محددة . ونلاحظ أن الشروط الداخلية للشخصية قد أضعفت من الواقع المؤثر في الحواس العضوية « فيما يتعلق بعملية الانعكاس . ان البحاثة روبنشتاين صاغ المعرفة الجدليـــة لهذه العلاقة على النحو التالي : « لدى تعليلنا للظاهرات النفسية ، ننطلق من أن الشخصية مكونة من كل موحد من الشروط الداخلية . وأما التأثيرات الخارجية برمتها (وكذلك التأثيرات التربوية الخارجية) فتتفتت على صفحة هذه الشروط » .

وهذا يوضح أيضاً ، أن التناقضات الكامنة في شعور الانسان لا يمكن أن تبعث بمقتضى بعض الاجراءات التربوية الهادفة . ونوافق **روزنفيلد** القائل ، إن حالة التناقض الداخلي ليست مطلقاً سبباً لاحقاً مباشراً لشروط تنبع من الخارج وانما تخضع لشروط تنبع من العوامل الداخلية . ان حادثة ظهور تناقض داخلي تتعلق بنوعية المحددات الخارجية ، وايضاً تتعلق بالتبلور الداخلي للشروط في تلك الحالة .

بما أنه لا يمكن ان تنسجم التناقضات الداخلية في المجال النفسي ، من خلال عمليات توازنية ، بل فقط يمكن التغلب عليها وايجاد حل لها ، من جراء صراع الاضداد ، نقف في مجال العمل التربوي من حيث المبدأ التعليمي، امام هذه الأشياء الضرورية :

- معرفة التناقضات الداخلية في الوقت الملائم .

- الحث من نشاط التناقض ، بحيث تنضج امكانية وجود حلول، وبحيث نستطيع أن نقوم بالحلول .

ونستطيع ان نميز ثلاثة أنواع من التناقضات :

- تناقضاً كمبدأ سببي ، في نطاق تطور الفرد .
- تناقضاً كحافز ، لتعليل دواعي العمليات النفسية والتطورات .
- تناقضاً كمبدأ تعليمي ،ويساعد على شرح الأثر العام للدالات التربوية .

وفي المشادات اليومية التي تحصل بين الشباب والبيئة ، هذه البيئة التي تصطبغ من وجهة عامة بالصبغة الاشتراكية ، وكفى من وجهة خاصة يطبعها صراع الاضداد ، يعاني ويدرك الشاب سلوك الانسان الآخر، الذي يتطابق بكثير أو قليل والمبادىء الخلقية الاشتراكية ، وبالتالي تبرز نقاط من التباين في مضمون

معاناته ومعرفته هو بالذات ، ويتخذ هذا التباين تدريجياً طابع الاضداد ، وفي استطاعته بلوغ حالة النضج ليتحول الى تناقض داخلي . إن التناقض الداخلي الذي يغدو ماثلاً في نفس الشاب هو أبداً معاناة ذاتية، هو الشعوربعدم الرضى مع ذاته ، اللارضى عن تصرفاته ، عن معرفته وامكاناته ،عن آرائه ومواقفه وخصائص طبعه. وهذا يعني في المجال الانفعالي : قلقاً وعدم رضى وصراعاً نفسياً .

ويعني من حيث الطاقة : ضغطاً وقسراً دافعاً وتوتراً .

ويعني في المجال العرفاني : معرفة وجهلا ، المحتوى القديم والمحتوى الجديد، طرق تفكير قديمة وحديثة ، تبايناً وتركيزا ، تحليلا وتآليفاً ، ادراك العقبات والاضداد .

ويعني في المجال الارادي المقوم : الادارة والمقدرة ، الاهداف الشخصية والواجبات الاجتماعية العادات القديمة والعادات الجديدة ...

وقد أجريت دراسات اختبارية على ثلاثة آلاف من الطلبة تتراوح صفوفهم بين السابع والعاشر .

وقد حاولنا استيعاب مشكلة التناقض في مجال المعاناة الخلقية وفي مجال المعرفة، وفي مجال التصرف ، بشكل واقعي ملموس . ولم نكتف بمعرفة التناقضات الماثلة في الوجدان الخلقي عند الشباب وتسجيلها ، انما بحثنا أيضاً علاقتها مع بعض محددات اجتماعية تسود في الصف . وكي نستطيع أن نوضح التناقضات كماً ، استعملنا قيمة قياسية من ١ الى ٥ كي يسهل التقيم ، مثلاً :

القيمة ١ = ايجابية محضة

القيمة ٢ = ايجابية مع التحديد

القيمة ٣ = عدم اتزان

القيمة ٤ = سلبية مع التحديد

القيمة ٥ = سلبية محضة

وقد وقع اختيارنا لتحليل الوعي الخلقي على نظرية روبينشتاين حول الفرق القائم بين مفهوم المعاناة ومفهوم المعرفة .

ان المعرفة والمعاناة يكونان وحدة لاتتجزأ في الوعي البشري ، لكن هذين المفهومين لايتماثلان . بينما نلاحظ أن المعاناة هي ربط الحوافز بالأهداف ، في حين يسودجوها الوجهة الانفعالية ، نلاحظ أن المعرفة تقود إلى ادراك الموضوعات والظاهرات مقتربة من الحقيقة . لاتوجد حدود جامدة تفصل بين المعاناة والمعرفة ، ان المعاناة هي ابداً معاناة شيء ما ، والمعرفة التي تحمل في طياتها فائدة جمة للبشر ، في وسعها أن تغدو معاناة . في عملية المعاناة لايمحي وجه المعرفة كلياً مطلقاً ، بل ان كل ظاهرة نفسية تتضمن برهة من برهات المعرفة ، لأن كل عملية نفسية تمثل انعكاساً للواقع الموضوعي . وعندما يبدأ المرء بالتفاعل مع بيئته ، وعندما يشرع بتغيير وجه الطبيعة والمجتمع تنشأ معلومات ومعارف .

ان هذين المظهرين ، الماثلين في شعور الانسان والمتداخلين مع بعضها البعض ، يلعبان دوراً كبيراً في دراسة العوامل المختلفة للوعي الخلقي . ان المعاني المتباينة تماماً والتي تنمو في الوجدان الخلقي لدى الطفل أو الشاب من جراء المجادلات العنيفة التي تحدث بينه وبين البيئة ، إن هذه المعاني المتضاربة تنشأ من انعكاس ذاتي ناجم عن الواقع الموضوعي . وهذه المعاني تكشف لنا عن درجة تطور الوعي الخلقي الموحد .

لقد كانت التناقضات لدى معظم الذين أجري عليهم الاختبار ، غير بارزة المعالم . ان الفرق بين المفاهيم : معرفة ، معاناة ، تصرف ، كانت ماثلة في ذهنهم إلى جانب بعضها البعض ، دون علم من الطلبة بأنها غير متماثلة . لقد كان الطالب قد عانى وأدرك مضمون هذه المفاهيم غير المتماثلة في الجدال اليومي مع بيئته ،

والآن تطفو هذه المفاهيم على صفحة شعوره بالشكل ذاته ، أي بشكل متتابع .
ولكن تبقى من الناحية الموضوعية حقيقة واحدة وهي ، أن التطوير العالي المميز للوعي الخلقي ، يتعلق بمدى استطاعة المعلمين والمربين ادراك كنه هذه التناقضات ، وتنشيط الأضداد ، وايجاد حلولها . واذا لم تصل هـــذه التناقضات بعد صعيداً يستلزم حلها ، يقع الأمر بصورة خاصة على الأهل ، لأن الظروف التربوية ليست مـــوحدة هناك ، وعلى عـــاتق المدرسة ومنظمات الشبيبة ، وعلى الشروط الاجتماعية الأخرى .

وقد أثبتنا خلال تجربتنا هذه ، أن التناقضات من الصف السابع الى العاشر تتضاءل كماً وتزداد كيفاً . ان مسحة عدم الاستقرار ، المعروفة في عهد الشباب أثرت تأثيراً بالغاً ، طارحة ظلها على الصف السابع والثامن ، بينما نجد في الصف العاشر تحديداً للتناقضات من خلال التقرب إلى ميدان الحياة واتساع أفق المعارف والمعلومات .

ان التناقضات المعروفة في الوعي الخلقي لدى الشباب تتجلى في جانبين : في الجانب الاول تتجلى محتويات الاخلاق الاشتراكية وفي الجانب الثاني بقايا التفكير الرأسمالي . وبما أن العامل الايدلوجي يتمتع باهمية قصوى في سبيل تطوير المجتمع الاشتراكي ، يبذل المعلمون ورجال التربية قصارى جهدهم كي يمحوا هذه البقايا الخلقية الرأسمالية البرجوازية من صفحة الوعي لدى الشبيبة . وسيكون جهدهم مثمراً ، اذا استطاعوا أن يثبتوا في ذهن الشباب بعض العلائم الجوهرية التي تتحلى بها الاخلاق الاشتراكية ، وأن ينشطوا من مفعول هذه العلائم ، كي تستطيع أن تصمد بثبات كعنصر فعال مضاد لتلك الظواهر السلبية .

وقد برهنت النتائج التي حصلنا عليها من هذه الدراسة ، بأن المهمة التي

كانت ملقاة على عاتق المدرسين والمعلمين والمربين ، قد انجزت بشكل ناجح في المجالات التالية :

- في الموافقة على علاقات الملكية الاشتراكية .
- في اعتبار الفاشية والامبرياليين كأعداء .
- في حب السلام والتضامن مع جميع الشعوب المحبة للسلام .
- في الاستعداد لاقتناء العلم والمعرفة والجد والنشاط .
- في المعوقة المتبادلة على الصعيد الاجتماعي .

ان لكل طالب مشكلاته الخاصة في المضمار التناقضي . ان تنشيط الاضداد يتم على وجهه الأكمل ، اذا استطعنا ، نحن الذين كرسنا حياتنا لخدمة التربية ، ايجاد العنصر الطيب الحسن في الانسان ، وعمدنا الى تنميته وتقويته . كل شاب يتحلي بخصائص ايجابية عديدة ، وعلينا أن ندرك هذه الخصائص ، ونعرفه معرفة تامة ، اذا أردنا أن نقوم بتربيته تربية ناجحة .

* * *

المصادر

١ - التحليل النفسي والحضارة

باشراف الأستاذ الجامعي هانيريش مينـغ

مونشن ١٩٦٥

٢ - فيلهلم رايـخ – سيغفريد برنفيلد

المادية الجدلية والتحليل النفسي

(كتابات ثورية II) برلين ١٩٦٨

٣ - كارل غوستاف يونغ

عالم النفس

مونشن ١٩٦٥

1 — Psychoanalyse und Kultur
Herausgegeben von Prof Heinrich Meng
München 1965

2 — W. Reich - S. Bernfeld
Dialektischer Materialismus und Psychoanalyse
(Revolutionàre Schriffen ll) Berlin 1968

3 — C. G. yung
Welt der Psyche. Munchen 1965

محتويات الكتاب

٢٥٠٠ / ١ / ١٩٧٥


علي
@alisirosch
" أما نحن ، فنمثل الاستثناء والخطر ." #نيتشه
انضمّ في مايو ٢٠١٦
٥١ المتابَعون ٢،٣٦٨ المتابِعون

« كتّاب هذه الدراسات من أبرز من أسهموا في الفكر الأوروبي المعاصر .

وهذه الدراسات ، على حد تعبير فرويد .. أفضل مدخل في التحليل النفسي .

إنها تتناول الجوانب الحضارية للانسان في ضوء علم نفس الاعماق ، وهي تدور حول محاور عدة ، تتركز في موضوع التحليل النفسي حتى يخوض القارىء العربي غمار علم نجابهه في حياتنا ، في سبيل صقل الثقافة وتعميق الوعي .

إن للتحليل النفسي مكانة مرموقة بين باقي العلوم ويشكل عاملاً حاسماً بين العوامل التي تحدد الاتجاه الفكري في عصرنا . »

من مقدمة الكتاب



سعر النسخة
ق.س.ل

مطبعة وزارة الثقافة
دمشق — ١٩٧٥